تاريخ القاهرة فى ألف عام

القاهرة

من المعز الى الفاروق

البكباشى

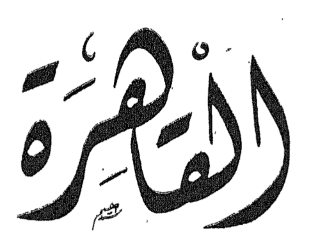
عبد الرحمن زكى

دبلوم فى الآثار الاسلامية من جامعة فؤاد الأول

مدير المتحف الحربى

١٣٦٣ هـ — ١٩٤٣ م

هذه هى



القاهرة

مع تحيات المؤلف وتقديره واحترامه
لحضرة صاحب المعالى عبد الرزاق احمد السنهورى
وزير المعارف العمومية
عبد الرحمن زكى

البكباشى عبد الرحمن زكى
د. آثار اسلامية من جامعة فؤاد الاول
وأمين المتحف الحربى ومدير مجلة الجيش
ومدير الشئون العامة بوزارة الدفاع الوطنى

الطبعة الثانية

١٣٦٢ — ١٩٤٣

دار المستقبل - تليفون ٥٤٨٨٩ بمصر.

مقدمة

من بواعث الأسف أن لا يكون فى اللغة العربية كتاب عن القاهرة فى الوقت الذى نرى عشرات من الكتب عنها باللغات الأجنبية. وأننا مهما نحاول أن نلتمس لأنفسنا من أعذار لا نجد ما يسوغ إهمالنا وتقصيرنا فى هذا الباب. ويخيل إلى أنه كان لاحجامنا عن الكتابة فى موضوع مدينة القاهرة حتى الآن سببان: الأول وعورة الموضوع نفسه ودقته وتعدد نواحيه وتفرعها والآخر قلة ما ينتظر أن يدره كتاب يؤلف فيه على صاحبه من ربح فى عصر نرى فيه سوق الكتب التافهة تكاد تقضى على سوق الكتب التى يقتضى تأليفها بحثا ودرساً طويلين

ولكن هذا كله لا يبرر إغفالنا موضوع القاهرة حتى الآن وتوانينا فى التأليف عنها وخصوصا بعد ظهور كتب كثيرة عن عواصم البلدان

وكأنه شق على صديقى القديم البكباشى عبد الرحمن زكى أن تنقضى ألف سنة على نشأة القاهرة وأن لا يكون فى مكاتبنا عنها كتاب باللغة العربية فشمر عن ساعد العزيمة وعقد النية على سد هذا الفراغ متذرعا لتحقيق هذه الأمنية بما حباه الله من صبر على المطالعة وجلد فى البحث ورغبة فى التدقيق والتمحيص يعزز ذلك فيه حب موروث للوطن والتاريخ .

وكاتب هذه السطور أول من يعلم أن المؤلف أقدم على تأليف هذا الكتاب وهو عالم بما يكتنف موضوعه من صعاب، ولكنه جندى قبل كل شىء والجندى يلبى نداء الواجب بقطع النظر عن الصعاب والأخطار التى تكتنفه و «عبد الرحمن زكى» بأقدامه على تأليف هذا الكتاب لم يكن إلا ملبيا نداء ضميره حينما أهاب به أن يسد الفراغ الموجود فى مكاتبنا بعدم وجود كتاب عن القاهرة فيها باللغه العربية

وقد أتاحت لى صداقتى القديمة لعبد الرحمن زكى أن أتتبع الجهود التى بذلها فى إعداد هذا الكتاب وطبعه يوما فيوما ، وطالما قال لى أنه موقن من أن كتابه هذا لن يجىء وافيا بالغرض منه فى جميع النواحى . إذ أن موضوعا كموضوع القاهرة خليق بعشرات الكتب لا بكتاب واحد أو بكتابين لأنه مهما تتسع صفحات كتاب أو كتابين فانهما لا يفيان بما يجب من الاسهاب فى وضع تاريخ عشرة قرون مضت على وجود القاهرة غير أن صديق الملتهب غيرة على بلاده كان يقول لى « اذا لم يكن لكتابى من حسنة بعد ظهوره غير حث الذين يرون فيه تقصيراً ونقصا على تأليف كتب أفضل منه فحسبى ذلك مكافأة »

ولا أخالنى فى حاجة الى وصف ماعاناه صديقى من تعب ونصب فى جمع معلومات كتابه وبياناته فان الكتاب نفسه كفيل بأن يصف ذلك أبلغ وصف وأظن أن رجال دار الكتب والجمعية الجغرافية والمعهد المصرى مستعدون دائما لأن يشهدوا بأن عبد الرحمن زكى أقلق راحتهم من مدة طويلة فى أوقات كان كثير من الناس لايهتمون فيها بغير توفير أسباب الراحة لأنفسهم (١)

ولا يسعنى فى ختام هذه الكلمة إلا أن أهنىء جيشنا بضابطه المقدام فان هذا الكتاب مفخرة للجيش قبل أن يكون مفخرة لمؤلفه وهو دليل آخر ناطق بأن فى صفوف رجاله ضباطا يعرفون كيف يقضون أوقات فراغهم فيما ينفع وطنهم وقومهم

لقد تعب صديق عبد الرحمن زكى كثيراً فى انجاز هذا الكتاب وطبعه ولا أعلم إذا كان الناس سيقدرون جهوده حق قدرها ولكننى واثق منذ الآن من شىء واحد وهو أن له الحق أن يفخر دائما بانه أول من أخرج بالعربيـــة لمواطنيه كتابا عن القاهرة المعزية وبأنه ذكر الباحثين منهم بأن هناك موضوعا اسمه تاريخ القاهرة جدير بعنايتهم . وفى ذلك ما يكفى لراحة ضميره والسلام

كريم ثابت

---

(١) فى السنة التى تلت طبع الجزء الاول من كتاب القاهرة اخرج الملازم الأول (فى ذلك الحين) الجزء الثانى من كتابه . وقد تناول فيه تاريخ المدينة منذ نهاية العصر المملوكى الى القرن التاسع عشر

تمهيد

للقاهرة مكانتها بين مدن العالم فهى مدينة ولدت وعاشت فى القرون الوسطى وهى تتحول اليوم الى مدينة حديثة . ولا أدرى إذا كان هـذا التحول لنا أو علينا . ولكنها على كل حال تبتعد تدريجيا عن الشرق بقدر ماتقترب من الغرب

مرت على القاهرة أدوار تاريخية متتابعة . ولقد شيدت وأعيد تشييدها خلال ما مر بها من العصور : عصور نور أم عصور ظلام ، ومع هـذا لا نزال نرى فيها كثيرا من تلك المخلفات التى تجعلنا نتصور ماكانت عليه القاهرة منـذ تسعمائة عام . فان الشوارع التى تضيق بالناس فى أحياء القاهرة القديمة وطابع مابقى من قصورها وبيوتها ذات الطراز الشرقى وبعض أسواقها المسقوفة وإلى جانبها تلك الآثار التاريخية النادرة . كل هذه المخلفات ترجع بذاكرتنـا الى الوراء : إلى قاهرة العصور الوسطى

وليس الغرض من هذا الكتاب درس القاهرة من ناحية جغرافية أو تاريخية أو طبوغرافية أو اجتماعية . بل الغرض منه درس عام فيه نبذ موجزة من كل هذه النواحى : والباس تلك المظاهر العمرانية والمادية للقاهرة الأولى بما اكتنفها من حوادث التاريخ لكى تكسب صفحات الكتاب شيئاً من لذة المطالعة

وكثير من مبانى القاهرة ـ ولا سيما ماشيد من المساجد فى أثناء عصر المماليك ـ أمثلة ناطقة بجمال العمارة ورشاقة الفن ولاتزال فى القاهرة بعض القصور الخربة والعقود المتهدمة ومخلفات من الأسوار الضخمة والكتابات المنقوشة ، وهذه إن كان يعجب بها ويتذوقها المحب للآثار فانها ملهمة للفنان أيضا . ولقد حاولت فى أثناء تتبع نمو القاهرة أن أحيط مخلفاتها الأثرية بجو من تاريخها المعـاصر لأعطى صورة ناطقة لقاهرة ذلك الحين ـ والنمو المادى لمدينة ما يجب أن يمتزج بحياة شعبها وأخلاق حكامها وثقافة مهذبيها وفى هذه الحال يستطيع القارىء أن يجد فى البحث الطبوغرافى التاريخى مادة سهلة

كنت أخرج أحيانا عن موضوع القاهرة الأساسى بتأثير التاريخ الممتع لذلك كان من الضرورى أن أضفى على القاهرة شيئا من ذكرياتها التاريخيـــة وأرجو أن لا يفهم من ذلك أن كتابى (تاريخ عام لمصر) فكثيراً ما أهملت حوادث هامة فى تاريخنا لأنها لم تكن ذات صلة تربطها بتحول القاهرة

سيعرف القارىء كيف خط القائد جوهر أساس المدنيـة فى ليلة حالـكة السواد ثم كيف طرح السلطان صلاح الدين جلال القصور الفاطميـة وشيد القاهرة لتكون عاصمة جـــديرة بامبراطوريته ، وكيف استقبلت الملكة شجرة الدر امراء الدولة من خلف ستار وكيف تسلّم بيبرس العظيم خلعة توليته من الخليفة ، وكيف افتتح قلاوون مارستانه الخالد على يد خطيب غير مخلص . وكيف زينت القاهرة فرحا وابتهاجا عندما ضاعت القسطنطينية من الدولة البيزنطية وربحها العثمانيون . ويسدل الستار مؤقتاً فينقلب الابتهاج حزناً لما دخلها السلطان سليم الأول من باب زويله غالباً منصوراً . وأخيراً يصل إليها بونابرت مصحوباً بعلمائه وقواده وجنده . ويعيث المماليك فى أحيائهـا فساداً حتى يقيض الله لها مؤسس مصر الحديثة محمد على باشا الكبير فيستسلم المماليك له فى جامع البرقوقية ومن بعده يصل حفيده العظيم اسماعيل فينقلها من الشرق ليضعها فى المكان اللائق بها بين مثيلاتها عواصم الغرب. ويهبنا الله ملـكا عظيما «فؤاد الأول» فيعمل على تثقيفها وتزويدها بالمعاهد والمؤسسات ويصدر أوامره الكريمة بتجديد آثارها لتسترد سالف رونقها ودارس بهائها ، ثم يخلفه على عرشـــه العظيم « فاروق الأول » فينهج منهج أبيه

ويجد القارىء فى ذيل الكتاب المراجع التى اعتمدت عليها فى هـذا الجزء من كتاب القاهرة ـــ وكانت خطط العلامة المؤرخ المقريزى أفضل مصدر استفدت منه ـــ كتبها فى أوائل القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) ولا اعتقد أنها فى حاجة إلى تقريظ فهى أنفس مصادر لتاريخ خطط القاهرة وتعد موسوعة كاملة لتاريخنا إلى القرن المذكور وهى بلا ريب أثر خالد على مر الأجيال وإننى لأذكر بعد العلامة المقريزى العلماء والمؤرخين المسعودى وناصر خسرو وعبداللطيف البغدادى وابن جبير وابن دقماق وابن سعيد والسيوطى وأبو المحاسن والجبرتى وجورجي زيدان وستانلي لين بول ووليم لين وعلى باشا مبارك

وماكس فان برشم Max van Berchem ورافيس Ravaisse وكازانوفا Casanova
والكابتن كرسويل Capt. Creswell والســـيدة ديفونشير Mrs. Devonshire
والدكتور حسن ابراهيم حسن والدكتور زكى حسن الذى أعانني بآرائه وغيرهم
من أفاضل العلماء والباحثين وانى لمدين حقا للاستاذ العلامة محمد رمزى بك
الذى رصع صفحات القاهرة سواء بتعليقاته النفيسة أم ببحوثه التى تفضل
باهدائهـا الى فاستعنت بها ونشرت بعضها فى كتابى وبالرغم من وجود اسمى على
غلاف الكتاب كشأن جميع المؤلفين إلا أن الفضل كل الفضل يعود الى هؤلاء
الأفاضل العلماء الأجلاء ، الأحياء منهم والأموات

أما وقد ذكرت أصحاب الفضل وأثر بحوثهم فى إخراج كتاب القاهرة أرى
من الواجب ذكر طائفة أخرى من السادة الأفاضل الذين ساهموا معى فى إنجاز
هذا الكتاب وهم حضرات الأساتذة أحمد رامى والسيد عمر وعلى امام من
دار الكتب المصرية والمرحوم الأستاذ حسن الهوارى الأمين المساعد لدار
الآثار العربية والأستاذ المسيو مونييه M. Munier سكرتير الجمعيـة الجغرافية
الملكية والأستاذ جوهان مارشان M. Johan Marchand أمين مكتبة المجمع
المصرى سابقاً والأستاذ المرحوم يوسف أحمد والأستاذ حسن عبد الوهاب
وآثار عملهما واضحة فى الكتاب والأستاذ كريم ثابت فكان أكبر المشجعين
بحثه الدائم على إخراج «القاهرة» وكذلك الاستاذ لطفى رضوان

هذا هو كتابى عن القاهرة وإن كان من حقها أن يؤلف فيها عشرات الكتب
بالعربية كما قال صديقى الأستاذ كريم ثابت غير أننى أحمد الله على توفيقى فى إخراج
هذا الكتاب ولو أنه جاء فى صورة كنت ارغب فى أوفى وأدق منها — فالقاهرة
فى حاجة إلى سفر عظيم تتولاه هيئة علمية وعلى كل حال فان الخير إذا جاء متأخراً
فليس ذلك بمنقص من قدره

وأرجو أن اقرأ ملاحظات النقاد والباحثين على هذا الجزء ففى ذلك خدمة
للعلم وهذا ماننشده جميعاً .

هدانا الله سواء السبيل فى ظل مليكنا العظيم . «فاروق الأول حفظه الله»

رمضان ١٣٦٢ — سبتمبر ١٩٤٣

البكباشى عبد الرحمن زكى

عواصم مصر الاسلامية

قبل بناء القاهرة

المدينة الاسلامية

اشتغل العرب قبل الاسلام بالتجارة بين الاقاليم المحيطة بشبه جزيرتهم وكان العربى هو الرجل الوحيد الذى يمكنه أن يكون وسيطا بين تلك الاقاليم لمعرفته بطرق الصحراء ولمقدرة إبله على اختراقها لصبرها على الجوع والعطش ولما كان محتاجاً الى محطات تستريح فيها القوافل التجارية ليتناول فيها رجالها ما يلزمهم من الماء والعتاد فقد قامت مدن صغيرة نشأت حول عيون المياه مثل مكة ويثرب « المدينة » وهما على ما يظهر أقدم المدن العربية فى شمال شبه الجزيرة.

وبعد أن بزغ نجم الاسلام وأنتشرت الدعوة المحمدية تكونت الدولة العربية وبرزت ظاهرة انشاء المدن أو تمصير الأمصار. وأهم ماكان يرمى اليه ولاة المسلمين فى البلاد التى فتحوها تأسيس قاعدة لملكهم الجديد لتكون معسكراً لجنودهم ولكى تضم بين جوانبها دواوين حكومتهم وفى قلبها مسجد يقيمون فيه شعائر دينهم. وعلى هذا النحو أنشئت البصرة (سنة ١٦ ه) والكوفة (سنة ١٨ ه) فى العراق والفسطاط فى مصر (سنة ٢٠ ه). وسنرى هل وفق العرب الى اختيار مواقع المدن الجديدة التى أسسوها، وإلى أى حد كان نجاحهم فى هذا المضمار

ذلك هو النوع الأول من المدن الاسلامية الذى نشأ فى عصر الحروب الاسلامية عندما اقتضت الحاجة انشاء مدن عسكرية يستقر فيها الجند المحاربون ولا يلبث أن يلحق بهم كثيرون من أفراد أسرهم. وبانتهاء عصر الفتح واخلاد الخلفاء الى الطمأنينة والاستقرار لم تتجاوز رغبتهم بناء قصورلهم ولحاشيتهم فى مكان خاص سرعان ما تقوم حوله مدينة كما حدث فى بغداد وسامرا والقاهرة

ولقد انتقد الفيلسوف المسلم ابن خلدون فى مقدمته المشهورة باسمه مهندسى العرب الأوائل لأنهم لم يراعوا الشروط الاساسية التى يجب توافرها عند انتخاب موقع المدينة وتخطيطها . فذكر أنه يشترط فى اختيار موقع المدينة أن تقع إما على مكان محصن من الجبل . وإما فى منحنى بحر أونهر حتى لا يصل اليها أحد إلا بعد العبور . كما اشترط طيب الهواء للسلامة من الامراض ، وقرب الزرع منها ليحصل الناس على الأقوات . وضرب ابن خلدون مثلا فى سوء اختيار المواقع لمدن القيروان والكوفة والبصرة التى كانت أقرب الى الخراب لأنها لم تراع فيها الأمور الطبيعية (١) .

وإن كان بن خلدون قد أصاب فى بعض ملاحظاته ، فان أقواله لا تنطبق على بعض المدن التى أسسها العرب فى مصر كالفسطاط وذلك إذا نظرنا إلى الأمور الجغرافية والسياسية التى أدت إلى تأسيسها لأن :ـــ

١ ـــ رأس دلتا النيل موقع له من الوجهتين الحربية والادارية ما يجعله فى مأمن من هجمات العدو وتسهيل وصول المؤن والأقوات لقربها من الأراضى الزراعية كما له من الوجهتين التجارية والصناعية مزايا ظاهرة كانت الباعث على إيجاد مدينة مهمة فيه منذ فكر الملك مينا فى نقل العاصمة من مصر العليا

٢ ـــ من مزايا الموقع الذى شيدت فيه مدينة الفسطاط توفر الشرط الذى يجب أن يتوفر فى بناء المدن وهو أن يكون لها جانب يمكن أن يطرد فيه اتساعها وهذا الاتجاه بالقياس إلى الفسطاط هو الشمال فلما أريد توسعتها بنيت العسكر فالقطائع فالقاهرة وفى العهد القريب بنيت العباسية ومصر الجديدة (٢) .

٣ ـــ إن الضفة الشرقية مجاورة للمقطم ومرتفعة ولا يغمرها النيل أثناء الفيضان ، لذلك كان الامتداد على هذه الضفة ولم ينقل الى الضفة الغربية إلا أخيرا جدا . من ذلك نرى أن عمرو بن العاص قد وفق فى اختيار موقع العاصمة الأولى لمصر الاسلامية الفسطاط ـــ أكثر من توفيق زملائه القواد

(١) مقدمة ابن خلدون ـــ الطبعة الثالثة ـــ المطبعة الاميرية عام ١٣٢٠ هـ ـــ ص ٣٢٩

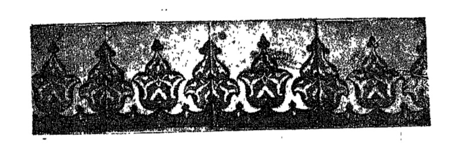
(٢) مذكرات للمرحوم الاستاذ حسن الهوارى أحد أمناء دار الآثار العربية سابقا وكان قد قدمها للمؤلف

الآخرين فى اختيار العواصم الأخرى التى أسسوها فى العراق أو فى شمال أفريقية كالبصرة والكوفة والقيروان

البصرة والكوفة

كانت البصرة من أقدم المدن التى بناها المسلمون . فقد مصرها القائد عقبة ابن غزوان عام ١٦ هـ (١) واختار لها موقعاً تلتقى فيه الطرق الآتيــة من نجد والشــام وهضبة إيران . وبذلك أصبحت مركزاً تجارياً عظيما ، فبقيت مدينة معروفة إلى اليوم بينما اندثرت الكوفة لما زالت الأحوال السياسية التى قامت عليها وقد اتخذها العرب الفاتحون فى مكان لايحول الماء بينه وبين مكة ، وبنوها أولا بالبوص ثم خافوا الحريق فبنـوها باللبن . وقسموا المدينة إلى خطط بحسب القبائل وجعلوا عرض شارعها الرئيسى ستين ذراعاً وعرض سواه من الشوارع عشرين ذراعاً . وجعــلوا عرض كل زقاق سبعة أذرع ووسط كل خط رحبة فسيحة لمرابط خيولهم وقبور موتاهم (٢) وقد بلغت مساحتها فى أمارة خالد بن عبدالله القسرى ٣٦ ميلا مربعاً

وبعد عام واحد وبضعة أشهر شيدت الكوفة بعد أن هزم القائد سعد بن أبى وقاص الامبراطورية الفارسية وقد رأى أن يتخذ المدائن (قطيفون) عاصمة فارس قاعدة لجيشه ومركزاً لادارة البلاد التى تم فتحها . فانتقل فيها واستوطنها إلا أن هذا لم يوافقه عليه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فأمر سعداً بانشاء مدينة للجيش العربى : اشترط فى تأسيسها أن لا يفصلها عن دار الخلافة بالمدينة بحر أو جسر ، فاختار سعد مكاناً على الجانب الغربى من نهر الفرات وبنى معسكره من الغاب فى أول الأمر وبنى مسجد الكوفة وبالقرب منه دارا له . واختطت كل قبيلة خطتها . وهكذا نشأت الكوفة



(١) ابن الفقيه ص ١٨٨ (٢) الماوردى ص ١٧١ .

فسطاط عمرو

ولما فتح العرب مصر (سنة ١٨ هـ) كانت عاصمة البلاد ــ الاسكندرية ــ ففكر عمرو بن العاص فى أن يتخذها قاعدة للادارة والجيش . إلا أن عمر بن الخطاب لم يوافقه على ذلك بل أمره بانشاء مدينة أخرى لا يفصله عن المسلمين فيها ماء فى شتاء ولا صيف . وسواء أصبحت أسطورة اليمامة (١) المشهورة التى أفرخت فى مكان فسطاط عمرو أم لم تصح فانه بعودته من فتح الاسكندرية تحول إلى ذلك المكان الفسيح الذى يقع شمال حصن بابليون حيث عسكرت قوات العرب للمرة الأولى . وأمر بتأسيس الفسطاط ليجعلها قاعدة البلاد ودار الامارة ـ واختط عمرو الجامع العتيق ، ثم اختطت القبائل العربية من حوله ، وكان عمرو قد ولى على الخطط أربعة من المسلمين للفصل بين القبائل فى تنظيم خطة كل منها وهم معاوية بن خديج التجيبى وشريك بن سمى الغطيفى وعمرو بن قحزم الخولانى وجبريل بن ناشرة المعافرى (٢) ويخالف بطلر المؤرخ Butler هذا الرأى فقد قال «والظاهر أن الذى قام بتنفيذ هذا الأمر إنما هم القبط لدرايتهم بفن العمارة التى كان يجهلها العرب (٣) . والواقع أن تخطيط الفسطاط فى ذلك العهد لم يكن من التعقيد بحيث يحتاج الى معماريين مهرة من القبط .

وقد روى البلاذرى أن الزبير هو الذى اختط الفسطاط واتخذ فيها لنفسه داراً جعل فيها السلم الذى صعد منه إلى سور حصن بابليون وبقى فيها ذلك السلم حتى احترق فى حريق الوزير شاور . أما ياقوت فقد ذكر فى معجم البلدان ما ذكرناه آنفاً منقولا عن ابن دقماق ، ويصف ابن الحكم فى كتابه فتوح مصر خطط الفسطاط الأولى ويبين كثيراً من مواضع الدور والأمكنة التى بناها

---

(١) ان حادثة اليمامة قد تكون سبباً فى التسمية ولكن لا يصح قط أن تكون سبباً فى اختيار الموقع

(٢) ابن دقماق ــ الانتصار ــ الجزء الاول . ص ٣٢٢

(٣) بتلر . فتح العرب لمصر وترجمة الاستاذ محمد فريد أبو حديد ص . ٢٩٤

رؤساء الجند والزعماء . وقد استند المستشرقون الى ما كتبه فأخرجوا تخطيطات هامة فى غاية الدقة لطبوغرافية الفسطاط . وقد حدد المؤرخ المقريزى موقع الفسطاط فى خططه فقال : .

« اعلم أن موقع الفسطاط الذى يقال له اليوم مدينة مصر كان فضاء ومزارع فيما بين النيل والجبل الشرقي الذى يعرف بجبل المقطم ليس فيه من البناء والعمارة سوى حصن يعرف بعضه اليوم بقصر الشمع وبالمعلقه ينزل به شحنة الروم المتولى على مصر من قبل القياصرة ملوك الروم عند مسيره من مدينة الاسكندرية ويقيم فيها ما يشاء ثم يعود إلى دار الامارة »

وتاريخ انشاء الفسطاط مختلف فيه فالبلاذرى يقول أنه كان بعد فتح بابليون فى حين ان أكثر المؤرخين يجعله بعد فتح الاسكندرية كما ذكرنا . ومن المحتمل أن يكون بناء المدينة قد بدأ بعد صلح الاسكندرية . وأنها زادت فيما بعد حتى صارت مدينة وعاصمة ذات شأن كبير ثم نمت نموا سريعاً بعد عام واحد من انشائها . وقــد قال المؤرخ أبو المحاسن أن « عمرو بن العاص بنى الفسطاط عام ٢١ هـ بعد فتح الاسكندرية . ومما زاد فى مكانة الفسطاط أنه كانت تصل بابليون والبحر الأحمر عند القلزم (السويس) قناة قديمة اسمها أمينس تراجانوس (ترعة طرايانوس) وكانت تمر بمدينة بلبيس وبحيرة التمساح لكنها أهملت فى وقت ما فأعاد حفرها عمرو بن العاص وعادت اليها أهميتها القديمة فكانت ترسل بواسطتها الغلال إلى بلاد العرب وسهلت بذلك المواصلات بين خليفة المؤمنين وواليه فى مصر

الجامع العتيق

وبانتهاء عمرو بن العاص من بناء عاصمته الجديدة أنشأ الجامع العتيق — أقدم المساجد فى مصر وأول نواة للعمارة الاسلامية فيها — (١) وقد اختار عمرو موضع بنائه فى المكان الذى كان فيه لواؤه وقد عرف باسم مسجد أهل الراية وهم نخبة من الجند الأنصار والمهاجرين كانوا يؤلفون قوات الجيش وتلتف حولهم كل قبيلة برايتها . وقد أورد المؤرخ ابن عبد الحكم فى تاريخه خطبة عمرو التى قالها فى يوم الجمعة وجاء فيها :

(١) راجع كتاب جامع عمرو بن العاص بالفسطاط — للمرحوم الاستاذ محمود أحمد باشا مدير إدارة حفظ الآثار العربية (عام ١٩٤٢)

« حدثنى عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الله سيفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيرا . فان لهم فيكم صهرا وذمة فكفوا أيديكم وعفوا فروجكم وغضوا أبصاركم ... وحدثنى عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله (صلعم) يقول إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جند كثيفا فذلك الجند خير أجناد الأرض فقال له أبو بكر ولم يارسول الله قال لأنهم وأزواجهم فى رباط إلى يوم القيامة . ولقد مرت أدوار كثيرة على (تاج الجوامع) كما أطلق عليه ، ووصفه الرحالة الأندلسى ابن سعيد الذى زار مصر فى القرن الثالث عشر قال :

.. ثم دخلت فيه فعاينت جامعا كبيراً قديم البناء غير مزخرف ولا محتفل فى حصره التى تدور مع بعض حيطانه . وأبصرت العامة رجالا ونساء قدجعلوه معبرا بأوطئة أقدامهم يجوزون فيه من باب ليقرب عليهم الطريق والبياعون يبيعون فيه أصناف المكسرات والحلوى . والناس يأكلون منه فى أمكنةعديدة غير محتشمين لجرى العادة عندهم . والعنكبوت قد عظم نسجه فى السقوف والأركان والحيطان والصبيان يلعبون فى صحنه وحيطانه مكتوبة بالفحم والحمرة بخطوط قبيحة مختلفة من كتب فقراء العامة . .

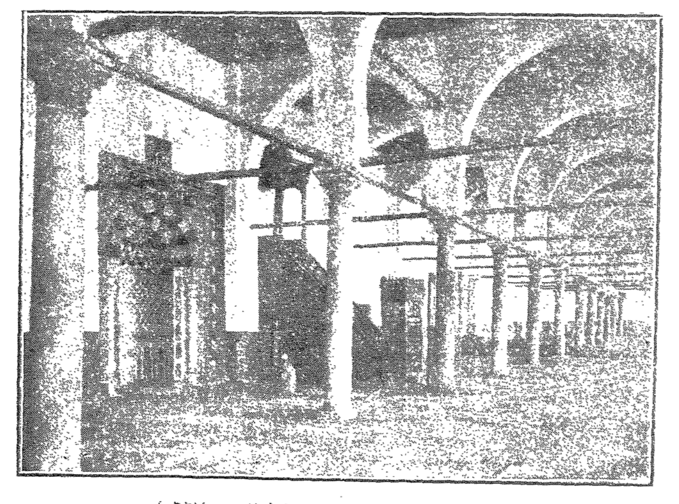
ولما أقبل القرن الثامن عشر كتب الجبرتى فى تاريخه « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » وانتشر الموسيقيون فى فنائه والقرداتية والراقصات فذهب بهاؤه القديم حتى هجره هؤلاء أيضا ولولا أقدام مرادبك على إعادةتجديده لاندثر تاج الجوامع منذ قرنين » . وفى الجهة البحرية من الجامع بنى عمرو دارا له واخرى غربها لابنه عبد الله عرفت بالدار الصغرى تمييز لها عن دار أبيه التى عرفت « بالدار الكبرى » . كذلك بنى الزبير بن العوام داراً بجوار دار عبد الله(١) . ولما رسخت أقدام المسلمين فى مصر اتسعت وزادت عمارة الفسطاط وفاقت البصرة والكوفة فى كثير من الوجوه(٢) . وبلغ امتدادها على ضفة النيل ثلاثةأميال كما ذكر ابن حوقل(٣) . وقال القضاعى عن مقدار عمارتها

---

(١) مجلة الهندسة — العددان ١١و١٢ بتاريخ نوفمبر وديسمبر سنة ١٩٣٣

(٢) تاريخ التمدن الاسلامى — جورجى زيدان — الجزء الثانى ص ١٧٤

(٣) ابن حوقل رحالة بغدادى زار الفسطاط فى النصف الاخير من القرن الرابع الهجرى (أواخر القرن العاشر الميلادى — المسالك والممالك)



رواقات جامع عمرو بن العاص بمصر القديمة (٢١هـ — ٦٢٧م)

أنه كان فى الفسطاط ٣٦٠٠٠ مسجداً و ٨٠٠٠ شارع مسلوك و ١٧٠٠٠ حمام .
ونحن نقول انه وإن كان فى هذا التقدير مبالغة ظاهرة فلاشك أن الفسطاط بلغت درجة رفيعة من العمران . وارتقت فى عهد خلفاء بنى أمية وصارت مقراً لولاتهم. وفيها شيد عبد العزيز بن مروان أمير مصر من قبل أخيه الخليفة عبد الملك داراً للأمارة عرفت بدار عبد العزيز كانت مطلة على النيل بلغ من سعتها وكثرة ساكنيها أنهم كانوا يصبون فيها أربعمائة راوية ماء كل يوم . وقد علت هذه الدار قبة مذهبة شأن الأمويين فى تفخيم بناياتهم حتى تبز المبانى البيزنطية التى خلفها الروم وراءهم فى الأقطار التى انتزعها العرب منهم

ولعل دار الامارة هذه كانت أول بناية اسلامية كبيرة بمصر وصل الينا نبأ زخرفتها . وقد مرت على الفسطاط بعـــد ذلك أدوار متعددة . « فكانت فى زمن من الازمان نحو ثلث بغداد ومقدارها نحو فرسخ على غاية العمارة والطيبة واللذة ذات رحاب فى محالها وأسواق عظام ومتاجر فخام ولها ظاهر أنيق وبساتين نضرة ومتنزهات خضرة (١)

ولما زار الفسطاط الرحالة ابن سعيد كانت قد تغيرت أحوالها وأنقلبت محاسنها إلى أضدادها فقال فى وصفها

« ولما أقبلت الفسطاط أدبرت عنى المسرة وتأملت أسوارا مثلمة سوداء وآفاقا مغبرة ودخلت من بابها وهو دون غلق مفض الى خراب معمور بمبانٍ سيئة الوضع غير مستقيمة الشوارع قد بنيت بالطوب الادكن والقصب والنخيل طبقة فوق طبقة وحول أبوابها من التراب الاسود والأذبال ما يقبض نفس النظيف ويغض طرف الطريف » (٢)

ومنذ تأسست الفسطاط إلى أن بنى العسكر وليها تسعة وعشرون أميرا مدة مائة وثلاثة عشر عاما وسبعة عشر أشهر أولها يوم الجمعة مستهل محرم سنة عشرين من الهجرة لما وليها القائد عمرو . وكان آخر أمرائها صالح بن على بن عبد الله من قبل أمير المؤمنين أبى العباس بن محمد السفاح ومن بعده سكن أمراء مصر العسكر . وكان أولهم أبو عون عبد الملك

---

(١) ابن حوقل كتاب المسالك — والممالك
(٢) ابن سعيد — الاغتباط على حلى مدينة الفسطاط

خاتمة الفسطاط

حدث للفسطاط أثناء حياتها انقلابان عظيمان هما قيام (العسكر) ثم (القطائع) فإن الدور النهائي للفسطاط جاء عقب ذلك في مناسبتين كانت الأولى في أيام الشدة العظمى أثناء خلافة المستنصر بالله الفاطمي . وكانت الثانية حريق مصر في وزارة شاور أثناء خلافة العاضد : أما المناسبة الأولى فكانت عندما تمرد الجند وساد الاضطراب وحلت بالبلاد المسغبة والمجاعة ولجأ المستنصر بالله إلى حاكم الشام بدر الجمالي . فكتب إليه سراً يستقدمه إلى مصر لتحسين الأحوال ، فلما قدم بدر اهتم بتحسين القاهرة وعمل على تخريب الفسطاط . فقد أباح للجند وللقادرين على البناء أن يعمروا ما شاءوا في القاهرة وغيرها فعمرت وسكنها الناس ولم يبقوا شيئاً في الفسطاط أو العسكر أو القطائع وتركوا موقعها موحشا مقفرا

أما المناسبة الثانية فهي حريق الفسطاط الهائل الذي أمر باضرامه شاور سنة (٥٦٥ هـ) لما غزا ملك بيت المقدس عموري (امليك) الديار المصرية عندما عجز عن الدفاع عنها وأراد أن يتجنب وقوعها في أيدي الصليبيين

أمر شاور بأخلاء الفسطاط وحرقها ويقول المقريزي : « بعث شاور إلى مصر بعشرين ألف قارورة نفط وعشرة آلاف مشعل نار فرقت فيها فارتفع لهب النار ودخان الحريق إلى السماء فصار منظرا مهولا . واستمرت النار تأتي على مساكن مصر من اليوم التاسع والعشرين من صفر لتمام أربعة وخمسين يوما . ومن ثم تحولت مصر إلى الأطلال المعروفة الآن بكيمان مصر » . فلما حدث الحريق رحل عموري من بركة الحبش(١) ونزل بظاهر القاهرة مما يلي باب البرقية وقاتل أهلها قتالا عنيفا »

ولما جاء صلاح الدين الأيوبي أراد أن يجمع بين القاهرة وما بقي من الفسطاط بسور واحد . فانتقلت الحركة التجارية إلى ساحل النيل حيث كانت ترسو السفن

---

(١) كانت هذه البركة واقعة جنوب مدينة مصر بين النيل والجبل وكانت تطلق على حوض من الأراضي الزراعية التي يغمرها ماء النيل وقت فيضانه سنويا . وكانت تشغل في الأراضي مساحة قدرها ١٥٠٠ فدان — تعليق محمد بك رمزي — النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٨١ و ٣٨٢

وتكثر المخازن والمصانع ، وقد قال ابن سعيد إذ ذاك « وقد نفخ روح الاعتناء والنمو فى مدينة الفسطاط الآن لمجاورتها للجزيرة الصالحية وكثير من الجند قد انتقل إليها للقرب من الخدمة »

ولقد ترك لنا ابن دقماق والمقريزى والقلقشندى عن مدينة الفسطاط فى القرن التاسع الهجرى معلومات دقيقة تتفق فى أن تدهور المدينة كان يزداد قرنا بعد قرن وفى العبارة الآتية لخص القلقشندى المحن التى نزلت بالفسطاط فقال :

« ولم يزل الفسطاط زاهى البنيان نامى السكان إلى أن كانت دولة الفاطميين بالديار المصرية وعمرت القاهرة فتقهقر حاله وتناقص . وأخذ سكانه فى الانتقال إلى القاهرة وما حولها فخلا من أكثر سكانه . وتتابع الخراب فى بنيانه إلى أن بلغ الفرنج أطراف الديار المصرية فى أيام العاضد آخر الخلفاء الفاطميين »

وقال القلقشندى فى مكان آخر :

« وبعد حريق شاور تزايد الخراب فيه وكثر الخلو ولم يزل الأمر على ذلك فى تقهقر أمره إلى أن كانت دولة الظاهر بيبرس فصرف الناس همتهم إلى هدم ماخلا من أخطاطه فعفا رسمها واضمحل مابقى منها وتغيرت معالمه »

وعلى هذه الحال تحولت الميناء النهرية والعاصمة الاسلامية الأولى إلى أكوام من التراب وتلال من الأنقاض حتى أتاح الله للفسطاط العالم الأثرى الجليل المرحوم على بك بهجت فكشف فيما بين عامى ١٩١٢ ، ١٩١٣ أجزاء كبيرة من تلك المدينة البائدة التى لم يتخلف من بقاياها إلا جامع عمرو وأبراج قصر الشمع . ولا تزال دار الآثار العربية تزاول أعمال الحفر فى تلك الأطلال تنقيبا عن آثار العصر الاسلامى



(١)

عسكر بنى العباس

وبينما كانت الفسطاط عاصمة مصر الاسلامية (١٣٣هـ — ٧٥٠ م) فر مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين إلى مصر لينجو بنفسه أمام منازعه أبى العباسى الهاشمى أول خلفاء العباسيين فلما وصل إلى مصر أشعل رجاله النار فى الفسطاط وفى القنطرة التى تصلها بجزيرة الروضة. واتجه إلى شاطىء النيل الغربى، لكن ذهبت تدابيره عبثا لأن القائد العباسى ورجال خوراسان وقفوا على وسائل عبوره وأدركوه بسرعة فى قرية بوصير وقتلوه (٢). ثم حملوا رأسه وطافوا المدن ليتأكد الناس إن الخلافة قد انتقلت من البيت الأموى إلى البيت العباسى

وكأن رجال العباسيين لم يرضوا أن يسكنوا بيوت الفسطاط أما لرغبة فى التجديد واتخاذ عاصمة جديدة كما جرت العادة فى الشرق منذ قديم الزمان. واما لأن مروان بن محمد كان قبل قتله قد أضرم ناراً فى الفسطاط دمرت جزءاً كبيراً منها فأنشأوا حاضرة أخرى جديدة لدولتهم الناشئة فى مصر فى مكان عرف فى صدر الاسلام باسم الحمراء القصوى وكان يمتد إلى جبل يشكر الذى بنى

---

(١) فى الأصل المعسكر كما جاء فى فتوح مصر لابن عبد الحكم. وكان يمتد العسكر على شاطىء النيل وهو وقتئذ أقرب إلى الشرق من موضعه الحالى لأنه كان يجرى بجانب المرتفع المشيد عليه جامع عمرو بن العاص ثم ابتعد عنه على توالى الزمن نحو خمسمائة متر. وكان العسكر يحده جنوبا كوم الجارح حيث تمتد الآن قناطر العيون (المجرى) وشمالا شارع مراسينا إلى ميدان السيده زينب حيث قناطر السباع أمام المشهد الزينبي وغربا بين شارعى السد والدبورة وشرقا خط تصورى يمتد من مسطبة فرعون بجوار مسجد الجاولى بشارع مراسينا إلى السيده نفيسه المعروف قديما بباب المقدم. وفى عهد المقريزى لم يبق للعسكر ذكر بل كان اسم القطائع هو المعروف — تعليق الاستاذ محمد بك رمزى.

(٢) Quatremere, Mem. sur l'Egypte. II.p. 452. Ravaisse, Essai I.p. 419. Lane - Poole. History of Egypt p. 31 - 36 - Cairo 32 - 33

ابن طولون على قمته مسجده الجامع (١) . وفى ذلك المكان أقام العباسيون دورهم واتخذوا مساكنهم وبنى صالح بن على دار الامارة وثكن الجند ثم شيد الفضل بن صالح مسجد العسكر . وبمرور الأيام اتصلت العسكر بالفسطاط وأصبحتا مدينة كبيرة خطت فيها الشوارع وشيدت عليها المساجد والدور والبساتين والأسواق . وفى القطائع بنى الأمير احمد بن طولون فيما بعد بيمارستانه بالقرب من بركة قارون التى ردمت وشيد عليها كافور الاخشيدى داراً صرف عليها مائة ألف دينار ليسكن فيها

وازدهر العسكر لكثرة ما شيد فيه من الأحياء العامرة . وقد سكنها الخمسة والستون والياً الذين حكموا مصر نائبين عن الخلفاء العباسيين مدة ١١٨ سنة . وصار حياً زاهراً لم يقلل من شأن الفسطاط كمركز هام للتجارة أو كعاصمة ثانية لمصر وبتوالى السنين عظمت العمارة فى العسكر الى أن قدم احمد بن طولون من العراق الى مصر فنزل بدار الامارة فى العسكر وكان لها باب الى جامع العسكر ينزلها الأمراء منذ بناها صالح بن على وما زال بها حتى شيد بن طولون قصره بالقطائع وترك العسكر، وليس هناك اليوم أثر صغير لهذه الضاحية ، كما أن المؤرخين لم يحتفظوا بتاريخ واف لحكامها فقد ساد عصرهم نوع من سوء الادارة وفساد الحكم ، ولقوا صعابا كثيرة عرقلت أعمالهم أشد مما عاناه ولاة بنى أمية فى مصر . وكان لزاما عليهم أن يخمدوا الفتن التى أثارها الخارجون عن الاسلام وأصحاب بعض المذاهب . أو يقاوموا الثورات التى شبت بين القبائل العربية أو الأقباط . وقد ظل أمراء مصر يقيمون فى دار الامارة فى المعسكر حتى بنى جوهر قائد جيوش المعز مدينة القاهرة وتخربت العسكر فى عهد الخليفة المستنصر الفاطمى على أثر (الشدة العظمى) كما ذكرنا لما تكلمنا عن خراب الفسطاط

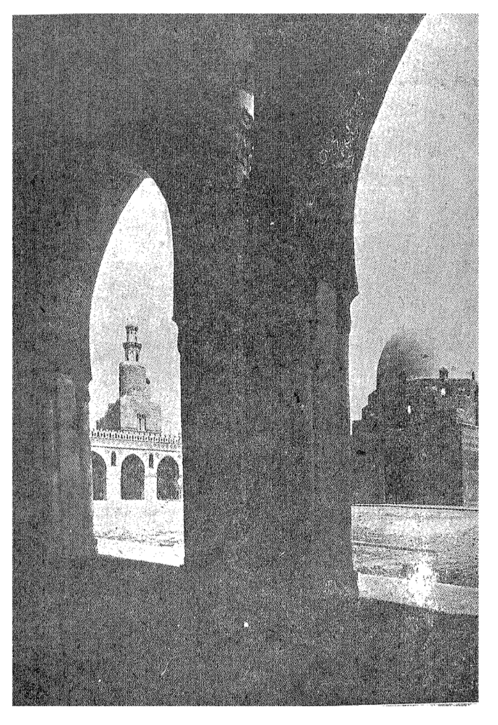
ولسنا فى حاجة إلى أن نصف تلك الفترة من حكم العرب فى الفسطاط أو العسكر فأن ولاة العسكر لم يتركوا أثراً لهم نستدل منه على أعمال الاصلاح التى قاموا بها — وليس أمامنا اليوم نموذج واحد من مبانيهم يرشدنا إلى طرازهم العمارى. لكننا نقول أن العسكر عمرت كقاعدة رسمية لمصر الاسلامية أكثر من قرن (١٣٣ — ٢٥٦ ﻫ) وتناول المقريزى وصف ما آلت إليه العسكر وذكر

---

(١) Dr. Zaki Moh. Hassan . Les Tulunides . P . 48

باسهاب ماكان فيها من الدور والبساتين والمساجد والأسواق والحمامات ... الخ

وبادوا فلا مخبر عنهم   وماتوا جميعا وهذا الخبر
ومن كان ذا عبرة فليكن   فطينا فنى من مضى معتبر
وكان لهم أثر صالح   فأين هم ثم أين الأثر ؟



جامع ابن طولون من الداخل

قطائع ابن طولون

فاذا انتقلنا إلى العصر الذى زاد فيه نفوذ الجند الأتراك فى خدمة البلاط العباسى رأينا مقاليد الأمور أصبحت فى أيديهم وأنهم استولوا على أكبر مناصب الدولة وصار منهم أكثر الولاة والعمال — وقدم إلى وادى النيل أول وال تركى الأصل سنة ٨٤٦ ميلادية ثم بدأ الخلفاء فى اقطاع مصر أولياء عهودهم أو كبار القواد من الترك وكان هؤلاء القواد لا يميلون إلى الابتعاد عن العاصمة العباسية خشية الدسائس فكانوا يرسلون إلى مصر عمالا من قبلهم . وكانت مصر من نصيب أحد كبار الأتراك واسمه (باكباك) ولاه عليها الخليفة المعتز ابن المتوكل ونظراً لما كان للشاب احمد ابن طولون من المكانة الطيبة انتخبه (باكباك) ليكون قائدا للحامية العسكرية فى الفسطاط ، وكان طموحا إلى المجد فلم يمض على ولايته فى مصر عامان حتى استقل بملكها

رأى ابن طولون أن العسكر أصبحت لا تتسع لحاشيته وتضيق بمطامعه فأخذ يبحث عن موقع آخر قريب من الفسطاط . فصعد إلى المقطم ونظر إلى ماحوله فرأى بين العسكر والمقطم بقعة فضاء إلا من بعض مدافن المسيحيين واليهود مساحتها نحو ميل مربع فأمر بهدمها ليقيم عليها عاصمته واختط فى موضعها مدينته الجديدة (القطائع) ووضعت الخطط الأولى للقاعدة الجديدة فى شعبان عام سنة ٢٥٦ هـ (اغسطس ٨٧٠ م)

ويمكن القول بأن حدود العاصمة الجديدة امتدت بين حد الفسطاط الشمالى احيث جبل يشكر وبين سفح المقطم فى مكان عرف وقتئذ بقبة الهواء . وفيما بين لرميلة تحت القلعة الى مشهد الرأس الذى عرف فيما بعد بمشهد زين العابدين أختط الأمير ابن طولون قصره وأمر أصحابه ورجاله وأتباعه بأن يشيدوا بيوتهم فاتصل البناء بعمارة الفسطاط . وأقطعت كل جماعة من الأتباع والجنود منطقة خاصة سميت كل قطعة بمن سكنها . ثم عمرت القطائع عمارة حسنة

وتفرقت فيها السكك والأزقة . وبنيت فيها المساجد والطواحين والحمامات والأفران .. الخ ..

ولما كثر أتباع ابن طولون حتى ضاق بهم جامع العسكر التمسوا منه أن يشيد لهم جامعاً آخر أوسع من الجامع الاول فأجابهم إلى التماسهم ، واحتفل بوضع أساسه على جبل يشكر عام (٢٦٣ هـ — ٨٧٦ م) وأنتهى تشييده بعد عامين . وقد غالى فى زخرفته الداخلية وعلق فى سقفه القناديل بسلاسل نحاسية طويلة ونقش على افريزه آيات من القرآن لا يزال بعضها ظاهراً إلى اليوم . وهذا الجامع هو الأثر الوحيد الذى خلد اسم ابن طولون على مر العصور حتى اليوم — وهو فى طليعة أجمل الآثار فى مصر ويعتبر علما ظاهراً فى تاريخ العمارة الاسلامية . وتولى الحكم « خمارويه » بعد وفاة أبيه فنقل قاعدة حكمه الى القطائع وأقبل على عمارة قصر أبيه وزاد فيها كثيرا وأخذ الميدان المجاور للميدان وحوله الى بستان فتان وزرع فيه أنواع الرياحين وأصناف الشجر وكسا جذوع النخل بالنحاس المذهب والمفضض ، وأنشأ فى وسط قصره بركة ملأها بالزئبق وجعل فى أركان البركة سلكا من فضة وجعل فى السلك زنانير من حرير محكمة الصنعة فى حلق من فضة وعمل فرشا من آدم يمشى بالريح حتى ينتفخ فيحكم حينئذ شده ويلقى على تلك البركة الزئبق ويشد بالزنانير التى فى حلق الفضة المقدم ذكرها . وينزل خمارويه فينام على هذا الفرش . فلا يزال يرتج ويتحرك بحركة الزئبق ما دام عليه بينما يحرسه أسده الأزرق العينين ، وبوفاة خمارويه هوى نجم الأسرة الطولونية وأخذت فى الانحلال وأقبل محمد بن سليمان القائد العباسى للاستيلاء على البلاد فبلغ الحدود المصرية وهزم الأسطول المصرى ثم انقض على القطائع (٢٩٢ هـ — ٩٠٤ م) وألقى النار فيها فالتهمت الدور والمساجد والحمامات ونهب أصحابه الفسطاط ودمرت الضاحية الجميلة . ثم عادت الفسطاط مرة ثانية مقرا للحكومة ولما أصيبت مصر بالمجاعة فى أيام المستنصر قضت على البقية الباقية من مخلفاتها الخربة وأصبحت القطائع أثراً بعد عين ولم يبق فيها غير الجامع .

كانت القطائع أول مدينة ملوكية بمعنى الكلمة انشئت فى وادى النيل فى العهد الاسلامى : روعى فى انشائها وتخطيطها وتطورها القواعد الفنية التى اتبعت عند تأسيس مدينة سامرا . ولما كان الخليفة المعتصم قد أمر قائده أشناس ببناء

سامرا عام ٨٣٦ م بعد أن صعب عليه التوفيق بين سكان بغداد ورجال حرس الخليفة الأتراك فان ابن طولون بعد قدومه من بلاد الجزيرة رأى أن يتلافى الخطر بنفسه فتدارك الأمر وأنشأ تلك الضاحية ليبتعد عن الفسطاط وجعلها عاصمة ملكه الساطع واتخذها بعده خلفاؤه من أسرته. كانت أوجه الشبه متقاربة جدا بين مدينة ابن طولون وبين سامرا، فقد كانت كل منهما مقسمة الى خطط أو قطائع تضم كل قطيعة منها السكان الذين تجمعهم رابطة الجنسية أو رابطة العمل وأصبح اسم القطائع علما على مدينة ابن طولون. وقد كان هذا الاسم يطلق فى سامرا على كل أحياء المدينة إلا القصور الملكية (١) وأمامه ميدان للعب الكرة وحدائق غناء وطرق متقاطعة

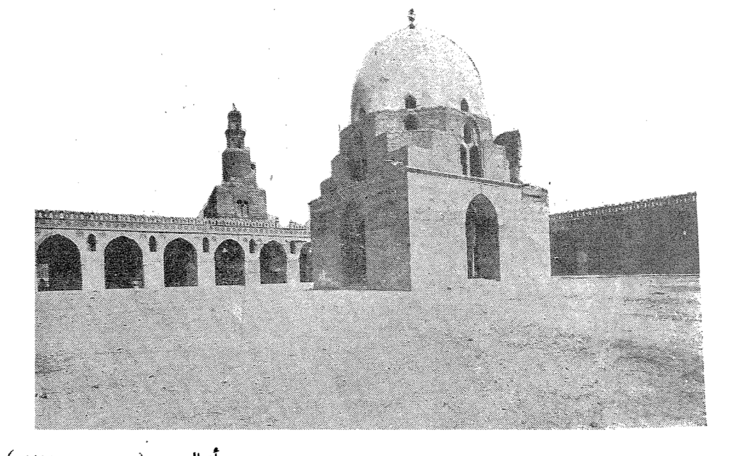
وكان طراز العمارة والزخرفة الذى اتبع فى إنشاء الدور الخاصة والعامة فى سامرا قد انتقل مع ابن طولون الى مصر قبل أن يمضى على انشاء سامرا نفسها اكثر من أربع وثلاثين سنة. ومما يؤيد ذلك تأييدا مادياً الزخارف الجصية التى عثر عليها على جدران دار طولونية كشفتها دار الآثار العربية عام ١٩٣٢م (٢)

والأثر الوحيد الذى خلفته القطائع وهو — الجامع الطولونى — يثبت لنا بجلاء أثر فنون سامرا على تلك الضاحية المصرية التى لم تعمر وتزهر طويلا



(١) الدكتور زكى محمد حسن : الفن الاسلامى فى مصر ج ١ ص ٥٧ و ٥٨

(٢) راجع الفصل الخاص بالفن الطولونى من كتاب الدكتور زكى محمد حسن Les Tulunides, Paris, 1933



جامع احمد بن طولون بالقطائع (٢٦٣ — ٢٦٥ هـ ، ٨٧٩ — ٨٧١م) وميضأة الصحن (٦٩٦هـ — ١٢٦٦م)

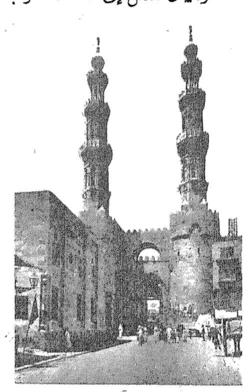
قاهرة المعز

أحمد

لله قاهرة المعز فإنها بلد تخصص بالمسرة والهنا

أو ما ترى في كل قطر منية من جانبيها فهي مجتمع المنى

والآن ننتقل إلى العاصمة الرابعة لمصر الاسلامية فنرى أن الخليفة الفاطمى المعز لدين الله بعد أن نجح فى تأسيس دولته الافريقية ومد حدودها الى ساحل المحيط الاطلانطى عزم على فتح مصر وكان جده وأبوه قدحاولا الاستيلاء عليها فلم يفلحا ، فلما تولى الحكم أراد أن يحقق أمنيتهما ، كانت مصر فى ذلك الوقت عرضة للغزاة الفاتحين . فقد عمت فيها الاضطرابات الداخلية والمجاعة التى سببها انخفاض النيل والطاعون . وكان المعز يعلم حالة البلاد بعد أن اتصل به (يعقوب بن كلس) اليهودى الذى هاجر من مصر . وكان مقربا من كافور



الاخشيدى . طلب المعز الى جوهر القائد أن يضع الخطط العسكرية ويجهز حملته فحشد مائة الف رجل مجهزين بالمعدات الكافية وأرسل معهم المؤونة وآلات القتال وكل ما يحتاجه هذا الجيش الجرار (١) . وبدأت الحملة تحركها من القيروان فى ١٤ ربيع الأول سنة ٣٥٨ هـ (٥ فبراير سنة ٩٦٩ م)

(١) راجع للاستيفاء . Capt . K . Creswell . The Foundation of Cairo . Bulletin of The Faculty of Arts. Vol 1. Part II. 1933 وترجمة السيد محمد رجب بمجلة المقتطف.

فوصل جوهر إلى الاسكندرية وأستولى عليها بسهولة ثم واصل زحفه الى الجيزة فوقعت فى يده فى ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ ه (٦ يوليو سنة ٩٦٩ م) وعبر النيل بالقرب من منية الشلقان وسحق الجيوش التى أعدت للدفاع على الشاطىء الشرقى للنيل وعقب ذلك دخلت القوات الفاطمية بقيادة جوهر مدينة الفسطاط عند مغيب الشمس وعسكرت فى السهل الرملى الواقع الى الشمال وكان يحد هذا السهل من الشرق جبل المقطم ومن الغرب الخليج (١) الذى يصل بين شمالى الفسطاط ومدينة هليوبوليس القديمة وينتهى عند القلزم على البحر الأحمر ، وكان السهل المذكور خاليا من البناء إلا بضعة مبان ملحقة ببساتين كافور ودير فسيح اسمه دير العظام . وكان يشغل مكان مسجد الأقمر وحصنا صغيرا يسمى قصر الشوك (٢)

تأسيس القاهرة

وفى مساء ذلك اليوم(٣) اختط جوهر موقع القصر الذى قرر أن يستقبل فيه المعز تنفيذاً لأوامر سيده وحينما أتى أعيان الفسطاط فى الصباح التالى لتهنئته وجدوا أن أسس البناء الجديد كانت قد حفرت . وبنى جوهر سورا خارجياً من اللبن على شكل مربع طول كل ضلع من أضلاعه ١٢٠٠ ياردة وكانت مساحة الأرض التى حددها هذا المربع ٣٤٠ فدانا منها نحو ٧٠ فدانا بنى عليها جوهر القصر الكبير وخمسة وثلاثين فدانا للبستان الكافورى ومثلها للميادين

(١) يسير ترام الخليج الآن من مسجد السيدة زينب إلى الظاهر فى نفس المكان الذى كان يخترقه الخليج وقد ردم الخليج المذكور فى أواخر القرن التاسع عشر — ويسمى هذا الشارع الآن شارع الخليج المصرى

(٢) راجع للاستيفاء Ravaisse , Essai Sur l ' histoire et Topographie Du Caire M . M . A . F . C . PP . 415 - 419 .

(٣) نقل بعض المؤرخين كما ذكر المقريزى أن انشاء القاهرة كان فى ٦ جمادى الأولى سنة ٣٥٩ فى نفس اليوم الذى اختط فيه جوهر الجامع الأزهر . ولكن معظم المؤرخين وفى مقدمتهم عمدتنا المقريزى نفسه يذكر التاريخ الذى شق فيه الفسطاط (١٧ شعبان ٣٥٨ ه) ووضع فيه أساس القصر الكبير ويرى القارىء أن مااتفق عليه المؤرخون فى هذا الشأن بعيد الاحتمال فليس من المعقول أن يبدأ جوهر بناء القصر ليلة وصوله وليس من المعقول أن يجد اللبن الذى بنى السور معداً لاستخدامه

والباقى وقدره مائتا فدان هو الذى وزع على الفرق العسكرية فى نحو عشرين خطة بجانبى قصبة القاهرة (١) و نظراً لأن جوهر كان قد أسرع فى حفر أساس القصر بالليل فحدثت فيه انحناءات غير معتدلة. فلما شاهدها فى الصباح لم يعجبه. لكنه قال : « قد حضر فى ليلة مباركة وساعة سعيدة » وتركه على حاله. وفى اليوم الذى خط فيه جوهر القاهرة اخذت كل قبيلة من القبائل الشيعية التى تألف منها جيشه خطته فاتخذت زويلة الخطة المعروفة الى اليوم . واختطت جماعة من برقة الحارة البرقية واختطت الروم حارتين البرانية والجوانية بقرب باب النصر (٢) وكان غرض جوهر من إنشاء القاهرة أن تكون معقلا حصينا لرد القرامطة عن مدينة مصر الفسطاط ليقاتلهم من دونها فأدار السور اللبن على معسكرات قواته وأنشأ من داخل السور جامعاً وقصراً واحتفر خندقا من الجهة الشمالية ليمنع اقتحام جيش القرامطة إلى القاهرة ومصر من ورائها (٣) أما القصر الذى بناه جوهر فقد أوضح ابن دقماق الغرض الذى رما إليه جوهر فقال انه بناه لمولاه حتى يكون هو وأعوانه وجيوشه بمعزل عن عامة الشعب. و يمكن تتبع حدود سور القاهرة المعزية فى أكثر أجزائه بكثير من الدقة بفضل المعلومات التى أمدنا بها المقريزى ما عدا ذلك الجزء الواقع بين باب النصر وباب البرقية فليس لدينا أية بيانات عنه (٤) وقد كانت القاهرة تحد من الشمال بموقع باب النصر والخلاء الممتد أمامه. ومن الجنوب بموقع باب زويلة القريب من موقعه الحالى المواجه للفسطاط. ومن الجهة الشرقية بموقع باب البرقية والباب المحروق المواجهين للمقطم ومن الجهة الغربية بموقع باب سعادة المطل أو المحاذى لخليج أمير المؤمنين بعيداً عنه بنحو ٣٠ مترا

ولما فرغ جوهر من بناء قصر الخليفة وأقام حوله السور سمى المدينة فى أول الأمر المنصورية تيمناً باسم مدينة المنصورية التى أنشأها خارج القيروان

---

(١) الخطط التوفيقية لعلى باشا مبارك . ج ٢ . ص ٨١
(٢) « المقريزية — طبعة النيل . ج ٢ ص ١٧٩
(٣) « « « . ج ٢ ص ١٧٩
(٤) راجع Capt K.A.C. Creswell, The Foundation of Cairo. P. 26

المنصور بالله والد المعز واستمر هذا الاسم حتى قدم المعز إلى مصر فأطلق عليها القاهرة (١) وذلك بعد مرور أربع سنوات على تأسيسها (٢) ومن الواضح كما أشارت « رايتماير » Reitemeyer (٣) أننا يمكننا أن نجزم بان القائد جوهر كانت لديه تعليمات من الخليفة يان ينشىء مدينة تكون للفسطاط بمثابة المنصورية للقيروان أو بمثابة فرساى لباريس أو وندسور للندن ويلاحظ بهذه المناسبة ما ذكره البكرى من أن بابين من أبواب المنصورية كان يطلق على أحدهما باب زويلة والثانى باب الفتوح وقد أطلق هذان الاسمان على بابين من أبواب سور مدينة القاهرة المصرية كما سيجىء شرحه

وصول المعز

وفى يوم الثلاثاء السابع من شهر رمضان سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٣ م) لما دخل المعز القاهرة على رأس أفراد أسرته تجاهل الفسطاط فلم يشقها وكانت قد زينت ابتهاجا لمقدمه ثم قصد القصر الكبير ، وأمر ببناء مقبرة لدفن أجداده الذين استحضر جثثهم معه فى توابيت وفى آخر شهر رمضان أقام الصلاة بنفسه وخطب خطبة العيد

وذكر ابن عبد الظاهر أن المعز بعد دخوله القاهرة عتب على جوهر لأنه لم يؤسس المدينة الجديدة فى مكان المقس بالقرب من باب البحر أو جنوبى الفسطاط لتكون قريبة من شاطىء النيل وقد أورد المقريزى (٤) هذا

---

(١) كتاب اتعاظ الحنفاء بأخبار بلاط الخلفاء للمقريزى — بيت المقدس — ١٩٠٨

(٢) وقيل فى سبب تسميتها أن القائد جوهر لما أراد بناء القاهرة أحضر المنجمين وعرفهم أنه يريد عمارة بلد خارج مصر ليقيم فيها الجند وأمرهم لاختبار طالع سعيد لوضع الأساس وطالع لحفر السور وجعلوا بدائر السور قوائم خشب بين كل قائمتين جعل فيها أجراساً وقالوا للعمال إذا تحركت الأجراس فارموا بأيديكم من الطين والحجارة فوقفوا ينتظرون الوقت الصالح لذلك فاتفق أن غرابا وقع على حبل من الحبال التى فيها الأجراس فتحركت كلها فظن العمال أن المنجمين قد حركوها فألقوا ما بأيديهم من الطين والحجارة وبنوا ، فصاح المنجمون « القاهر فى الطالع » فمضى ذلك وفاتهم ما قصدوه وقيل أن المريخ كان فى الطالع عند ابتداء وضع الأساس وهو قاهر الفلك فسموها القاهرة — الخطط المقريزية — ج ٢ — ص ٢٠٤

(٣) Reitemeyer, Beschreibung Agypten in Mittelalter 158-193

(٤) اتعاظ الحنفاء بأخبار بلاط الخلفاء للمقريزى ص ٧٤

العتاب بقوله : «ياجوهر فاتك عمارتها هنا» يريد المقس (١)

فكأن القاهرة المدينة المحصنة لم يقصد جوهر من انشائها فى بادىء الأمر أن تكون قاعدة أو دار خلافة أو منزل ملك بل وضعها لتكون سكناً للخليفة وحرمه وجنده وخواصه ومعقل قتال يتحصن به ويلتجيء إليه (٢) . فنشأت القاهرة مدينة متواضعة للدولة للفاطمية الناشئة واستمرت حيناً بعد قيامها مدينة ملكية عسكرية تشتمل على قصور الخلفاء ومساكن الأمراء ودواوين الحكومة وخزائن المال والسلاح . ثم أصبحت بعد إنشائها بأربعة أعوام عاصمة الخلافة الفاطمية لما انتقل المعز وأسرته من المغرب واتخذ مصر موطناً له (٣٦٢هـ) (٣)

ولم يكن لقاطنى مصر أن يدخلوا « المدينة الملكية » إلا باذن يسمح لصاحبه بدخول احدى بوابات القاهرة .وكان مفوضو الدول الأجنبية الذين يحضرون الحفلات الرسمية يترجلون عن جيادهم ويستقدمون إلى القصر بين صفين من الجنود على الطريقة البيزنطية — وكانت أسوار القاهرة العالية وأبوابها المحروسة تحجب الخليفة عن أنظار شعبه

ولكن بمرور بضعة أعوام اتسعت المدينة الناشئة ونمت نمواً محسوساً

---

(١) كانت المقس (المقسم) ضيعة تعرف بأم دنين واقعة على ساحل النيل وقد جعلها المعز مرفأ صناعياً وأنشأ بها الخليفة الحاكم جامع المقس وكانت تسمى المكس لاقامة صاحب المكس والعشار فيها ثم قلبت فقيل المقس — وفى عهد دولة المماليك أصبح خط المقس يطلق على المنطقة الكبيرة التى تحد اليوم من الغرب بميدان باب الحديد وشارع الملكة نازلى وشارع عماد الدين ومن الجنوب بشارع قنطرة الدكة ومن الشرق بشارع الخليج المصرى ومن الشمال بشارع الطواشى والشمبكى . تعليق محمد بك رمزى — النجوم الزاهرة — ٤ — ص ٥٣ ج ٥٤

(٢) الخطط المقريزية طبعة النيل — ج ٢ — ص ١٨٤

(٣) إن تصميم القاهرة الأصلى يشعر بتأثر القائد جوهر والمعز بما رأياه فى أفريقيا الشمالية من التخطيط الرومانى فأنه يمكن التشبيه بين مدينة تمجد الرومانية ومدينة القاهرة من حيث وجود شارعين أساسيين للكارد وماكسيموس والديكومانوس ماكسيموس اللذان يقسمان المدينة أحدهما من الشمال الى الجنوب منتهيا الى طرق المواصلات للوجهين القبلى والبحرى مارا بالميادين الوسطى التى بها سراى الحاكم وخدمه وجنده وحدائقه بدلا من المعبد والليسيوم والأوديون الرومانى . وأما الطريق الثانى فيقسم المدينة من الشرق إلى الغرب أى من باب البرقية الى باب الوزير وكان ذلك الطريق ينتهى الى الجامع الأزهر . وليست القاهرة بالمدينة الوحيدة ذات الأسوار العتيدة المتعددة (كما سنرى) بل يمكن القول بان مدينة باريس وعمرها عشرون قرناً قد أعيدت تشييد حصونها ست مرات متوالية الى ان استراحت نهائياً منها

وبدأت القاهرة حياتها فى ظل الخلفاء الفاطميين. وتبوأت مكانتها العظيمة برونقها وبهائها ثم اتصلت بمصر الفسطاط وصارتا كما سنرى تؤلفان معاً ، كبر المدن الاسلامية فى العصور الوسطى

ظاهر القاهرة الفاطمية

لقد تكلمنا باسهاب عن أقسام القاهرة الداخلية ومنشئاتها الهامة واخطاطها وأسوارها وأبوابها وسنصف ما لحق بالعاصمة المصرية الأصـــلية مصر بعد القاهرة : فقد كانت القاهرة الفاطمية من الجهة القبلية (باب زويلة) متصلة بمصر التى امتدت بين الخليج الكبير وجبل المقطم . وهـذا الامتداد كان قسمين : ما حاذى يمينك اذا خرجت من باب زويلة تريد مصر . وما حاذى شمالك اذا خرجت منه نحو الجبل . أما مواضع الأول فاشتمل على تحت الربع والقشاشين وقنطرة باب الخرق وخط قناطر السباع ويدخل فى ذلك سويقة عصفور وحارة الحزيين وحارة بنى سوس الى الشارع وبركة الفيل والهلاليـة والمحمودية الى الصليبة ومشهد السيدة نفيسة . وكانت تلك الأكن تعرف بجنـان الزهرى وبستان سيف الاسلام وغير ذلك . وأماما حاذى شمالك فـكان جامع الصالح طلائع والدرب الاحمر الى القطائع . وكانت فيما بعد الرميلة والميـدان تحت القلعة . وأما جهة القاهرة الغربية التى فيها الخليج الكبير فهى من باب القنطرة الى المقس وما جاور ذلك فانها كانت بساتين فى غربها النيل . وكان ساحل النيل بالمقس حيث الجامع الآن . فيمر فى المقس الى المكان الذى يقال له الجراف ومواضع هذه البساتين أصبحت فيما بعد أراضى اللوق والزهرى وغيرها وكان فيما بين باب سعادة وباب الخوخة وباب الفرج وبين الخليج فضاء لا بنيان فيه . والمناظر تشرف على مافى غربى الخليج من البساتين التى خلفها النيل . وأما من جهة القاهرة البحرية فكانت قسمين خارج بابى الفتوح والنصر . أما خارج الأول فكانت توجد منظرة من مناظر الخلفاء وأمامها بستانان كبيران . ومن غربى هذه المنظرة فى جانب الخليج الغربى منظرة أخرى ، أما خارج باب النصر فكان فيه مصلى العيد ثم فضاء من المصلى الى الريدانية

أما جهة القاهرة الشرقيـــة وهى بين السور والجبل فانه كان فضاء ثم أمر الحاكم بأمر الله أن تلق أتربة القاهرة من وراء السور لتمنع السيل من دخول القاهرة . فصارت منها الأكوام التى عرفت بكيمان البرقية

ولكى نتصور ما كانت عليه القاهرة الحديثة فى ذلك الحين يجب أن نبحث فيما كتبه الرحالون عن وصف القاهرة . وربما يكون أحسن وصف لقصور القاهرة المعزية ماجاء فى تلك الوثيقة التى تثبت عظمة العصر الفاطمى وأبهته حين زاره رسولا الملك عمورى (أملريك) سنة ٥٦٢ ﻫ (١١٦٧م) ليعقدا معه باسم سيدهما تحالفا قوامه أن يدفع الخليفة للصليبيين مائتى الف دينار معجلة ومثلها مؤجلة نظير دفاعهم عن مصر وصدهم الأعداء عنها

وقد وصف غليوم رئيس أساقفة صور مؤرخ الحرب الصليبية زيارة الرسولين الصليبيين وعبر عن حماسهما وأعجابهما بعظمة مارأوه وروعته وقد نقل جستاف شلمبرجيه الى الفرنسية بعض ما كتبه غليوم فى هذا الصدد ، كما لخص لين بول بعضه فى كتابه عن تاريخ مصر وكتابه عن صلاح الدين(١)

سار السفراء الفرنج يقودهم الوزير شاور بنفسه الى قصر له رونق وبهجة عظيمان — وفيه زخارف أنيقة نضرة . وكان هؤلاء المبعوثون متأثرين بما حولهم جد التأثر ، دون أن يتطرق الى نفوسهم أى خوف أو رهبة . ووجدوا فى القصر حراسا عديدين . وسار الحراس فى طليعة الموكب وسيوفهم مسلولة . وقادوا الفرنج فى ممرات طويلة وضيقة وأقبية حالكة الظلمة لايستطيع الانسان أن يتبين فيها شيئا . وربما كان المقصود بذلك بعث الرهبة الى قلوبهم وزيادة التأثير فيهم . فلما خرجوا الى النور اعترضتهم أبواب كثيرة متعاقبة . كان يسهر على كل منها عدد من الحراس المسلمين الذين كانوا ينهضون عند اقتراب شاور ويحيونه باحترام . ثم وصل الموكب الى فناء مكشوف تحيط به أروقة ذات أعمدة . وأرضيته مرصوفة بأنواع من الرخام متعددة الألوان . وفيها تذهيب خارق العادة بنضارته وبهائه كما كانت ألواح السقف تزينها الزخارف الذهبية الجميلة

وكان كل ذلك موقفا رائعا وبهيا رائقا بحيث لايملك أشغل الناس بالا وأكثرهم هما إلا أن يقف للاعجاب به . وكان فى وسط الفناء نافورة يجرى الماء الصافى منها فى أنابيب من الذهب والفضة إلى أحواض وقنوات مرصوفة

---

(١) راجع كنوز الفاطميين للدكتور زكى محمد حسن ص ٧١ — ٧٥ . وقد أشار المؤلف الى مراجع هامة فى هذا الموضوع

بالرخام . وكانت ترفرف فى الفناء أنواع لاحد لها من الطيور الجميلة ذات الألوان المفرطة فى الندرة مجلوبة من شتى أنحاء الشرق . ولم يكن أحد يرى هذه الطيور دون أن تصيبه الحيرة والدهشة إعجابا بها . ودون أن يقول إن الطبيعة كانت تمرح وتلعب حين كونت هذه المخلوقات الجميلة . ومن هذه الطيور ما كان يلزم النافورة . ومنها ما كان يظل بعيداً عنها — كل بحسب طبيعته . وكان لكل منها من الغذاء ما يوافقه

هنا استأذن الحراس الذين كانوا يسيرون فى معية الفرسان الفرنج حتى ذلك الوقت فى الرجوع وحل محلهم بعض العظماء من الأمراء المقربين الى الخليفة نفسه

وسار هؤلاء الأمراء بالسفيرين الفرنجيين فى أفنية جديدة أشد جمالا وإبداعا ثم الى حديقة لطيفة غناء لم تكن الحديقة الأولى شيئاً بجانبها . ورأوا فى هذه الحديقة أنواعا من الحيوانات ذوات الأربع غريبة بحيث يتهم المرء بالكذب إذا وصفها أو تحدث عنها — وبحيث لا يستطيع أى مصور أن يتخيل أو ان لم يحلم بمثل هذه الكائنات العجيبة . فان الغرب لم ير قط مثل هذه الحيوانات ولم يكن يعرفها إلا بما كان يسمع من الأقوال

وبعد أن عبروا أبوابا عديدة أخرى — وساروا فى تعاريج كثيرة كانوا يرون فيها أشياء جديدة تزيدهم دهشة وإعجابا . وصل الفرنج الى القصر الكبير حيث يقطن الخليفة . وفاق هذا القصر كل ما رأوه قبل ذلك ، وكانت أفنيته تفيض بالمحاربين المسلمين متقلدين أسلحتهم ، وعليهم الزرد والدروع تلمع بالذهب والفضة وعليهم سيماء الافتخار بما كانوا يحرسون من الكنوز . وأدخل المبعوثون فى قاعة واسعة تقسمها ستارة كبيرة من خيوط الذهب والحرير المختلف الألوان . وعليها رسوم الحيوان والطيور وبعض صور آدمية . وكانت تلمع بما عليها من الياقوت والزمرد والأحجار النفيسة . ولم يكن فى هذه القاعة أحد ، لكن شاور خر راكعا فور دخوله ثم نهض واقفا ثم قبل الأرض ثانية وخلع السيف الذى كان يلبسه فى عنقه ثم خر ساجداً مرة ثالثة فى ذلة وخشوع كأنه يسجد لله وارتفعت الحبال فجأة وانكشفت الستارة الحريرية الذهبية بسرعة البرق كأنها ملاءة خفيفة وظهر الخليفة الطفل (السلطان العاضد) لأعين

الفرنج المبعوثين . وكان على وجه هذا الأمير نقاب يخفيه تماما وهو جالس على عرش من الذهب مرصع بالجواهر والأحجار الثمينة

لقد كان الخلفاء الفاطميون من أعظم الملوك الذين حكموا مصر . وكان المعز نفسه حاكما قادرا أدار بنفسه البلاد بمقدرة نادرة وكان نزيها عادلا يشرف على القضاء ويقود الجيش الذى اعتمد عليه فى الدفاع عن البلاد — والمعز هو الذى بنى مرفأ جديدا للسفن فى المقس شمال مرفأى الروضة ومصر وبالقرب من ميدان محطة مصر ولقد ظلت المقس مرفأ القاهرة حتى تحول النيل عن مجراه وظهرت بولاق . وشاهد الرحالة « ناصرى خسرو » عدة سفن للمعز فى عام ١٠٤٧ م . وكان طول السفينة الواحدة ٢٧٥ قدما وعرضها ١١٠ أقدام

ومع أن المعز كان حازما محبا للعمل نراه ميالا الى المظاهر الرسمية فكان يذهب فى موكب فخم لحفلة قطع الخليج . وكان يغدق فى الانفاق على كسوة الكعبة فى مكة المكرمة . وكان يهتم لكى تكون القاهرة مدينة ذات فخامة وترف وغنى . وقد صرفت زوجه مبلغا كبيرا على مسجدها فى القرافة والذى وضع تصميمه « الحسن بن عبد العزيز الفارسى » وتولى زخرفته الفنانون الذين جاءوا من البصرة وقد شيد على طراز الجامع الأزهر تحيط به الاروقة المزخرفة البديعة . ولم يزل جامع القرافة قائما الى أن احترق فى السنة التى احترق فيها جامع عمرو بن العاص سنة أربع وستين وخمسمائة عند نزول « اماريك » ملك بيت المقدس القاهرة إثناء حصاره لها

وكانت الأموال اللازمة لقصر المعز وللثلاثين ألف من أتباعه ومادعت اليه مظاهر الترف تجبى كضرائب أو أقساط تجمع فى دار الامارة القديمة وكانت مجاورة لمسجد ابن طولون . وقد قال بعض المؤرخين أنه فى يوم واحد جمع من مدينة مصر فى أسعد مجدها مبلغا يتفاوت بين ٢٦٠٠٠ جنيه و ٦٢٠٠٠ جنيه وكان التعامل بالعملة الفاطمية وليس بالعملة العباسية

العزيز (٣٦٥ — ٣٨٦ هـ)

ولما توفى المعز بويع ابنه العزيز بالخلافة وعين يعقوب بن كلس وزيراً له وقد شاطر العزيز أباه صفاته السياسية فلم تضعف من همته مظاهر الترف وشيد

أسطولا لمحاربة امبراطور « باسيل » وانتصر القائد « جوهر » فى عدة معارك بالشام . وقد عرف عهده فى مصر بالسلم والرخاء . وكان مولعــا باقتناء الكتب فجمع منها مجموعة كبيرة خصص لها قاعات فى قصره سماها « خزانة الكتب » وبذل الأموال فى تشجيع كتابة المؤلفات المهمة فى التاريخ والأدب والفقه . وكانت بعض الكتب بخط المؤلفين أنفسهم كالخليل بن احمد والطبرى(١)

ومن آثار العزيز جامع الحاكم الذى أمر ببنائه فى شهر رمضان سنة ثمانين وثلثمائة هجرية . وقد أتم جانبا كبيرا منه فى مدة عام وخطب فيه العزيز وصلى الجمعة فى اليوم الرابع من شهر رمضان عام ٣٨١ هـ . ولما تولى العرش ابنه الحاكم أمر وزيره « يعقوب بن كلس » بأن يتم بناء الجامع ويكمل زخرفتـه ومأذنته . فبدأ عمله فى عام ٣٩٣ هـ . وقدر للنفقة عليه أربعين ألف دينـار وانتهى منه فى عام ٤٠٣ هـ . وعند إنجازه علق على سائر أبوابه أستارا دبيقية عملت له وعلق فيه أربعة تنانير فضية وكثيراً من القناديل الفضية كذلك وفرش أرضه بالسجاد ونصب فيه المنبر

جامع الحاكم

عرف أولا بجامع الخطبة ثم جامع الحاكم وقيل له الجامع الأنور (كالأزهر) ولقد مرت عليـه من حوادث الأيام مالا تقل عن حوادث جامع عمرو ، فلما احتل الصليبيون القاهرة فى سنة ١١٦٧ هـ حولوا جانبا منه الى كنيسة ، وبأعادة الحكم العباسى واستيلاء صلاح الدين على مصر أبطل استخدام الأزهر وهدم صلاح الدين كنيسة الحاكم وجعله المســجد الرسمى للدولة ثم استعمل مدة أسطبلا للخيل

وفى اليوم الثالث عشر من ذى الحجة عام اثنين وسبعمائة زلزلت أرض مصر والقاهرة فأصيب الجامع الحاكمى بسقوط عدد كثير من بدناته وخربت أعالى مأذنتيه وتصدعت سقوفه وجدرانه وفى العام التالى أمر ركن الدين بيبرس الجاشنكير بترميم ماتهدم منه وإعادة ماسقط من البدنات فأعيدت وأقام سقوفه وبيضه حتى عاد جديداً .

---

(١) الدكتور زكى محمد حسن ــ كنوز الفاطميين ــ ١٩٣٧

ولما كتب المؤرخ المقريزى خططه المشهورة فى ابتداء القرن التاسع الهجرى كان الجامع مخربا وسقفه مهشما وآثار النار والخراب بادية على جدرانه . ومنذ ذلك الحين لم يقف المسجدُ على قدميه . فكنت تارة تراه مصبغة أو مصنعا للحبال وطورا مقرا للعاطلين أو ممرا عاما أو ميدانا للعب . وفى مدخله مقهى أو محل لتخمير المشروبات أو حانوت خباز !

والفترة السعيدة التى مرت عليه لما أقيمت فى بعض أجزائه دار الآثار العربية خلال القرن التاسع عشر . وكانت لاتزال بعض النقوش والكتابات الكوفية ظاهرة على جدرانه تدل على سابق سموه وجمال فنه

وجامع الحاكم تحفة أثرية نادرة . ومأذنتاه جددتا أثر زلزال عام ٧٠٢ ه . وهما من ناحية بنائهما من طراز مآذن عصر المماليك : قاعدة مربعة تتحول الى شكل مثمن الأضلاع ومنه الى شكل اسطوانى يخترقها سلم لولبى من الداخل على جوانبه طاقات ذات شرفات يستخدمها المؤذن عندما يدعو الى الصلاة

ومن الخلفاء الفاطميين الذين عرفتهم القاهرة جيداً الحاكم بأمر الله (٣٨٦-٤١١ ه) فقد تولى الخلافة وعمره إحدى عشر سنة. وكان شخصية متناقضة عجيبة أفاضت كتب التاريخ بذكر الكثير عن أحواله وحوادثه ومما يدهشنا أننا بينما نقرأ عنه كل تلك المتناقضات نراه فى جامعه العظيم يراقب زخرفته ونقوشه أو فى دار العلم التى انشأها بجوار القصر الغربى فى سنة ٣٩٥ ه والتى حمل اليها الكتب من خزائن القصور ووقف عليها أماكن ينفق من ريعها . وكان الغرض من دار الحكمة تشجيع الناس على المطالعة والدرس وكانت ندوة يجتمع فيها علماء الدين والعلم والأدب والتاريخ للمناقشة والتبحر فى علوم الدنيا والدين

وبوفاته تولى ابنه الظاهر لاعزاز دين الله أبو الحسن على فأباح كل مامنعه أبوه الحاكم فشرب الخمر وسمح باحتسائها . وكان ضعيف الرأى منصرفا الى اللهو وكثرت فى أيامه الفتن العسكرية فلا تخمد فتنة حتى تعقبها أخرى وضاقت أبواب الرزق وعزت الأقوات وتفاقم الأمر من شدة الغلاء . فصاح الناس « الجوع يا أمير المؤمنين . لم يصنع بنا هذا أبوك ولا جدك . فالله الله فى أمرنا »

وبوفاة الظاهر تولى ابنه المستنصر (٤٢٧ — ٤٨٧ ه) وكانت سنه عند مبايعته لاتزيد على سبع سنوات . وكانت أحوال البلاد قد هدأت نوعا فترة من

مدة حكمه كما شهد الرحالة الفارسى « ناصرى خسرو » عند زيارته لمصر بين عامى (١٠٤٧ — ١٠٤٩ م) فقد قال أن الصيارفة وتجار الجواهر تركوا حوانيتهم بدون أن يجهدوا أنفسهم فى قفل أبوابهم فى أوجه اللصوص . وكان عدد الحوانيت فى القاهرة أكثر من عشرين ألفا كلها ملك الخليفة يدر الواحد منها عليه نحو عشرة دنانير شهريا . وكان يمتلك أيضاً عشرين الف منزل يتألف الواحد منها من ست طبقات وكان إيجار الواحد منها سبعون جنيها فى السنة . وكانت تلك المنازل مشيدة بالدبش الجيد ويفصل كل منزل عن الآخر حديقة غناء . ولم يكن للقاهرة أسوارها . فقد هدم السور القديم الأول وتهدمت أجزاؤه ولم يكن قد ابتدىء فى بناء السور الثانى (شيد بعد ذلك بأربعين سنة) . وكانت تلك البيوت الشاهقة التى وصفها الرحالة مبنية على نسق الاستحكامات . وكل قصر منها اشبه بقلعة مصغرة . وكانت المسافة بين القاهرة ومصر تقدر بميل واحد انتشرت فيها البساتين وتزينها مناظر الضواحى وتغمرها مياه النيل فى أثناء الفيضان

مشاهدات ناصرى خسرو

وقد شاهد « ناصرو خسرو » أحد الاحتفالات العظيمة فى القاهرة وهى حفلة قطع الخليج فى مصر وشهدها المستنصر بنفسه . فقد ركب الخليفة جوادا على رأس عشرة آلاف خيال مطهمة سروج جيادهم بالذهب والجواهر الثمينة ومغطاة بالحرير الثمين . وقد زركشت حافاتها باسم الخليفة . وسار خلف تلك الجياد عدد كبير من الجمال التى حملت الهوادج النفيسة وخلفها البغال التى نالت نصيبها من تلك الجواهر

وسار لواء من الجند يتبعه لواء آخر حتى وصلوا الى فم الخليج فاصطفت القوات بملابسها الملونة صفا خلف صف على طريقة الجند . فرقة تتلوها فرقة طبقاً للترتيب الموضوع لهذا الاحتفال . كانت فرقة قتامة الأولى وتعدادها عشرين ألف رجلا وهم أحفاد جنود المعز لدين الله ثم فرقة الباطلية أبناء المغرب وعددهم ١٥,٠٠٠ وهم الذين فتحوا مصر قبيل مجىء المعز ثم فرقة المصامدة وهم سود البشرة وتعدادهم عشرون ألفا ثم المشارقة وهم خليط من الترك والفرس المولودين بمصر وعددهم عشرة آلاف ثم فرقة عبيد الشراء وكان عددهم ثلاثين

ألفا ، فبدو الحجاز وعددهم ١٥٠٠٠ منهم خمسة آلاف فارس ومع هؤلاء خدم القصور من العبيد والاتباع وقد بلغوا وحدهم ثلاثين ألفاً ، ثم فرقة أبناء الأمراء والسلاطين الذين وفدوا على مصر من بقاع العالم كالمغرب واليمن والروم والنوبة والحبشه . وكذلك إلتف حول الخليفة عدد كبير من الشعراء والعلماء من المصريين وغيرهم

وكان الخليفة مهيب الطلعة حسن الهيئة حليق الذقن مرتديا عباءة طويلة من الحرير الأبيض الناصع وراكبا مطيته والتف حوله حرسه الخاص المؤلف من ثلاثمائة من المشاة الديلم والعجم فى لباسهم المزركش يحملون حرابهم وفؤوسهم بينما حمل أحد الموظفين مظلة لوقاية الخليفة وسار بجانبه الخصيان يحرقون البخور وخشب العطور . وفى أثناء سير موكب الخليفة الى فسطاطه الحريرى كان الناس يسـجدون له . ولما أعطى الخليفة إشارة الفتح بدءوا بأدواتهم يحفرون وفاضت مياه النيل ثم ركبت الجموع المحتشدة قواربهم النيلية وهم جذلون مبتهجون

وفى أثناء إقامة « ناصرى خسرو » اشتد الجفاء بين الأحزاب السياسية ولكن الوزير القادر اليازورى استطاع كبح جماحها مدة تسع سنوات وجاهد للقضاء على المجاعة التى نشبت أظفارها بخزنه كميات من الغلال بمخازن يوسف بالقرب من مصر القديمة

ولقد أبدل الخليفة أربعين وزيراً من وزرائه فى مدة تسع سنوات فضاعت هيبة الحكومة عند الشعب وكان الحكام الحقيقيون لها هم الجند الترك الذين اتفقوا مع البربر وطردوا الجنود السود من القاهرة . وثبت هؤلاء أقدامهم فى بعض نواحى الوجه القبلى فأزعجوا سكانها وحاول البربر أيضاً الاستيلاء على الدلتا فافسدوا مسالك الرى ليفتكوا بالفلاحين بينما انفرد الترك بالعاصمة فأتلفوا قصور الخليفة الغناء ونهبوا مجموعاتها الثمينة من المجوهرات النفيسة مقابل متأخرات رواتبهم وبعد ماانتهوا من نهب القصر دخلوا مدافن أجداد الخليفة وأخرجوا منها كل ماوجدوه فيها من التحف ثم عمدوا الى خزانة الكتب فأخرجوا منها آلاف من الكتب فى جملتها ٢٤٠٠ مصحفا . وقيل ان عدد

مؤلفاتها كان مائة ألف وأخذ الناس مغلفاتها لاصلاح نعالهم ولايقاد نيرانهم.
ومالم يحرقوه منها سفت عليه الرياح فصار تلالا عرفت بتلال الكتب

وتصادف أن قصر النيل فى فيضانه مدة خمس سنوات فهدد البلاد بالمجاعة وأمتد الجوع الى سنة ٤٦٤ هـ. وكان أشده سنة ٤٦٢ هـ . ثم توالت القلاقل التى اقتضت الاسراف فى الحبوب المخزونة وندرت الحنطة وبلغ ثمن الأردب الواحد مائة دينار والقطة ثلاثة دنانير والكلب خمسة دنانير (إذا وجد) ورافق هذا الغلاء وباء مكث سبع سنين. فلم يبق من يزرع وأخيرا لما لم يجد الناس حيوانا يقتلوه ليأكلوه اختطفوا بعضهم بعضا وباع القصابون لحم الانسان ثم جاء الطاعون فكان يحصد بمنجله أسرة بعد أسرة. وكان كثير من أعيان البلاد يحاولون أن يرتزقوا من الخدمة فى الحمامات العامة وأضطر الخليفة فى نهاية الأمر بعد أن تخلى عنه رجاله وحاشيته حتى زوجه وبناته وقد هجرته الى بغداد إلى أن اضطرته الظروف أن يعيش على رغيفين تصدقت عليه بهما ابنة عالم. غير أن السنوات السبع كانت على وشك الانتهاء. وقد قاست مصر فى اثنائها ما لم تره فى أشد عصورها ظلمة وكان المستنصر قد التجأ الى حاكم سوريا الأرمنى «بدر الجمالى» فكتب اليه للمجىء بجيشه الى مصر ليوليه عليها فقبل بدر المجىء اليها وكان عبداً رفعته كفاءته الممتازة إلى المناصب السامية فولى إمارة دمشق ثم عكا وكان حينما دعاه المستنصر رجل الساعة

بدر الجمالى

وصل بدر الجمالى الى القاهرة فى يوم الاربعاء ٢٩ جمادى الأول سنة ٤٦٧هـ وقابل الخليفة. وفى ليلة من الليالى دعا أمراء البلاد الى وليمة أولمها لهم فى منزله وبيت مع أصحابه أن القوم إذا أمسى عليهم الليل فانهم لابد يحتاجون الى الخلاء فمن قام منهم قتل. فلبى الأمراء دعوته وظلوا نهارهم عنده وباتوا مطمئنين. وما طلع النهار حتى صارت رءوسهم بين يديه وأستولى أصحابه على جميع دور الأمراء فقويت شوكته وعظم أمره وخلع عليه المستنصر الطيلسان وقلد وزارة السيف والقلم وزيد فى ألقابه لقب «أمير الجيوش كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين» ولما أعاد النظام الى نصابه فى القاهرة اتجه قاصداً مديريات القطر

ليقضى على فتنها . فأخضع البربر والسودانيين والعرب وعم العدل أنحاء البلاد وعادت الطمأنينة الى قلوب الفلاحين . فأزداد الدخل وشعر الأهلون بالرفاهية والرخاء مدة عشرين سنة كاملة . وعادت سطوة الخليفة السياسية والدينية الى الديار المصرية وعادت مكة الى مبايعة المستنصر بعد أن قضت خمس سنوات تخطب للخليفة القائم بأمر الله العباسى فى بغداد

وأستفادت القاهرة مدة حكم بدر الجمالى . فمنذ مضى قرن على بناء الخليفة العزيز القصر الغربى ومنظرة اللؤلؤة لم يضف إلا الشيء القليل على عمارته . وجاء المستنصر ففضل الاقامة فى القصر الذى شيده بالمطرية حيث أقام جوسقا

وكان أول شيء وجه اليه بدر همته ـ تحصين القاهرة ضد الغزوات الخارجية أو فتن الجنود الداخلية . وكان سور القاهرة قد تهدم وأختفى أمام نمو المدينة التى ازدادت وزحفت مبانيها خارج أبوابها الثلاثة التى بناها القائد جوهر . فهدم بدر هذه الأبواب وبناها من الحجارة (١١٧٧ — ١١٩١ م) وجعل المدينة تضم مساحة أكبر من الأولى . فمثلا أخذ حى الروم فى الجنوب الى داخل السور وكان فى خارجه . ثم أقام السور من اللبن وقد زاده صلاح الدين فيما بعد ـ وزاد عند باب القصر الرحبة التى تجاه جامع الحاكم الى باب النصر وكانت إلى عهد قريب توجد بعض آثار بدر الجمالى لكنها تهدمت ولم يبق منها أثر أما الأبواب الثلاثة فلم تتغير الى يومنا هذا ـ غير أن باب زويلة خفض قليلا من أبراجه لكى يتسع لبناء مأذنتى جامع المؤيد فى أثناء القرن الخامس عشر الميلادى وهذه الأبواب الثلاثة وهى (بيزنطية العمارة وليست اسلامية) تعتبر من أعظم آثار العصر الفاطمى . وقد بناها ثلاثة أخوة وفدوا من أدسا المدينة الأرمنية التى عرفها بدر أثناء فتوحاته وبنى كل أخ منهم بابا (١) .

وتمتعت مصر اكثر من ستين عاما تحت حكم بدر الجمالى الى أن توفى فى القاهرة وسنه ثمانون سنة بعد حكم دام عشرين سنة وخلفه ابن الأفضل وكان فاضلا حكيما تدرب على يد أبيه . وقد تمتع بجميع الألقاب والامتيازات التى كانت لأبيه أمير الجيوش وظل فى منصبه حتى أمر بقتله الخليفة الآمر فى عام ١١٢١ وتولى الأمر من بعده ابنه « أبو على » فى عام ١١٣١ . ولما قتل

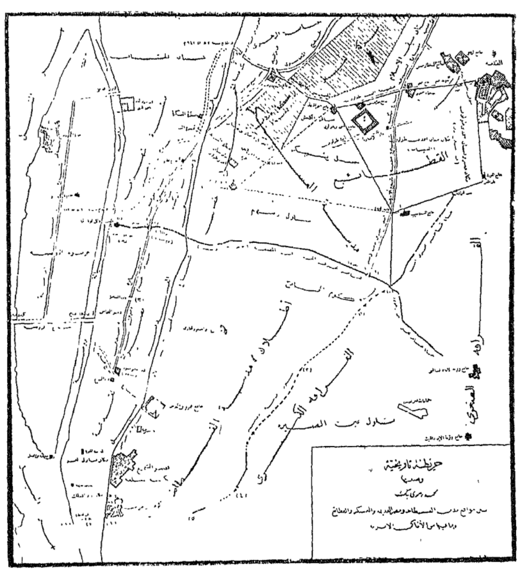
---

(١) راجع مقال « أبواب القاهرة » فى السياسة الأسبوعيه — السنة السادسة — العدد ١٧ مايو ١٩٣٧

بدوره وهو فى طريقه الى ميدان لعب الكرة خلفه أحد مماليك الأفضل واسمه «يانيس» ثم جاء من بعده «بهرام» المسيحى الذى ظل فى كرسى الوزارة حتى عام ١١٣٧م

الصالح طلائع

قتل الخليفة الآمر فى ذى القعدة (٥٢٤ هـ) وهو فى طريقه الى زيارة معشوقته البدوية فى جزيرة الروضة وكان عمره ٣٥ سنة . ومن خيراته التى تذكر له بنائه لمسجد الأقمر بين القصرين وكان أول مسجد بني من الحجارة المنحوتة . وكانت



خريطة تاريخية تبين مواقع مدن الفسطاط ومصر القديمة والعسكر والقطائع وما فيها من الأماكن الأثرية

عقوده الداخلية من اللبن أقيمت على أعمدة من الرخام . وقد نقش على أفريز المسجد بالكوفية اسم الآمر وتاريخ بنائه ٥١٩ هـ

وفى أيام الخليفة الفائز بنصر الله قدم ابن زريك والى الأشمونين بجموعه الى القاهرة واستولى على الوزارة ولقب بالصالح وقام بأمر الدولة الى أن مات الفائز فى عام ٥٥٥ هـ وأقام الصالح بن زريك فى الخلافة العاضد لدين الله ، وقد منحه لقب الملك الصالح . وكان شاعرا مثقفا وكريما سياسياً لازال مسجده قائما أمام باب زويلة . وقد مات ضحية نساء القصر اللاتى أرسلن اليه بعض رجالهن فكمنوا له فى دهاليز القصر وضربوه حتى سقط مغشيا عليه وحمل جريحا . وكان آخر ما فاه به ندمه على أنه لم يستخلص بيت المقدس من أيدى الفرنجة ونصيحته لابنه أن يحذر « شاور » الحاكم العربى للوجه القبلى . وقد كان الندم والحذر فى محلهما إذ خلع شاور بن الملك الصالح واسمه محي الدين زريك وكان قد استوزره العاضد واستخلف بعده شاور فى عام ١٢١٣ م ودخل فى السنة نفسها ملك بيت المقدس البلاد المصرية

وكان جامع الصالح طلائع آخر وأجمل جامع أنشىء فى عهد الدولة الفاطمية ووجهته الغربية الفاطمية لانظير لها فى جميع مساجد القاهرة من حيث تصميمها ويزيد فى جمالها تلك العقود المملوءة بزخارف على هيئة مروحة . وبالجامع بقايا زخارف جصية ممتلئة بالكتابات الكوفية وأخشاب منقوشة تدل على مبلغ ماوصل اليه فن الزخرفة من الرقى فى ذلك العهد

مخلفات الفاطميين وخزائنهم

وأخيراً دالت دولة الفاطميين باستيلاء الصليبيين على القاهرة وغزوة صلاح الدين بعد أن بلغت القاهرة فى نهاية حكمهم شأنا كبيراً من التقدم والرقى

وليس من السهل أن يتصور الانسان كيف آلت كل مخلفات الفاطميين الى الخراب فهى لم تكن شيئاً قليلا بل كانت فى مجموعها مدينة اذا قصرنا القول على القصر الكبير وقصر الذهب ودواوين الحكم والمناظر الثلاث وقصر الشوك وقصر الزمرد وغيرها من مشتملات القصر الشرقى الكبير

أضف اليه القصر الصغير وقاعاته ومناظره ودور العلم والضيافة والمناظر المبعثرة فى الضواحى وعلى الخليج الكبير وغير ذلك من المساجد والحصون

ومن الخير أن يلم القارىء بما كان من أمر القصرين والمناظر بعد زوال الدولة الفاطمية بموت آخر خلفائهم العاضد لدين الله (٥٦٧) هـ . فقد أبعد الوزير « قراقوش » جميع الفاطميين عن هذه القصور واستولى عليها السلطان صلاح الدين وتسلم كل ما كان فيها من الخزائن والدواوين والأموال والنفائس واستمر البيع فيما وجد فيها عشر سنين . وأخلى القصور من سكانها وأغلق أبوابها ثم ملكها أمراءه وأقطع خواصه كثيراً من دورهم وأتباعهم وباع بعضها ثم قسم القصور فاعطى القصر الكبير للأمراء فسكنوا فيه وأسكن أباه نجم الدين فى قصر اللؤلؤة على الخليج وأخليت أمكنة فى القصر الغربى سكن فيها الأمير موسكه والأمير أبو الهيجاء السمنى

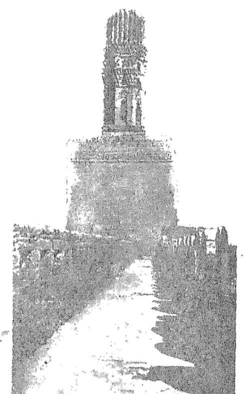
ولم ينقض وقت طويل على تلك القصور الفيحاء حتى سكنها العامة بعد أن سكنها الخلفاء والأمراء . لكن القاهرة التى وضع أساسها جوهر ظلت تتحول عاما بعد عام حتى أصبحت مدينة ملكية تكتنفها الشوارع والأسواق وتتوسطها الحدائق والدور والمساجد والمدارس والحمامات والوكالات — أفاض فى وصفها المقريزى وابن زولاق والمسبحى والقضاعى

وقد أمدونا جميعهم بتاريخ بنائها ووصف نفائسها مما لايتسع له هذا الكتاب



أسوار القاهرة الفاطمية (١)

كانت المدن فى أغلب أنحاء العالم فى الزمن الماضى تحصن بأسوار تقام حولها لصد هجمات المغيرين عليها، ولهذا فانه لما أنشأ القائد جوهر مدينة القاهرة حرص على أن يقيم حولها سوراً سميكا من اللبن وفتح فيه من الأبواب ما رآه ضرورياً فى ذلك الزمان



وبعد مضى ١٢٠ سنة من تأسيس القاهرة رأى أمير الجيوش بدر الجمالى وكان يومئذ وزيراً للخليفة المستنصر أبو تميم معد ان الناس بنوا خارج السور بسبب اتساع العمران ولا سيما فى الجهتين البحرية والقبلية من المدينة فأحاطها بسور وصله بسور جوهر القائد يمينا ويسارا وفتح فيه أبواباً أمام الأبواب القديمة لتكون عوضا عنها ولما زاد العمران بعد ذلك واتسعت حدود المدينة أخذ صلاح الدين من سنة ٥٦٦ هـ وهو يومئذ وزيرا للخليفة العاضد عبد الله بن يوسف آخر الخلفاء الفاطميين فى بناء سور جديد بالحجر بدلا من أسوارها القديمة التى كانت باللبن على أن يشمل السور الجديد جميع مازاد على القاهرة فى غربيها إلى النيل وفى جنوبها إلى مصر القديمة واستبقى أبواب بدر الجمالى لأنها مبنية بالحجر أمتن بناء وأروعه (٢)

---

(١) رجعنا عند كتابة هذا الفصل إلى مذكرات المؤرخ محمد بك رمزى — وقد وضعها تحت تصرفنا الاقتباس ما يهم القارىء الباحث معرفته

(٢) راجع الخريطة المرفقة بهذا الفصل والمبين عليها مواقع الأسوار وأبعادها ومواقع ما كان فيها من الأبواب وهى من عمل محمد بك رمزى

السور الأول

يستفاد مما ذكره المقريزى فى خططه عند الكلام على سور القاهرة (١) إن القائد جوهر بدأ من عام ٣٥٩ هـ — ٩٧٠ م ببناء السور الذى أنشأه من اللبن على مناخه الذى نزل فيه هو وجنوده حيث القاهرة الآن ثم أداره على القصر والجامع وأدخل فى دائرة سور القصر بئر العظام وجعل القاهرة حارات للواصلين صحبته وصحبة مولاه المعز ورتب فى القصر جميع ما يحتاج اليه الخلفاء

ومن جهة تعيين موقع السور وحدوده فانه يستفاد مما ذكره المقريزى عند الكلام على باب النصر وباب الفتوح وبابى زويلة القديمين وباب زويلة الحالى وباب البرقية وعلى جامع الحاكم وحارة بهاء الدين وعلى غير ذلك من المبانى التى حدثت بين هذا السور وسور بدر الجمالى — يستفاد من كل ذلك ان مدينة القاهرة القديمة التى أنشأها جوهر القائد كانت واقعة بين مبانى القاهرة الحالية وكانت محاطة بسور من جهاتها الأربع فى المنطقة التى تحد اليوم من الجهة البحرية بخط يبدأ من واضحا على الخريطة المرفقة بهذا الكتاب على رأس حارة الوسايمة من جهتها الشرقية حيث كان يبدأ السور البحرى ثم يسير الى الغرب حتى يتقابل بشارع باب النصر عند نقطة واقعة على بعد عشرين متراً إلى شمال جامع الحاج محمود الحتو المعروف بجامع الشهداء حيث كان يقع فى تلك النقطة باب القدس الذى كان بداخل باب النصر ومن هناك يسير السور إلى الغرب حتى يتقابل بشارع المعز لدين الله (شارع باب الفتوح سابقا) على رأس مدخل شارع بين السيارج حيث كان يقع فى تلك النقطة باب القوس الذى كان داخلا فى باب الفتوح ثم يمتد السور فى مكان الوجهة البحرية للمبانى الواقعة فى شارع بين السيارج الى نهايته الغربية عند نقطة تجاه جامع حسن الزركشى وكان السور البحرى لمدينة جوهر ينتهى عند تلك النقطة

وكان السور الغربى يبدأ من النقطة المذكورة ثم يسير متجها الى الجنوب إلى أن يصل إلى رأس شارع أمير الجيوش الجوانى حيث يقع باب القوس

---

(١) راجع الخطط المقريزية ج ١ ص ٣٧٧

الذى كان بداخل باب القنطرة ثم يسير السور إلى الجنوب فى مكان الوجهة الغربية للمبانى الواقعة بشارع الشعرانى البرانى وشارع بين السورين وشارع بين النهدين إلى باب الخوخة على رأس شارع قبو الزينة (وصوابه قبو الزينية) ثم يمتد السور بعد ذلك بالوجهة الغربية لمبانى شارع جامع البنات الى أن يلتقى برأس شارع الاستئناف الحالى حيث كانت خوخة الأمير حسين ثم يسير السور جنوبا الى حيث مبنى محكمة الاستئناف على بعـــد ٢٠ مترا جنوبى مدخل الاستئناف وعلى بعد عشرة أمتار فى شمال الباب الغربى لمحكمة الاستئناف . وعند تلك النقطة كان يقع باب سعادة وهو آخر السور الغربى لمدينة جوهر

وكان السور القبلى يبدأ من الكتف القبلى لباب سعادة ثم يسير إلى الشرق إلى شارع المنجلة من الجهة القبلية ثم يمتد إلى شارع المنجدين من الغرب وبين شارع المعز لدين الله (شارع المناخلية سابقا) من الشرق وكان يقع بابا زويلة القديمان اللذان أنشأهما جوهر بعضهما فى السور القبلى تجاه جامع سام بن نوح وفى الجامع المذكور يمتد السور القبلى حتى يصّل إلى درب المحروق وإلى هذه النقطة ينتهى السور القبلى

وكان السور الشرقى يبدأ من النقطة رقم (ا بالخريطة) ثم يمتد إلى الشمال حيث موقع باب البرقية الأولى ثم يمتد من تلك النقطة إلى الشمال حتى يتلاقى بالسور البحرى عند النقطة التى يحدها اليوم برج الظفر

هذه هى مواقع السور الذى أنشأه جوهر القائد حول مدينة القاهرة الأصلية وليس لهذا السور أثر اليوم فى أية نقطة من جهاته الأربع التى كانت تحيط بالمدينة المذكورة للتحديد الذى ذكرناه

السور الثانى

يستفاد مما ذكره المقريزى فى خططه عند الكلام عن أسوار القاهرة فى أيام الدولة الفاطمية (١) ان السور الثانى بناه أمير الجيوش بدر الجمالى فى سنة ٤٨٠هـ — ١٠٨٧م وزاد فيه من الشمال الزيادة التى بين بابى القوس اللذين انشأهما جوهر القائد فى سور القاهرة البحرى وبين السور الحالى الذى فيه باب النصر وباب الفتوح الحاليين ثم زاد فيه من الجهة الجنوبية الزيادة التى فيما بين بابى زويلة القديمين اللذين أنشأهما جوهر فى سور القاهرة القبلى وبين السور

الذى فيه باب زويله الحالى وجعل بدر الجمالى الأسوار التى أنشأها من اللبن وأقام الأبواب من حجارة

هذا هو ملخص تاريخ بناء السور الثانى وأما من جهة تعيين موقعه وحدوده فانه يستفاد مما ذكره المقريزى ، عند الكلام على باب النصر وباب الفتوح وباب زويله وعلى جامع الحاكم وعلى حارة بهاء الدين وعلى السور الثالث الآتى ذكره الذى أنشأه صلاح الدين يستفاد من كل ذلك أن الزيادة التى برز بها بدر الجمالى فى الجهة الشمالية من سور جوهر هى التى تحد اليوم من الشمال بالسور الحجرى الموجود الآن الذى يبدأ من النقطة الذى يشغلها اليوم برج الظفر ثم يسير الى الغرب الى أن يصل الى باب النصر رقم (٥) ثم الى باب الفتوح وينتهى السور البحرى بحسب وضعه ورسمه المبين على الخريطة

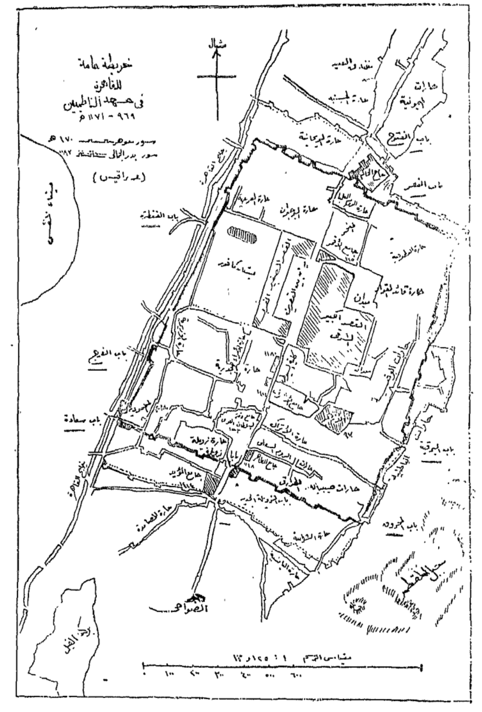
وتحد هذه الزيادة من الغرب بسور كان يمتد الى الجنوب التى يبدأ منها السور الغربى لمدينة جوهر

وتحد من الجنوب بسور جوهر المبين على الخريطة وتحد من الشرق بسور من اللبن كان يمتد من النقطة التى فى أول الحد الشمالى من الشرق ومنها يسير الى الجنوب بشكله المتعرج المبين على الخريطة

وأما الزيادة التى برز بها بدر الجمالى فى الجهة الجنوبية من سور جوهر فتحد اليوم من الشمال بسور جوهر المبين على الخريطة بأرقام ومن الغرب بسور من اللبن ثم يسير الى الجنوب حيث كان موقع باب الفرج ثم يسير الى الجنوب حيث ينتهى السور الغربى لهذه الزيادة عند موقع باب الخوق وتحد من الجنوب بسور من اللبن يسير الى الشرق فى مكان الوجهة القبلية للمبانى القائمة بالجهة الشمالية من شارع تحت الربع الى أن يصل الى النقطة حيث يقع باب زويلة الحالى ثم يمتد السور الى الشرق عند مدخل حارة الروم حيث كان موقع خوخة ايدغمش ثم يسير من هذه النقطة الى جهة الشرق فى مكان الوجهة القبلية للمبانى الواقعة بجزء من شارع الدرب الأحمر ثم الواقعة فى حارة سعد الله ومنها تمتد إلى حيث ينتهى الحد القبلى عند البرج الذى يتتبعه القارىء على السور المبين على خريطة القاهرة الحالية وتحد من الشرق بسور القاهرة الحالى المبين على الخريطة المرفقة

---

(١) الخطط المقريزية — الجزء الأول — ص ٣٧٩



وأنشأ بدر الجمالى أسواره باللبن ما عدا الجزء الواقع بين بابى الفتوح والنصر فهو بالحجر الى اليوم . وكذلك الأجزاء الواقعة على جانبى البابين المذكورين وعلى جانبى باب زويلة فهى بالحجر على مسافة ١٢٠ متراً تقريباً من كل جانب وقد زال أثر الأسوار التى أنشأها بدر الجمالى باللبن وأقام صلاح الدين فى مكانه بعض أجزاء منها أجزاء أخرى بالحجر فى سوره الثالث الذى سيأتى ذكره فى قاهرة صلاح الدين

ابواب القاهرة

وكان للقاهرة ثمانية أبواب لكل جنب من أجنابها الأربعة بابان . ففي الجنوب باب زويلة وكان بابين فى الأصل بنتهما قبيلة زويلة من قبائل البربر وكانا عند مسجد ابن البناء وعند الحجارين (١)

باب الفرج : يمكن تحقيق موقع هذا الباب بالضبط بأنك إذا سرت فى حارة الجداوى من ناحية السكرية تقابل على يسارك جامع المؤيد فحمام المؤيد فاثناء صغير به ضريح لمن يدعى « سيدى فرج » وهو ليس سوى باب الفرج وفى الجهة البحرية التى يسلك منها إلى عين شمس

باب النصر : وموضعه الأول بالرحبة التى أمام جامع الحاكم قرب المكان الذى يشغله الباب الحالى . وقد ذكر المقريزى أنه رأى جزءاً من جانبه المواجه للركن الغربى للمدرسة القاصدية حيث كانت هناك الرحبة المذكورة تفصل هذه المدرسة عند البابين لجامع الحاكم (٢)

باب الفتـــوح : ذكر المقريزى أنه كان لايزال يوجد فى عصره من باب الفتوح الأول أجزاء من عقده وعضادته اليسرى وبعض أسطر من الكتابة الكوفية . وكانت هذه الأجزاء على رأس حارة بهاء الدين من قبليها دون جدار الجامع الحاكمى (٣)

وكان فى الجهة الشرقية من القاهرة وهى الجهة التى يسلك منها الى الجبل بابان هما :

---

(١) مسجد ابن البناء هو الذى يعرف اليوم باسم زاوية العقادين بجوار سبيل العقـــادين بشارع المناخلية وتسميها العامة زاوية سام بن نوح . وقد بنى المسجد المذكور الحاكم بأمر الله ومات ابن البناء سنة ٥٩١ هـ وقد أزيل بابا زويلة الأصليان وبنى أمير الجيوش بدر الجمالى بدلهما باب زويلة الكبير القائم إلى اليوم . وتسميه العـــامة بوابة المتولى حيث كان يجلس فى مدخله متولى حبة القاهرة ـــ تعليق محمد بك رمزى ـــ النجوم الزاهرة ـــ ج ٤ ـــ ص ٣٧ ـــ

(٢) محمود أحمد ـــ مجلة الهندسة ـــ ١٩٣٤ ص ٣٣٢

(٣) الخطط المقريزية ـــ ج ٢ ص ٢١٠ و ٢١١ ـــ طبعة النيل

باب القراطين (المحروق) ويمكن تعيين موقع هذا الباب تعييناً أقرب إلى الضبط نظراً لأن موقع البـــاب الذى حل محله لايزال معروفا باسم الباب المحروق (١) ويرى الأستاذ كريسويل أن موقع باب القراطين الأول كان على مسافة خمسين ذراعا من الباب المحروق الحالى (٢)

باب البرقية : ليس من السهل تحديد موقع باب البرقية لأن الفصل الذى بحث فيه المقريزى أبواب القـاهرة وقف عند ذكر عنوان باب البرقيـةومن المحتمل جدا أن موقعه كان شمالى الباب المحروق وبالقرب من الجامع الأزهر وقد نسب إلى جنود برقة ثم عرف بعد بباب الغريب

أما الجهة الغربية من القاهرة وهى المطلة على الخليج الكبير فقد كان هناك :

باب سعادة : وهو أول أبواب السور الغربى ، وقدعرف باسم سعاد بن حيان غلام المعز لدين الله وأحد قواده . لأنه لما قدم من بلاد المغرب بعد بناء القاهرة نزل بالجيزة وخرج جوهر إلى لقائه وعاد معه إلى القاهرة دخلها من هذا الباب فعرف به وقيل له باب سعادة ويحدد موقع هذا الباب بالضبط بالطرف الجنوبى للجانب الغربى من سور القاهرة وبالقرب من الركن الشمالى الشرقى لمحكمة الاستئناف

باب القنطرة أو الجسر : وقد عرف بذلك الاسم لأن جوهر بنى هنـاك قنطرة فوق الخليج الذى بظاهر القاهرة ليسير عليها إلى المقس عندمسير القرامطة إلى مصر (٣٦٠ هـ) وكان موضعه على مدخل شارع أمير الجيوش الجوانى تجاه مدرسة باب الشعرية(٣) وقد سمى العامة باب القنطرة خطأ باسم باب الشعرية فى حين أن ذلك الباب كان قائما غربى الخليج بميـدان العدوى بين شارعى العدوى وسوق الجرايه . وكانت قنطرة اخرى عند ذلك الباب ذكرها المقريزى باسم قنطرة باب الشعرية وتعرف فى ايامنا باسم الخروبى . والعدوى والخروبى مدفونان فى مسجد بجوار موقع الباب المذكور

---

(١) أطلق على الباب المحروق هذا الاسم بسبب مافعله ٧٠٠ مملوك هربوامن القاهرة عندما علموا بقتل الفارس الأمير أقطاى فى ٢١ شعبان ٦٥٢ هـ . ففى أثناء الليل تركوا منازلهم وتقدموا نحو هذا الباب فوجدوه مغلقا كما كانت العادة فى ذلك العصر إذا كانت تغلق أبواب مدينة القاهرة فى الليل . فأوقدوا النار فى الباب حتى سقط من ذلك الحريق وخرجوا منه ومن ذلك الوقت عرف هذا الباب بالباب المحروق — المقريزى — طبعة النيل جـ ٢ . ص ٢١٣

(٢) أنظر Prof. K.A.C. Creswell, The Foundation of Cairo. p. 272

(٣) تعليق محمد رمزى بك بالنجوم الزاهرة : — جـ ٤ — ص ٣٩

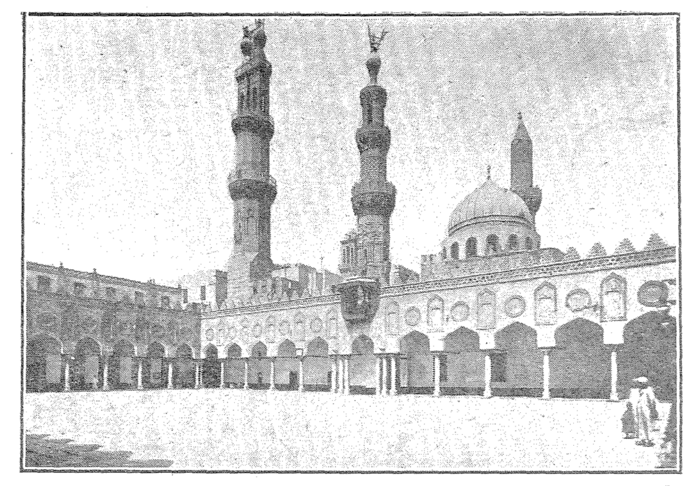
الجامع الأزهر

بعد عام من فتح الفاطميين مصر كان جوهر قد أتم انشاء القاهرة فكانت أولى أعماله بناء الجامع الأزهر . وقد أكد المقريزى أن القائد جوهر بدأ عمارته فى يوم السبت لست بقين من جماد الأولى سنة ٣٥٩ هـ ولما أتم تشييده بعد عامين فتح للصلاة فى شهر رمضان سنة ٣٦١ هـ (يونيه — يوليه ٩٧٢ م) . ويعد الأزهر أول عمل فنى معمارى أقامه الفاطميون فى مصر لايزال قائما لليوم

بنى الجامع الأزهر فى الجنوب الشرقى من المدينة على مقربة من القصر الكبير الذى كان موجودا حينئذاك بين حى الديلم وحى الترك فى الجنوب . وكتب جوهر بدائرة القبة نقشا تاريخه عام ٣٦٠ هـ تجد نصه فى الخطط المقريزية وقد اندثر هذا النقش

ويعد التخطيط الأصلى الذى أنشىء هذا الجامع عليه من الأمور الصعبة التى لا يمكن الاهتداء اليها . فقد زاد كثير من الخلفاء الفاطميين فى بنائه وأعيد تجديد أجزاء كثيرة منه فى خلال القرون الماضية كما أضيفت اليه زيادات عدة . وإذا كان الجامع مازال يشتمل على بقية ضئيلة من الأفاريز الكوفية والعقود الفارسية التى تعد من مميزات العمارة الفاطمية فان جل أجزاءه الحالية من عصر متأخر إذ أضاف المستنصر والحافظ فى بنيان الجامع بعض أجزائه . ثم قطع عنه الأيوبيون كثيرا مما أوقفه عليه الحاكم ومنع صلاح الدين الخطبة عنه . وكان قايتباى أكثر الناس رعاية للجامع فى القرن التاسع . وأنشاء الفاطميين لهذا المسجد لا يفسر الاسم الذى أطلق عليه فقد قيل إن الأزهر إشارة إلى الزهراء وهو لقب السيدة فاطمة التى سمت باسمها مقصورة فى المسجد (١) وقال بعضهم إن هذه التسمية نسبة إلى القصور الزاهرة التى بنيت حين أنشئت القاهرة . وقال آخرون إنما سمى كذلك تفاؤلا بما سيكون له من الشأن والمكانة بازدهار العلوم فيه . وكان الخليفه العزيز الفاطمى أول من حول الأزهر من مسجد تقام فيه الشعائر الدينية إلى جامعة للشيعة تدرس فيها العلوم ويروج فيها المذهب الفاطمى كما كان أول من أجرى الأرزاق على طلاب العلم فيه ممن وفدوا من جميع نواحى

(١) دائرة المعارف الاسلامية — المجلد الثانى — العدد الأول ص ٥٢



صحن الجامع الازهر ومآذنه وقبته (٣٥٩ ـ ٣٦١ هـ ، ٩٧٠ ـ ٩٧٢ م)

تصوير الاستاذ حسن عبد الوهاب

العالم الاسلامى . من ساحل الذهب إلى جزر الملايو . فقد تقابل فى مقصوراته وفنائه المراكشى والجاوى والصينى والتونسى والجزائرى والبولندى والزنجى تربطهم جميعا رابطة الاسلام وكان لكل طلاب أمة رواقهم الخاص حيث يتلقون دروس الفقه والشريعه والنحو والحديث والمنطق والجبر والفلك والعروض والبلاغة والتفسير (١)

أخطاط القاهرة

ونتنقل الآن إلى ذكر أهم الأحياء التى اشتملت عليها القاهرة المعزية فنقول: سبق القول إنه فى اليوم الذى خط فيه جوهر المدينة الجديدة أخذت كل قبيلة من القبائل التى تألف منها الجيش الفاطمى خطة عرفت باسمها وقد كان أهم تلك الخطط أو الحارات ما يأتى :

١ — حارة الروم : كانت حارتين : وهى التى لم تزل معروفة الى اليوم بنفس الاسم بقسم الدرب الأحمر وحارة الروم الجوانية بقرب باب النصر على يسار الداخل إلى القاهرة . وقد نسبت إلى الأشراف الجوانيين

٢ — حارة برجوان : منسوبة إلى برجوان أحد خدمة القصر فى أيام العزيز بالله نزار العبيدى . وصار فى أيام الحاكم بامر الله مدبر مملكته حتى قتله فى أحد قصوره

٣ — حارة زويله : منسوبة الى زويلة إحدى قبائل البربر التى وفدت على مصر صحبة القائد جوهر وكانت خطة كبيرة

٤ — حارة الجدرية : وهى طائفة منسوبة إلى جودر خادم عبيد الله المهدى ابو الخلفاء الفاطميين . وقد سكنها اليهود بعدهم إلى أن بلغ الحاكم أنهم يهزأون بالمسلمين فسد عليهم أبوابها وحرقهم ليلا

٥ — حارة الأمراء : بالقرب من باب الزهومة (٢) وقد عرفت فيما بعد باسم

---

(١) راجع ثبت المصادر لمادة الأزهر فى دائرة المعارف الاسلامية — المجلد الثانى — العدد الأول ص ٧١٢٧٠

(٢) باب الزهومه أحد الأبواب الغربية للقصر الكبير وموقعه اليوم الدكاكين الواقعة فى أول شارع خان الخليلى على يسار داخله من جهة شارع القمصانجية من شارع بين القصرين — تعليق محمد بك رمزى — النجوم الزاهرة . ج ٤ — ص ٣٦

درب شمس الدولة توران شاه بن أيوب شقيق السلطان صلاح الدين . وكانت بها دار الوزير عباس

٦ ــ حارة الديلم : منسوب الى الديلم الذين أتوا برفقة « فتكين » غلام المعز ابن بويه الديلمى الذى تغلب على الشام فى عهد المعز وقاتل جوهر واستنصر بالقرامطة لكنه وقع فى أسر العزيز بالله فى مدينة الرملة وساقه الى القاهرة فعامله بالحسنى وأنزله مع أصحابه بهذه الخطة وكانت بها دار الصالح طلائع بن رزيك

٧ ــ حارة الباطلية وتعرف بقوم أتوا مع المعز ولما قسم العطاء بين الناس لم يعطهم شيئا فقالوا « رحنا نحن فى الباطل » فسموا الباطلية (١)

٨ ــ حارة الكافورى : كانت بستانا للاستاذ الملك كافور الاخشيدى ثم صار من بعده للخلفاء المصريين

٩ ــ حارة قائد القواد : (درب ملوخية) سكنه فى بادىء الأمر حسين بن جوهر القائد الملقب بقائد القواد ثم نسبت هذه الحارة الى ملوخية أحد فراشى القصر ويعرف هذا الدرب اليوم باسم حارة درب الشوك

١٠ ــ حارة العطوف منسوبة الى الخادم عطوف أحد خدام القصر الفاطمى وتدل على موقعها المنطقة التى يتوسطها اليوم حارة العطوف بالقرب من باب النصر

١١ ــ الوزيرية : منسوبة الى الوزير يعقوب بن كلس وكانت حارة كبيرة

١٢ ــ حارة المحمودية : أو المصامدة منسوبة إلى الطائفة المعروفة بالمحمودية التى قدمت أيام العزيز بالله الفاطمى الى مصر

ولقد زاد عدد هذه الخطط وتطورت كثيرا فى أيام الأيوبيين والمماليك مما لا يتسع هذا البحث لشرحه ووصفه مفصلا (٢)

القصور الزاهرة

وصف المقريزى قصور الفاطميين فيما لا يقل عن مائتى صفحة . وقد ذكرنا أنه من المحتمل أن يكون جوهر قد وضع أساس القصر الكبير فى نفس الليلة التى اختط فيها القاهرة . وقد استمر العمل فى أقسامه المتعددة عدة سنين واشتمل

---

(١) يدل علي موقعها اليوم شارع وحارة الباطنية فى الجنوب الشرقى لجامع الأزهر

(٢) تبحث المراجع المفصلة ــ كالمقريزى وعلي باشا مبارك و Ravaisse

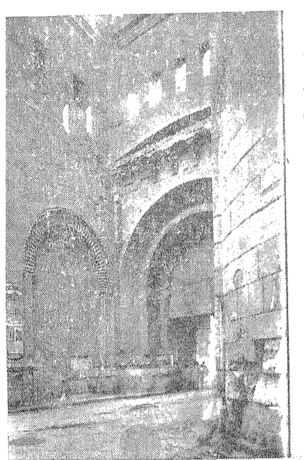
هذا القصر فى داخله على عدة مناظر وقاعات وقصور صغيرة أهمها بهو الذهب والأقيال والظفر والشجرة وقصر الشوك والزمرد والنسيم والبحر والحريم. ولما آلت الخلافة إلى العزيز أضاف إلى القصر قاعة الذهب والديوان الكبير وكانت للقصر الكبير وحده تسعة أبواب أهمها وأجلها باب الذهب ثم باب البحر وباب الزمرد وباب السعيد وباب قصر الشوك وباب الديلم وباب تربة الزعفران ثم باب الزهومه. وكان باب الذهب تدخل منه القوات العسكرية وجميع أهل الدولة فى يومى الاثنين والخميس لقاعة الذهب. وكان هناك أمام القصر ميدان فسيح تعرض فيه الجنود فى يومى العيدين. أما القصر الصغير فقد أمر ببنائه العزيز بالله عام ٤٥٠ هـ وقد قال المسبحى عنه «لم يبن مثله فى شرق ولا فى غرب». وكانت له عدة أبواب أهمها باب السباط وباب التبانين وباب الزمرد وكان يتصل بالقصر الكبير بواسطة نفق تحت الأرض. كان ينزل منه الخليفة ممتطياً ظهر بغلته تحيط به فتيات القصر

ولم يتم بناء القصر الصغير إلا فى عام ٤٥٧ هـ فى خلافة المستنصر. وقد شغل موقعه فيما بعد المارستان الكبير المنصورى إلى جوار حارة برجوان

وشيد الفاطميون دوراً كثيرة ومناظر جميلة منها دار الضيافة ودار الوزارة الكبرى ودار الغرب ودار الذهب. وقد بنى دار الوزارة أو (الدار الأفضلية) أمير الجيوش الافضل بن بدر الجمالى ثم سكنها أرباب السيوف أمراء الجيوش المصرية بالتوالى إلى أن تولى الأيوبيون الحكم فى مصر فسكنها السلطان الملك الصالح وولده (١)

وفى أيام الحاكم بأمر الله شيدت دار العلم (دار الحكمة) بجوار القصر الغربى وقد افتتحت فى اليوم العاشر من جمادى الآخرة سنة ٣٩٥ هـ واستمرت تؤدى رسالتها حتى أبطلها الأفضل ابن القائد بدر الجمالى

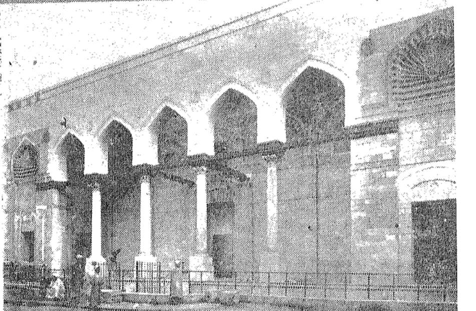
(١) الخطط المقريزية نقلا عن ابن عبد الظاهر ج ٢ ص ٣٠١ ، ٣٠٢ — طبعة النيل



باب الفتوح
كما يرى اليـــوم
(من منشئات القائد بدر
الجمالى)(٤٨٠هـ—١٠٨٧م)
فى العصر الفاطمى

....

واجهة
مســـجد الصالح طلائع
(٥٥٥ هـ — ١١٦٠ م)
وفقا لمشروع تجديده الذى
وضعه المرحوم محمود احمد
باشا مدير لجنة حفظ الآثار
العربية



قاهرة صلاح الدين

كانت القاهرة فى مستهل القرن الثالث عشر مدينة تختلف كل الاختلاف عن ذلك المقر الملكي الفاطمى. وأضحت تشغل مساحة أوسع وتحتوى على عدد كبير من المبانى الجديدة ذات طابع هندسى كان مجهولا فى مصر من قبل. وصارت لها قلعة تشرف عليها من جبل المقطم وقد كان الفضل فى هذه التجديدات لصلاح الدين غير أنه لم يعمر ليراها تتم أثناء حكمه. ولكى نبحث بالتفصيل الأسباب التى أدت إلى فتح مصر على يد ملك بيت المقدس الصليبى ثم طرده الفرنجة بفضل جيوش نور الدين ملك دمشق علينا أن نستعين بالتاريخ

فنرى أننا إزاء قوتين متعادلتين الأولى المملكة اللاتينية فى بيت المقدس والثانية الدولة السلجوقية فى دمشق. والاثنتان فى كفتى ميزان متعادلتين فلا تستطيع أحداهما أن تقهر الأخرى وكانت مصر فى الواقع مفتاح الموقف فلو استطاعت إحدى القوتين الاستيلاء على وادى النيل لكانت السيادة لها

وكان من الطبعى أن تتحالف الدولتان المسلمتان فى دمشق والقاهرة لقهر الدولة المسيحية لولا اختلاف المذهب الدينى بينهما. فقد كانت الأولى (سنية) والثانية (شيعية). ولم تجد المفاوضات السياسية بينهما نفعا حتى وصلت الجيوش الصليبية الى الأراضى المصرية ودخلت القاهرة، وإذ ذاك تغلبت على نور الدين النعرة الدينية فتداخل فى الأمر. وكان بدء التداخل نتيجة للنزاع الذى نشأ بين الوزيرين المتنافسين فى مصر فقام أحدهما وهو ضرغام وطرد منافسه « شاور » الذى استنجد بنور الدين وفى الوقت نفسه رأى ضرغام أن يتحد مع ملك بيت المقدس « املريك » وكان هذا قد جمع جموعه واستولى على الأراضى المصرية مطالبا بالجزية التى اعترف بها الفاطميون فى أثناء ضعفهم

وفى عام ١١٦٤ م (٥٥٩ هـ) عاد « شاور » يصحبه جيش سورى يقوده « شيركوه » ومعه ابن أخيه صلاح الدين فهزم ضرغام فى بلبيس وسارت الجنود المنتصرة الظافرة الى القاهرة حيث أراد ضرغام أن يصد هجوم شيركوه ولكن

هذا وشاور كانا قد استوليا بجنودهما على مصر وقد كان ضرغام عربيا باسلا له منزلة سامية عند مواطنيه وحارب الصليبيين فى غزة وكان قائدا لفرقة البرقية إحدى فرق الجيش الفاطمى . وقد أضاع كل أموال الوقف لقضاء مآربه السياسية والعسكرية فانفض من حوله أعوانه وتخلى عنه الخليفة وكانت آخرة ضرغام على يد شعب القاهرة إذ ثار عليه فقطع رأسه قرب مشهد السيدة نفيسة (وفى رواية أخرى بالقرب من باب زويلة) وتم النصر لشاور منافسه بينما تركت جثة ضرغام تنهشها الكلاب

على أن شاور لم يكد يتخلص من منافسه حتى بدأ يحيك مؤامرة للتخلص من العهود التى اتفق عليها مع شيركوه ومن معه فارسل الى « املريك » ملك بيت القدس يطلب منه المساعدة لطرد السوريين . وكان هذا لايستطيع رفض ذلك الطلب إذكان يتطلع إلى امتلاك مصر فلما بلغته دعوة شاور اقتنصها فرصة وأيقن من ضم المصريين إليه

وتطاحن الجيشان بالقرب من بلبيس ثم انتهى الأمر بالصلح على أن تخرج الجيوش الصليبية وجيوش شيركوه من مصر . وكان خروج جيش شيركوه من بلبيس فى اكتوبر سنة ١١٦٤ م (٥٥٩ ه) أشبه شيء بالنصر . وكانت هذه الاغارة الصغيرة من جانب شيركوه ونور الدين فاتحة لاحتلال مصر فيما بعد كما سنرى

عادت الجنود السلجوقية إلى دمشق بعد أن لمسوا مواطن الضعف فى الحكم الفاطمى واستسهل قواد الحملة السورية لنور الدين أمر فتح مصر واعادتها لسلطانهم وبينوا له أهميتها وكان السلطان على حذر من تنفيذ مآربه ولكنه لما رأى الدسائس دائرة بين « املريك » وشاور جهز فى الحال حملته الثانية على مصر

ولما علم نور الدين أن الصليبيين ينوون غزو مصر جهز حملته التى وصلت إلى شرق النيل عند اطفيح فى أوائل سنة ١١٦٧ م (٥٦٢ ه) وعبرت الى البر الغربى من هناك وكان جيش « املريك » قد وصل وأنضم الى جيش شاور

وبعد حين كان أحد الجيشين عند الفسطاط وهو جيش مصر وحلفائها الفرنج والآخر وهو الجيش السورى عند الجيزة فى البر الغربى . وأستولى

« املريك » على القاهرة وأمضى معاهدة مع الخليفة العاضد الذى أقسم على اعطاء الفرنج مائتى الف دينار عاجلا ومثلها آجلا ثمنا لمساعدتهم

أما « شيركوه » فتقهقر إلى مصر العليا حتى بلغ « البابين » فى جنوب المنيا وهناك حطم الجيش المصرى وهزم جيش الفرنج ولم يجرأ « شيركوه » على اللحاق باعدائه لقلة عدد جنوده . فلما انتهى من معارك الصعيد أرسل صلاح الدين الى الاسكندرية فثبتت مدة طويلة أمام جنوده وأخيرا وقعت فى يده بعد ٧٥ يوما

انتهى الدور الثانى للحرب وعادت الجيوش الى سوريا وفلسطين وترك الفرنج مقيما لهم فى القاهرة وأبقوا منهم حراساً على أبواب القاهرة وضربوا جزية نحوماية الف دينار كل عام وتركوا حامية منهم فى مسجد الحاكم ثم رحلوا عن مصر وقد عرفوا مواطن الضعف فيها فلما عادوا اليها بعد نحو سنة من امضاء المعاهدة كانوا قد وطدوا العزم نهائيا على ضمها الى أملاكهم

ولم يلبث المصريون أن عرفوا نيتهم فألتفت جماعة منهم حول الخليفة العاضد وأكثرهم من أعداء شاور وأرسلوا الى نور الدين ليأتى لمساعدة المصريين على أعدائهم وكان ينتظر هذه الفرصة فأخذ يعبىء جيشا لغزو مصر للمرة الثالثة

وصل شيركوه وصلاح الدين الى مصر فى أوائل ينساير سنة ١١٦٩ م (٥٦٤ هـ) وكان « أملريك » ملك الفرنج عند وصول جيش نور الدين واقفا يستنجز شاور وعده فى المال المتفق عليه . فلما وصل جيش نور الدين ورأى « أملريك » موقفه الحرج وهو بين شاور من جهة والجيش الاسلامى المغير من جهة أخرى لم يستطع البقاء وتخلى فى الحال عن البلاد المصرية عائداً الى فلسطين أما « شاور » فحاول استمالة « شيركوه » بالملق والمداهنة فلم يفلح وقبض عليه صلاح الدين ثم أمر الخليفة العاضد بقتله وطلب رأسه فأطيع أمر الخليفة وتخلصت مصر من رجل داهية لعب دورا عظيما فى السياسة المصرية فى القرن الثانى عشر

وأختار الخليفة العاضد بعد قتل شاور القائد أسد الدين شيركوه ليكون وزيرا محله ولقبه الملك المنصور وجعله أميراً لجيوشه غير أنه مات بعد شهرين

وخمسة أيام فعمد الخليفة إلى اختيار صلاح الدين ليحل محله فى الوزارة فتقلدها فى عام ١١٦٩

صلاح الدين الأيوبى

أصبح صلاح الدين وزيرا لمصر وأميراً لجيوشها ولقب بالملك الناصر. كان صلاح الدين فى منصبه الجديد هذا وزيرا للخليفة الشيعى وفى الوقت نفسه كان والياً من قبل ملك دمشق السنى ولذلك كان موقفه حرجا ومبهما ومع هذا استطاع أن يمضى عامين موفقاً فى منصبه وكأنه كان على علم تام بان الدولة الفاطمية آيلة الى الزوال

واتفق أن مرض العاضد واحتجب فى قصره فرأى صلاح الدين الفرصة سانحة لالغاء الخطبة العلوية بمصر وقام بالخطبة للخليفة العباسى رجل أعجمى عرف بالأمير العالم فلم يحدث استنكار من الناس فأمر صلاح الدين الخطباء جميعاً بان يلغوا خطبة العاضد ففعلوا وتم الانقلاب بدون حادث ولم يعلم العاضد بذلك الانقلاب لاشتداد وطأة مرضه حتى توفى فى يوم عاشوراء . ولما توفى جلس صلاح الدين للعزاء واستولى على قصر الخلافة وما فيه لحفظه « بهاء الدين قراقوش » وكان قد عينه وزيرا قبل موت العاضد ، ثم ألقى القبض على جميع من بقى من الأسرة الفاطمية واعتقلهم فى مكان بعيد من قصورهم الزاهرة التى وزعها على أمراء جنده وباع مماليك العاضد وعبيده وفرق بعضها بين أرباب دولته — ووضع صلاح الدين يده على المكتبة النفيسة وقد بلغت مجموعتها ١٢٠٠٠٠ كتابا نفيسا ومنحها لمستشاره العالم القاضى الفاضل ويقال أن قسما من هذه المكتبة محفوظ الآن فى مكتبة ليدن بهولندا

وعاد سلطان العباسيين مرة ثانية الى مصر واندثرت آثار الفاطميين على مر الأيام ولم يبق منها الا ما خلفوه من مساجد

وقضى صلاح الدين معظم حياته فى خارج مصر ومن الأربع والعشرين سنة وهى فترة حكمه كحاكم مستقل (يدخل فيها الخمس السنوات الأولى التى خضع فى اثنائها لنفوذ نور الدين ، لم يقض منها سوى ثمانية أعوام فى القاهرة أما بقية سنى مجده فاننا نجده متنقلا فيها فى الشام وأرض الجزيرة وفلسطين . ولما ترك صلاح الدين القاهرة فى ١١ مايو عام ١١٨٢ م « ٥٧٨ ه » واجتمع

كبار رجال دولته لوداعه وقف الجميع بالقرب من بركة الأحبــاش وعزفت الموسيقى دور الوداع الأخير وكان بين الحاضرين معلم لبعض أولاده فاخرج رأسه من بين الصفوف كانه يودع السلطان وقال البيت المشهور

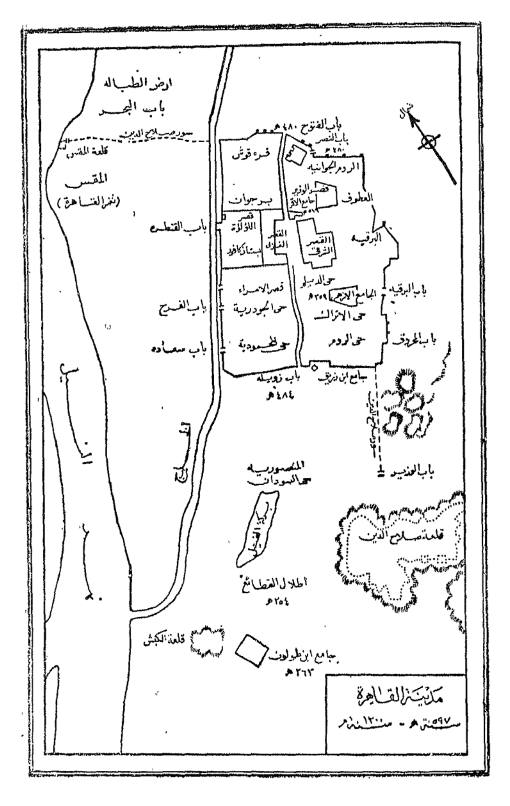
تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العشية من عرار

فتشاءم صلاح الدين واغتم المجلس وقد صدق ذلك الفأل فلم يعد صلاح الدين وغزا أرض الفرات وضم الى دولته سلطنة دمشق بعد موت نور الدين وانتصر انتصاره الخالد فى معركة حطين وقد ضرب الصليبيين وأعاد بيت المقـــدس لسلطان المسلمين والمسيحيين وأخضع كل البلاد المقدسة لكلمته واستمر نضاله الطويل مع الاتحاد المسيحى الأوربى حول عكا وغيرها واشتهر اسمه وعرفته أفواه ملايين الناس فى أوربا منافساً قويا لريتشارد « قلب الأسد » وأخيرا بعد هجومه النهائى على يافا وارتداده بالفشل تم صلح الرملة فى (٣ سبتمبر سنة ١١٩٢) « ٢٢ شعبان سنة ٥٩٨ هـ » ونص فى الصلح على ان يحتفظ الفرنج بالساحل من عكا الى يافا ، وأن يسمح للحجاج أن يزوروا بيت المقدس وأن تخرب عسقلان ويكون الساحل من بدايته الى الجنوب لصلاح الدين

ومات صلاح الدين فى (٢٧ صفر سنة ٥٨٩ — ٤ مارس سنة ١١٩٣) ودفن فى دمشق تاركا دولة اسلامية واحدة تمتد من الدجلة إلى النوبة الى برقة بينما كان الافرنج محصورين على الساحل فى رقعة ضيقة بين عكا ويافا

القاهرة

وعلى الرغم من قصر الفترة التى قضاها صلاح الدين فى القاهرة لم يترك أحد من حكامها مثل ماخلفه هذا السلطان العظيم من آثار لا تزال باقية فله وحده تدين عاصمة البلاد بشكلها واتساع نطاقها الى درجة لاتقل كثيراً عما هى عليه الآن وأهم تلك المظاهر التى خلفها قلعة الجبل التى كانت من ابتداعه وهو الذى أدخل الى مصر تصميم « المدرسة » وقد أحدث الكثير من هذه التغييرات فى أثناء وجوده فى القاهرة ونفذ معظمها قواده ورجال دولته وأفراد أسرته الذى كان ينتدبهم للقيام بتلك المشروعات الكبيرة بينما كان يجاهد فى سبيل الاسلام والمسلمين . وكانت معظم مشروعاته أعمالا دفاعية لحماية البلاد بينما



تؤدى من ناحية أخرى الاغراض الدينيه . وكانت القاعة من المجموعة الاولى وكذلك سور القاهرة الجديد والسد العظيم.

واكتفى الحكام المصريون الذين سبقوا صلاح الدين ببناء ضاحية أو مقر

ملكى يبعد ميلا أو أكثر الى جهة الشمال بشرق . ومدينة القاهرة الفاطمية وضعت فى الاصل لتكون دار الخلافة وقصرا للخليفة وحرمه وجنده وخواصه وظلت على ما كانت عليه حتى خلافة المستنصر عندما قدم امير الجيوش بدر الجمالى وسكن القاهرة فوجدها خاوية فأباح للعسكريين والأرمن وكل من استطاع البناء بأن يعمر ماشاء فى القاهرة مما خلا من فسطاط مصر فأخذ الناس ما كان هناك من انقاض الدور وغيرها وعمروا بها المنـــازل فى القاهرة وسكنوها فسكنها أصحاب السلطان الى ان انقرضت الدولة الفاطمية باستيلاء السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادى فى سنة سبع وستين وخمسمائة هجرية محولا لها مما كانت عليه من الصيانة والتخصيص وجعلها لسكن الشعب فهو الذى جعـــل منهـــا عاصـــمة للقطر . وأقام صـــلاح الدين فى دار الوزارة الكبرى حتى بنيت قلعة الجبل فكان يتردد اليها ويقيم فيها وكذلك ابنه الملك العزيز عثمان وأخوه الملك العادل أبو بكر فلما كان الملك الكامل ناصر الدين بن أيوب تحول من دار الوزارة الى القلعة وسكنها

رأينا ان صلاح الدين لم ينسج على منوال من سبقوه فى الحكم وأقام ضاحية ملكيه على مثال «القطائع» أو « فرساى » بل عمل شيئاً جديداً فقد رأى أن يضم تلك الضواحى ببناء سور حولها ثم يتوجها بقلعته الشهيره فوق جبل المقطم . وكانت مدينة مصر بعد ان حرقها « شاور » تحاول النهوض من رمادها وبقاياها التافهه لتجدد شبابها فوجدت من يأخـــذ بيدها لينهض بها ـ كذلك رأى صلاح الدين أن يجمع معها تلك النواحى المبعثرة ضمن الضواحى الخربة ويضم اليها ميناء المقس ثم يلتف السور حولها لتكون للقاهرة كما كانت ضاحية « بيريه » لاثينا . وقرر أن يكون بناء السور من الحجر ويمد سور بدر الجمالى الى المقس من ناحية الغرب والى تلال المقطم من ناحية الجنوب ثم يلتف عند بقايا مدينة الفسطاط القديمه حتى يمس النيل تقريباً

ولم يتم هذا المشروع العظيم لأن صاحبه شـــغل عنه بحملاته العسكرية فى الشام ولا نشك مطلقا أن وزيره فى القاهرة كان مشغولا عنه أيضا بتعبئة الرجال المدربين للقتال وتدبير المال اللازم لتجهيزهم فلم يقم إلا ببناء ما احتاجت اليه

الدولة . ومن المحتمل أيضاً أنه أعاد فكرة أو لمح اليه أحد رجال الدولة بعدم فائدة تشييد سور تضم مدينة مخربة كمصر . فيوفر للدولة تلك التكاليف الباهظة التى تقتضيها عدة أميال من الأسوار الحجرية المتينة البناء

السد العظيم

ومن أهم أعمال صلاح الدين الدفاعية بناء السد العظيم على الضفة الغربية للنيل عند الجيزة ويبعد عن مصر سبعة أميال وقد وصف الرحالة ابن جبير هذا السد بأنه مشروع عظيم لا يقدم عليه إلا ملك متنور ساهر على أحوال رعيته وبلاده ، وقد قال عنه انه يحتوى على أربعين عقداً من أكبر الأحجام التى شاهدها للقناطر ذات العقود وكان على امتداد الجسر المرتفع المقابل لمصر بعد ستة أميال منه . ولا شك ان بناء مثل هذا السد كان لسبب عسكرى هام فكر فيه صلاح الدين . فانه لم ينس تاريخ غارات الفاطميين المتوالية على مصر من ناحية الصحراء الليبية حيث كان المغيرون يتقدمون سيراً حتى يصل الى شاطىء النيل بدون أن يقف فى سبيلهم مايعرقلهم من الحصون أو الجسور . ولهذا رأى صلاح الدين أن يتحصن بأقامة هذا الجسر العظيم ويذكر ابن جبير أيضاً ان صلاح الدين خشى هجوما يقوم به الموحدون بعدأن أخضعوا السلطانهم مراكش وجنوب اسبانيا واستولوا على الجزائر وطرابلس فى عام ١١٥٨ حتى وصلت سطوتهم إلى حدود مصر من الناحية الغربية بزعامة القائد عبد المؤمن فاحتاط صلاح الدين لما قد يحدث منهم

قلعة صلاح الدين

ولم تكن أسوار صلاح الدين إلا صورة منقحة لأسوار بدر الجمالى أما القلعة فكانت فكرة مبتكرة . ويحتمل أن يكون الباعث لصلاح الدين على أقامتها بغضه الشديد لخلفاء الفاطميين الشيعيين ولقصورهم التى سكنوها فقد لا نشك إذا قلنا أن صلاح الدين على الرغم من قصر مدة اقامته فى القلعة إلا فى زيارات قليلة رغب فى أن يجعلها مقراً لسكناه كما فعل خلفاؤه . ولكى نفسر كيف أراد أن يشيدها كقلعة للدفاع نعود إلى حملات صلاح الدين فى سوريا حيث لاتخلو

مدينة سورية من قلعتها . . فنظر بعينه العسكرية ورأى حاجة القاهرة الى قلعة تحميها فتمت مشيئته

وهنا ننقل ما كتبه عماد الدين كاتب السلطان صلاح الدين قال :

« كان السلطان لما ملك مصر رأى أن مصر والقاهرة لكل واحدة منها سور لا يحميها فقال أن أفردت لكل واحدة سورا احتاجت الى جند كثير يحميها وانى أرى أن أدير عليها سوراً واحداً من الشاطىء الى الشاطىء وأمر ببناء قلعة فى الوسط عند مسجد سعد الدولة على جبل المقطم » .

أدرك السلطان صلاح الدين المكان لاقامة تلك القلعة التى تحكم القاهرة على ارتفاع لا يقل عن ٢٥٠ قدماً ولو انه كان من ورائها على الجبل مواقع اعلا تحكم موقع القلعة وتشرف عليها بنيرانها فاننا لاننسى مكانة الأسلحة الحربية القديمة بجانب الأسلحة الحديثة والنتيجة لاتجعلنا نبخس المهندسين العسكريين فى القرن الثانى عشر حقهم من الكفاءة والمقدرة فى فن المعمار فان عملهم لايزال واضحاً لزملائهم فى القرن العشرين

وقام صلاح الدين بتنفيذ مشروع بناء القلعة فى عام (١١٧٦ — ١١٧م) وأقام على عمارتها الأمير بهاء الدين قراقوش الاسدى الخصى أحد أمرائه المخلصين

ولم ينقض على العمل ست سنوات حتى نقش على الباب المدرج فى الضلع الغربى من القلعة مانقرأه إلى يومنا هذا :

بسم الله الرحمن الرحيم . أمر بانشاء هذه القلعة الباهرة المجاورة لمحروسة القاهرة (؟) التى جمعت نفعاً وتحسيناً وسعة على من التجا إلى ظل ملكه وتحصيناً مولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين أبو المظفر يوسف بن أيوب محى دولة أمير المؤمنين فى نظر أخيه وولى عهده الملك العادل سيف الدين أبى بكر محمد خليل أمير المؤمنين على يد أمير مملكته ومعين دولته قراقوش بن عبد اللاه المالكى الناصرى فى سنة تسعة وسبعين وخمسمائة (أى فى عام ١١٨٣ — ١١٨٤ م)

وقد هدم صلاح الدين لكى يمهد لبناء هذه القلعة عدداً كبيراً من الأهرام

الصغيرة التى كانت بالجيزة تجاه مصر وكانت كثيرة العدد ونقل ما وجد بها من الحجارة وبنى به السور والقلعة وقناطر الجيزة وهدم ماوجده فى موقع البناء من المساجد وأزال القبـــور . وقام بأكثر أعمال نحت الأحجار الأسرى الفرنج والأوربيون الذين أسرهم صلاح الدين فى معاركه — ولقد زار السائح الاندلسى ابن جبير القاهرة فى عام ١١٨٣ فشاهد الأعمال يقوم بها الأسرى الفرنج وكان عددهم وفيراً جداً ولولاهم لما استطاع قراقوش أن ينفذ أوامر سـيده

مات صلاح الدين قبل أن ينتهى بناء القلعة فأهمل العمل مدة إلى كانت سلطنة الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب فى قلعة الجبل وأنابه فى حكم مصر وجعله ولى عهده فأتم بناء القلعة وما برح يسكنها حتى مات فاستمرت من بعده دار مملكة مصر حتى عام ١٨٥٠ — ولقد طرأت على مبانيها تغييرات واضافات متعددة ولا ترى فيها اليوم من أعمال صلاح الدين الأولى سوى بعض أجزاء السور والأبواب

السور الثالث (١)

ابتدأ السلطان صلاح الدين عمارة السور الثالث للقاهرة سنة ٥٦٦ ه وهو يومئذ وزير للخليفة العاضد لدين الله . وفى عام ٥٦٩ ه انتدب الطواشى بهاء الدين قراقوش الأسدى لعمل السور فبناه بالحجارة على كما هو عليه الآن وأراد أن يجعل على القاهرة ومصر (مصر القديمة) والقلعة سوراً واحداً فزاد فى سور القاهرة الجزء الممتد من باب القنطرة الى باب الشعرية ومن باب الشعرية الى باب البحر ومن قلعة المقس فى نهاية السور البحرى على النيل بجانب جامع المقس وانقطع السور من هناك وكان أمله أن يمد السور من المقس الى أن يتصل بسور مصر (مصر القديمة) ثم زاد فى سور القاهرة الجزء الذى يلى باب النصر الى برج الظفر ومن هذا البرج الى باب البرقية ومنه الى درب بطوط والى خارج باب الوزير ليتصل بسور قلعة الجبل فانقطع من مكان يقرب الآن من الصوة تحت القلعة لوفاة صلاح الدين

وقد ذكر المقريزى أن طول السور المحيط فى أيامه بلغ ٢٩٣٠٢ ذراعا (بذراع العمل) وهو الذراع الهاشمى

---

(١) من مذكرات الأستاذ محمد بك رمزى

شرع صلاح الدين فى سنة ٥٦٦ هـ فى بناء السور الغربى للقاهرة على الحافة الشرقية للخليج المصرى فى محاذاة سور بدر وسور جوهر وعلى بعد قليل منهما إلى جهة الغرب كما هو مبين على الخريطة . وأقام صلاح الدين فعلا قطعة من السور الغربى وهى الممتدة من النهاية الغربية لسور بدر الجمالى البحرى ومتجهة نحو الجنوب الى باب القنطرة الذى أنشأه صلاح الدين فى السور الغربى المذكور تجاه باب القوس الذى كان يعرف بباب الرماحين

ولما تولى صلاح الدين حكم مصر رأى أن يزيد فى سور المدينة البحرى ويمده إلى الغرب ثم يبنى سورها الغربى على النيل بدلا من الخليج وذلك لكى يدخل فى السور القسم الذى استجد خارج القاهرة فى الجهة الغربية منها بين الخليج والنيل ولكى ينفذ هذا المشروع أوقف بناء السور الغربى على الخليج بعد باب القنطرة

وفى سنة ٥٦٩ هـ شرع بهاء الدين قره قوش فى مد السور البحرى من باب الشعرية إلى باب البحر بالمقس وأتمه فعلا وأراد أن يبنى السور الغربى للقاهرة على النيل من باب البحر إلى فم الخليج ليوصل سور القاهرة بسور مصر القديمة ولكن وفاة صلاح الدين حالت دون ذلك

وقد اندثر أغلب سور صلاح الدين والباقى منه مبين على خريطة القاهرة الحالية فى الجهات الآتية :

أولا : ان القطعة التى كان قد أنشأها صلاح الدين فى السور الغربى من السور البحرى الى باب القنطرة فى محاذاة الخليج هذه القطعة هدم أغلبها ولم يبق منها الى وقتنا هذا الا قطعة طولها ١٢٠ متراً كانت ممتدة من النهاية الغربية للسور البحرى ثم تسير جنوبا فى محاذاة حارة المسطاحى ولما فتح شارع الأمير فاروق فى سنة ١٩٣٠ هدمت هذه القطعة ودخلت أرضها فى امتداد الشارع المذكور ولم يبق منها الا جزء صغير طوله نحو عشرة أمتار ولم تزل ادارة حفظ الآثار العربية محتفظة بهذا الجزء للارشاد الى موقع السور القديم

ثانيا : ان السور البحرى الذى كان ممتداً بين باب الشعرية الذى يعرف الآن بباب العدوى وبين باب البحر الذى يعرف الآن بباب الحديد بميدان

باب الحديد كان قائما الى زمن دخول الفرنسيين مصر سنة ١٧٩٨ وبعد ذلك اعتدى الأهالى على هذا السور فهدموا معظمه ولم يبق منه الا بعض أجزاء لا تزال قائمة بلصق المساكن ومبينة على خريطة القاهرة الحالية مقطعة من الشرق الى الغرب الى قطع من السور ممتدة بين المساكن الواقعة فى المنطقة التى تحد اليوم من الشمال بسكة الفجالة وشارع الفجالة ومن الجنوب بشوارع بين الحارات والشمبكى والطبلة ومن الشرق بميدان العدوى وفى هذا الميدان كان موقع باب الشعرية ويليه الى جهة الغرب الأجزاء الباقية من السور المذكور

ثالثا : السور البحرى الذى فيه باب الفتوح وباب النصر سبق أن تكلمنا عليه فى السور الثانى وفى أيام صلاح الدين تجدد بناء بعض الأجزاء بالحجر بدل اللبن كما مشاهد الى اليوم فى السور البحرى

ولما فتح شارع الأمير فاروق فى سنة ١٩٣٠ أخذ فى طريقه جزء صغير وبذلك أصبح السور البحرى ينتهى من الغرب بشارع الأمير فاروق على رأس شارع درب البزازة وقد ثبت على طرف السور عند تلك النقطة المشرفة على شارع الأمير فاروق لوحة من الرخام مكتوب عليها بالنقش ما يفيد هدم جزء من السور لفتح الشارع المذكور فى سنة ١٩٣٠ فى عهد المغفور له الملك فؤاد الأول

وابتدأ السور البحرى فى أيام صلاح الدين الى جهة الشرق حيث موقع برج الظفر ولايزال يوجد من هذه الزيادة جزء من سور القسم الشرقى المجاور لبرج الظفر

رابعا : أما السور الشرقى لمدينة القاهرة فلا زال يوجد منه بعض أجزاء قائمة الى اليوم منها الجزء الذى يمتد من برج الظفر يتجه جنوبا بطول ٤٠٠ متر وبناؤه متخرب وتتولى ادارة حفظ الآثار العربية الآن بترميمه وإصلاحه وفى هذا الجز يقع الباب الجديد أحد أبواب القاهرة القديمة ومن السور المذكور الجزء الذى يبدأ من برج درب المحروق ويسير الى الجنوب بطول ٧٦٠ متر الى أن ينقطع خلف زاوية الشيخ مرشد بشارع باب الوزير . وهذا الجزء هو أطول الأجزاء القائمة من السور الشرقى وحائطه أغلبها سليم الى اليوم ومنه جزء آخر يمتد الى الجنوب بين الخانقة النظامية (جامع النظامى وقد خرب) وبين بقايا جامع السبع سلاطين (خرب) وطول هذا الجزء ٢١٥ مترا ويتصل من نهايته الجنوبية بسور القلعة

وأما الباقى من السور الشرقى وهو الجزء الذى يمتد من قلعة الجبل الى سور مدينة مصر فانه لما تكلم المقريزى عن السور الثالث (جـ ١ ص ٣٧٩) قال أن صلاح الدين لم يتهيأ له أن يصل سور قلعة الجبل بسور مدينة مصر ولكن لما تكلم على أبواب القنطرة الواقع جنوبى مدينة مصر (جـ ١ ص ٣٤٧) قال ان صلاح الدين مد السور من قلعة الجبل إلى باب القنطرة الواقعة جنوبى مدينة مصر وهذا دليل على بناء السور فى المسافة المذكورة

وباب القنطرة هــــذا هو غير باب القنطرة الذى يسمى خطأ باسم باب الشعرية بالقاهرة

ولما كان صلاح الدين قد اهتم بصفة خاصة ببناء السور الشرقى للقاهرة من برج الظفر الى القلعة كما اهتم أيضاً ببناء سور مدينة مصر ، فانى أرجح الرأى الذى ذكره المقريزى فيما يختص بمد السور من قلعة الجبل الى باب القنطرة اى الى مدينة مصر يؤيد ذلك وجود الحائط (العيون) التى كان يجرى من فوقها الماء فى المسافة من باب القرافة الى سور مدينة مصر وكانت هذه الحائط قبل ذلك من سور القاهرة ثم بنى فوقها قناة لنقل الماء من النيل الى قلعة الجبل

ويتضح مما ذكر أن كمالة السور الشرقى للقاهرة فى المسافة ما بين قلعة الجبل وسور مدينة مصر لايزال يوجد من آثاره حائط المجرى (العيون) القائمة الى اليوم من باب القرافة بالقاهرة الى نقط تلاقيها بحائط العيون الممتدة الى مصر القديمة عند الزاوية القبلية الشرقية فى جبانة السيدة نفيسة الجديدة

ويرى القارىء مما ذكرناه نقلاً عن القلقشندى أنه قال : إن السور الذى انشأه صلاح الدين مابين باب البحر والكوم الأحمر برأس منشاة المهرانى التى عند فم الخليج قد سقط . وبالبحث تبين لنا ان هذا السور كان صلاح الدين عازما على إقامته على شاطىء النيل غربى القاهرة من ميـــدان باب الحديد الى فم الخليج المصرى ولكنه لم ينشأ بدليل ما ذكره المقريزى وهو أن صلاح الدين زاد فى سور القاهرة القطعة التى من باب الشعرية الى باب البحر وبين قلعة المقس فى نهاية السور البحرى على النيل بجانب المقس وانقطع السور من هنالك وكان أمله أن يمد السور من المقس الى أن يتصـــل بسور مصر القديمة من جهة فم الخليج ولكن هذا الأمل لم يتحقق لوفاة صلاح الدين رحمه الله

المجتمع العلمى

تولى صلاح الدين عرش السلطنة المصرية ولم تكن فى مصر مدرسة واحدة تعنى بنشر التعليم الدينى على أسسه الصحيحة فرأى بثاقب فكره أن يعلم قواعد دينه ليتجنب عقائد الفاطميين فأنشأ المدارس أو كليات الدين ومنذ ذلك الحين قادت المدرسة فناً معماريا ذا قواعدمبتكرة

وفى عام ١١٧٦ أسست أول مدرسة على هذا النسق فى البلاد المصرية وكانت مجاورة لمدفن الامام الشافعى مؤسس مذهب الشافعية الذى كان يتبعه معظم المصريين حين ذاك وقد اندثرت معالم المدرسة وبقى جامع الشافعى ومقبرته وفى سنة ١١٨٣ م لما زار ابن جبير مصر ذكر قاعة الخطابة وتغنى بعظم اتساعها ومتانة بنائها وأشار إلى مدرسة كبيرة أمامها تحيط بها المبانى والمنشآت حتى لتشبه مدينة تحتوى على كل مشتملاتها وعلى مسافة منها توجد الحمام والمكاتب الضرورية الاخرى للادارة وكانت حركة البناء والاضافات لا تزال قائمة على قدم وساق وتصرف عليها تكاليف عظيمة وكان يشرف على المدرسة الشيخ نجم الدين الخبوشانى وكان أمام المسجد وهو من الرجال الصالحين الراسخين فى العلم وكان السلطان لا يألو جهدا فى اخراج مشروعه كاملا من نواحيه كلها وعلى الأخص من الناحية الفنية الجميلة البناء . وقد حظى ابن جبير بمقابلة هذا الامام وحاز رضى صلواته وكانت شهرته قد بلغت بلاد الأندلس وهو يقول فى مذكراته (زرناه فى جامعه وفى سكنه الخاص فى نفس الناحية التى تقوم عليها مبانى المدرسة وكان يسكن منزلا صغيراً له فناء ضيق فمنحنا دعواته لما ودعناه وفى كل أرض مصر لم نقابل مثيله)

ولم يؤسس السلطان تلك المدرسة فقط بل أسس مدرسة مجاورة لمعقل الفاطميين بجانب المشهد الحسينى وحول قصر المأمون القديم الى مدرسة سيف الدين لتدريس المذهب الحنفى وبنى مدرسة أخرى للشافعية وخامسة لمذهب ابن مالك فى مصر . ولكى نذكر للسلطان خيراته نرى المستشفيات الخيرية التى أنشأها ونحن نعرف بيمارستان أو مستشفى المملوك السلطان قلاوون فى سوق النحاسين لكننا لانعلم أن أول من فكر فى انشائه كان السلطان صلاح الدين

ويعود فضل إنشاء المدارس إلى صلاح الدين كما يعود اليه أيضاً ذلك التحويل الذى أحدثه فى فن عمارة القاهرة . فالى عصره كانت الجوامع كلها ذات تصميم هندسى واحد والغرض منها تجمع المسلمين لصلاة الجمعة وسماع خطبتها وكان إيوان المحراب أهم أجزاء الجامع وهو الجزء المسقوف منه حيث يصلى المصلون . وعند الازدحام فى مناسبة الأعياد كانت الجماهير تستخدم صحن الجامع المكشوف لصلواتهم وكان الاساتذة يستخدمون البواكى التى تحيط بالصحن لالقاء تعاليمهم على تلامذتهم كما كانت ملجأ للفقراء والسائلين فنرى أنها لم تكن من أجزاء الجامع الرئيسية المستعمله للتعبد . ولما زار ابن جبير مصر كان فى القاهرة أربعة جوامع من هذا الطراز وهى الازهر والحاكم وابن طولون وعمرو وبجانب هذه المساجد كان جامع الصالح طلائع وجامع الأقمر ولعدم العناية بهما آل مصيرهما الى الخراب بعد وفاة منشئهما

فلما ابتدع صلاح الدين نظام المدرسة كما رآه فى الشام أصبحت القاهرة مركزا فى عالم الشرق لمخلدات الآثار الفنية الاسلامية . وحسبنا أن نذكر جوامع السلطان حسن وبرقوق والناصر وقلاوون الخ . فنجدها تختلف اختلافا بينا من حيث نظام الجوامع التى كانت موجودة وعلى الأخص من ناحية العمارة وهى لم تسند على الأغراض الدينية كالجوامع الأخرى لكنها جمعت بين الصلاة والعلم وأخذت طريقتها وشكلها من الناحية المعمارية .

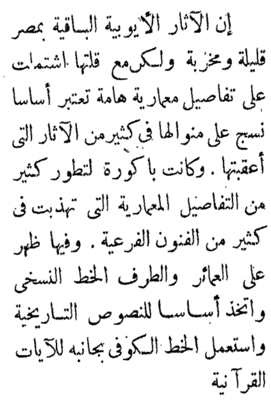
فبدلا من الصحن العريض المكشوف فى وسط الجامع حيث يجتمع المصلون انشىء مربع صغير وكان فى أغلب الأحيان مسقوفا بالخشب وأقيمت فى وسطه قبة أومنور — وبدلا من الجوانب المحيطة بالعقود رأينا فى أركان الجامع أربعة أجنحة مستقلة أو قاعات كبيرة ذات سقف واحد من الأحجار المعقودة وأحد هذه الأجنحة والذى يواجه الشرق هو الذى يتكون منه إيوان الصلاة وكان أكبر من الثلاثة الأخرى وفيه المحراب ومنصة الخطابة ودكة القراءة وكان كل جناح من هذه الأجنحة الأربعة لمذهب من المذاهب الشافعية والمالكية والحنفية والحنبلية. وفى كل منها اجتمع طلبة كل مذهب يتلقون على علماء الدين قواعد المذاهب الاسلامية وفى غالب الأحايين كان الأساتذة والطلبة يسكنون

فى هذه المدارس فى أماكن مخصصة لهــذا الغرض كما وجدت أيضا قاعات للمكتبة والمحاضرات وغيرها

والآن اتضحت لنا الوسيلة التى اتبعها صلاح الدين لمقاومة العقائد الدينية التى أحدثها الفاطميون فقد شيد عدداً كبيرا من الكليات أو المعاهد الدينية. وقد جلب معه هذه الفكرة من الشام حيث كان سيده السابق نور الدين أكثر تحمسا منه فى انشاء تلك الكليات للمذهب الحنفى فى دمشق وبعض المدن وأخذها نور الدين أيضا من آسيا عن السلطان السلجوقى (ملك شاه) الذى أمر وزيره المشهور (نظام الملك) صديق عمر الخيام بانشاء الكلية النظامية فى بغداد . وإذا كان نظام إدخال تلك المدارس إلى مصر طبيعيا أو ضروريا على يد تلميذه صلاح الدين فانها أحدثت بدورها تحولا فى شيئين هامين هما الثقافة والعمارة - فقد أزال العقائد الشيعية من أدمغة الجماهير وأوجد الكليات الجديدة التى نمت فيها التحولات الفكرية وحلت علاقة جديدة بين القاهرة والعالم الاسلامى

وكان يقوم مقام صلاح الدين أثناء غيابه عن القطر أخوه أو ابنه باشراف مستشاره القاضى الفاضل أحد علماء العرب من عسقلان . وكان أستاذا جليلا وظهرت آراؤه السديدة فى رسائله الغزيرة المادة وبفضله وفد على مدارس القاهرة عدد كبير من الطلبة الأجانب الذين قدموا من مدن فارس والهند والأندلس وكان من رجال السيف فى ذاك العصر من كانوا من حملة الأقلام وكانوا يترددون على المجامع العلمية ويتبادلون آراء الثقافة والشرع وكانت مجالس نور الدين لا تخلو من العلماء والشعراء والأدباء المقربين الى بلاطه . كما أن صــلاح الدين لم تخل مجالسه من مناقشات الدين والتشريع والقانون — وقال عنه الحكيم عبد اللطيف البغدادى « إن المقرب منه يستطيع أن يشعر بحبه ذلك الحب الممزوج بالهيبة ، كان مثقفا وديعاً ونبيلا فى أفكاره ... رأيته محوطه العلماء الذين يبحثون فى فنون العلوم وكان يصغى اليهم منشرحا كلما جاذبهم الحديث »

كان عصر الأيوبيين فى مصر ممتازاً بعناصر جديدة فى فن العمارة العسكرية وابتكار طراز المدرسة وشيــوع استعمال الحجارة المنحوتة فى المبانى وإدخال التلويح بالرخام فى المحراب (كما نشاهده فى جامع السلطان الصالح أيوب) وتطور زخرفة الجص واستخدام الزجاج الملون الخ .

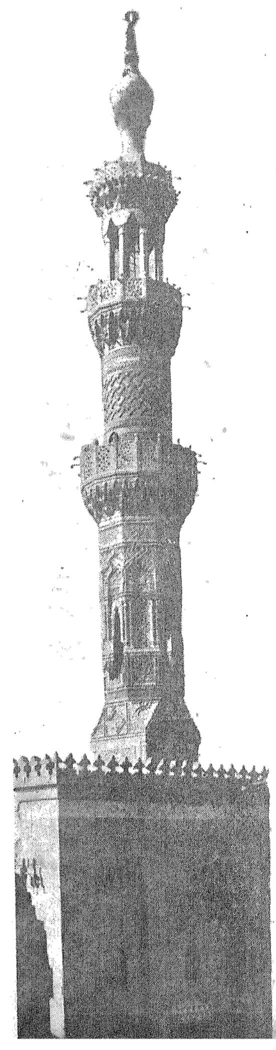


إن الآثار الأيوبية الباقية بمصر قليلة ومخربة ولكن مع قلتها اشتملت على تفاصيل معمارية هامة تعتبر أساسا نسج على منوالها في كثير من الآثار التى أعقبتها . وكانت باكورة لتطور كثير من التفاصيل المعمارية التى تهذبت فى كثير من الفنون الفرعية . وفيها ظهر على العمائر والطرف الخط النسخى واتخذ أساسا للنصوص التاريخية واستعمل الخط الكوفى بجانبه للآيات القرآنية

ومن مميزاتها تطور المنارة وظهور طرز مخصوص للقبة وتعدد حطات المقرنص وبناء الايوان مفرداً فوق القبور بدل القباب . وفيها كان ظهور الخوانق لأقامة الصوفية

وفى هذا العصر انصرف الفنانون عن رسوم الانسان والحيوانات وابدعوا فى الزخارف النباتية والهندسية وقد أفلحوا فى هذا الميدان حتى اصبحت العناصر الزخرفية التى ابتدعوها طابعا لفنونهم (١)

(١) حسن عبد الوهاب . راجع مقال العمارة الاسلامية فى العصر الايوبى — نشر بمجلة العمارة ٧ — ٨ عام ١٩٤٥ ص ٣٩٢ — ٤٠٧



مأذنة مسجد الامام الشافعي

قاهرة المماليك البحرية

رأينا فى الفصل السابق كيف جعل صلاح الدين مدينة القاهرة عاصمة جديرة بدولة عظيمة وحصنها بأعماله الدفاعية وبمنشئاته الدينية فتزعمت ثقافة العالم الاسلامى . ولا بأس من أن نذكر شيئا عن أخيه العادل سيف الدين الذى تولى العرش عام ٥٩٦ هـ بعد وفاة الملك العزيز يوسف ثم الملك المنصور . فقد خدم العادل أخاه صلاح الدين باخلاص مدة ربع قرن ثم تولى أمور الامبراطورية الأيوبية التي حاول أقاربه العديدون تقسيمها وأتفق مع الفرنجة على الصلح بشرط التنازل لهم عن ثغرين فى فلسطين وانسحابهم من مصر لكنهم لم ينقطعوا عن محاربته فى سوريا ومع كل هذه المعارك التى خسرها لم تقلل شيئا من هيبته .

لكن لسوء حظ العادل لم تنقذه درايته من النكبة التى حلت بمصر فى السنة التالية من حكمه فقد ابتليت مصر بانخفاض النيل والطاعون والمجاعة فى عامين متواليين وقد وصف حوادث السنتين الرحالة عبد اللطيف البغدادى(١) وكان يزور مصر فى ذلك الحين لحضور الدروس فى الأزهر فقال « يئس الناس من زيادة النيل وارتفعت الأسعار وانحطت البلاد وشعر أهلها بالبلاء وهاجروا من خشية الجوع وتحول أهل القرى الى أمهات البلاد واشتد بهم الجوع وأصيب كثيرون جدا بالموت واكلوا الميتات والجيف والكلاب والبعر والارواث ثم قعدوا على ذلك الى أن اكلوا صغار بنى آدم فكثيراً مايعثر عليهم ومعهم صغار مشويون او مطبوخون فيأمر صاحب الشرطة باحراق الفاعل من ذلك أن رأيت صغيراً مشويا فى قفة وقد أحضر الى دار الوالى ومعه رجل وامرأة زعم الناس انهما أبواه فأمر باحراقهما ولقد رأيت امرأة يسحبها الرعاع فى السوق وقد ظفروا بها وهى تحمل طفلا مشويا تأكل منه وأهل السوق ذاهلون عنها ومقبلون على شئونهم ولم

---

(١) صاحب كتاب الافادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر . وضعه مؤلفه حوالى سنة ١٢٠٠ للميلاد وهو يصف أحوال مصر فى القرون الوسطى

أو فهم من يعجب لذلك أو ينكره ورأيت قبل ذلك بيومين صبيا نحو الرهاق مشويا وقد أخذ به شابان أقاما بقتله وشيه واكل بعضه .

« وأحرق بمصر فى أيام يسيرة ثلاثون امرأة كل منهن تقر أنها أكلت جماعة فرأيت إمرأة قد أحضرت الى الوالى وفى عنقها طفل مشوى فضربت اكثر من مائتى سوط على أن تقر فلا تحير جوابا بل نجدها قد خرجت عن الطباع البشرية ثم ماتت .

« وكنت ترى أينما سرت جثث الموتى ملقاة فى الطرقات أو البيوت بدون دفن وانتشر الطاعون وكان متوسط موتاه فى الاسكندرية لا يقل عن سبعمائة نفس يوميا وكنت تشاهد الذئاب والضباع والنسور تحوم حول الجثث وتلتهمها على مرأى من المارة في المدينة وخارجها وفى طرق القوافل فلما نقص عدد السكان انخفض ايجار البيوت الى سبع ثمنها الأصلى »

وجاء « جون دى بريان » على رأس جيش كبير من الصليبيين وعسكروا تجاه فرع دمياط الغربى وظلوا فى مناوشاتهم مع المصريين ثلاث سنوات (١٢١٨—١٢٢١ م) ومن حسن حظ العادل انه مات فى بدء غارتهم فخلفه إبنه الملك الكامل (٦١٦—٦٣٥ ﻫ — ١٢١٨ — ١٢٣٧ م) فقاوم الصليبيين مدة وكانوا فى ذاك الوقت قد شددوا الحصار على دمياط براً وبحراً، وكانت سنة شديدة الوطأة على المسلمين . وفى يوم الثلاثاء ٢٥ شعبان سنة ٦١٦ ﻫ هجم الصليبيون على دمياط فاستولوا عليها وكانت مدة الحصار ١٦ شهرا و ٢٢ يوما فدخلوها فلما اتصل ذلك بالسلطان الكامل رحل بعد سقوط دمياط بيومين ونزل أمام طلخا ليمنع الصليبيين من التقدم داخل القطر . أما الفرنجة فحصنوا دمياط وجعلوا جامعها كنيسة على اسم القديسة مريم وواصلوا سيرهم الى المنصورة فى نحو مائتى ألف من المشاة وعشرة آلاف فارس فأمر الكامل بان ينادى بالمسلمين للجهاد من سائر أنحاء القطر فاجتمع أناس لا يقع لعددهم حصر وأتته النجدات من الشام يتقدمها الملك الأشرف موسى بن العادل والملك المعظم عيسى فتلقاهم الملك الكامل وأنزلهم بالمنصورة وتابع مجىء الملوك حتى بلغ عدد جيوش المسلمين نحو أربعين ألف فارس فحاصروا الصليبيين براً وبحرا حتى تضعضعت قواتهم ففاوضوا الملك الكامل فى الصلح ليخرجهم من بلاده وعرض

عليهم مناطق كبيرة فى فلسطين وبعدمفاوضات طويلة قبلوا الانسحاب من القطر المصرى بدون مقابل فسار الصليبيون إلى دمياط وسلموا الى المسلمين فى ١٩ رجب سنة ٦١٨ﻫ ودخل الملك الكامل دمياط باخوته وعساكره وكان يوم دخوله اليها يوم احتفال عظيم. ثم قصد المنصورة حيث عاش ليلة كانت من أحسن الليالى التى مرت لملك من الملوك . ثم عاد لمقر ملكه فى القاهرة وانتقل من دار الوزارة التى كانت الى ذلك العهد منزلا للخلفاء وسكن القلعة فى الجبل واليه يرجع الفضل فى إتمام بنائها وانشأ بها الدور السلطانية

وأهم أعماله العظيمة التى بقيت مدة طويلة دار الحديث الكاملية التى أنشأها فى سنة ٦٢٢ ﻫ بين القصرين وهى ثانى دار عملت للحديث فان أول من بنى دارا الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى بدمشق وكان أول من تولى تدريس الكاملية الحافظ أبو الخطاب عمر بن الحسين ثم أخوه عمر وما برحت فى يده أعيان الفقهاء الى أن كانت الحوادث والمحن منذ سنة ٨٠٦ فتلاشت كما تلاشى غيرها وكان الكامل يحضر مناقشات العلماء فى أمسيات أيام الثلاثاء

وكان بجانب النظام الجديد الذى أدخله الأيوبيون وخلفائهم من انشاء دولة ثانية واعادة الدين الاسلامى إلى تعاليمه الأولى انهم ابتكروا طريقة الحكم الاقطاعية التى سادت مصر مدة ستماية سنة فأثرت فى أحوالها الاجتماعية وفنونها وآدابها وظهرت القاهرة المادية . ويمكن القول إن عصر المماليك ابتدأ من أيام صلاح الدين

وتمت طريقة الحكم الاقطاعى فى مصر منذ وصل صلاح الدين إلى مصر مع جنوده الترك حتى عهد محمد على باشا فى القرن التاسع عشر وقد اتخذت مركزاً سامياً لها فى القاهرة لما ابتاع الملك الصالح بن العادل نحو الف مملوك وجعل منهم أمراء دولته وخاصة بطانته وبنى لهم قصوراً عظيمة متقنة البناء منيعة الجانب فى جزيرة الروضة قرب المقياس أمام مصر . وقد زادها مكانها الطبيعى مناعة وجمالا لأن النيل يتفرع هناك الى فرعين وكان يدعى عند نقطة تفرعه بالبحر لعظم اتساعه فسمى هؤلاء بالمماليك البحرية ومنها اسم دولتهم تمييزاً لها عن دولة المماليك الشراكسة

ومن ذلك الوقت حكموا مصر مدة قرن ونصف قرن . وبالرغم من ظلمهم وعسفهم ومكائدهم وقسوتهم كان حكم المماليك البحرية صفحة زاهرة فى تاريخ القاهرة إذ نجد منهم ميلا غريبا للفنون يحق لأى ذى عرش أن يفخر به على أقرانه ولقد أظهر هؤلاء المماليك فى لباسهم وفراشهم ومسكنهم وعمائرهم ذوقا سليما ورفاهية بالغة يصعب على أوربا الآن فى عصرها المحب للجمال والتأنق أن تدانيهم فيه

أنظر إلى ما فى القاهرة الآن من المساجد الكبرى التى تناطح مآذنها السحاب تجدها مبنية فى عصر المماليك ، أنظر إلى جوامع قلاوون والناصر ابن قلاوون والسلطان حسن وبرقوق والمؤيد والأشرف وقايتباى إلى قباب قبور المماليك بالصحراء ترى من جلال البناء وبديع العمارة ما لا يدانى وكل من بنى فى الجزء الأخير من القرن التاسع عشر هو تقليد وتشبيه بهاتيك العمائر التى تفخر بها القاهرة على مدن العالم

ولما مات الملك الصالح (٦٧٣ — ٦٤٧ ه) أثناء محاربة الصليبيين تواطأت احدى جواريه (وبعضهم يقول زوجته) واسمها شجرة الدر مع أحد الأمراء ورئيس الخصيان على مبايعة ابنها وكتمت أمر موت زوجها ووقفت فى جمهور الامراء والأعيان قائلة «ان السلطان يأمركم ان تبايعوا بعده ابنه الملك المعظم غياث الدين طوران شاه وقد عين الأمير فخر الدين اتابكا لادارة الأحكام » فبايعه جميع الأمراء وأدارت هى دفة الحكومة وأشرفت على تنظيم الجيش وأصدرت أوامرها إلى القواد والحكام وساسة البلاد بكفاءة عجيبة

وكان الصليبيون يتقدمون قاصدين المنصورة فلما بلغوها حاربوها محاربة قوية واستمر القتال بين الفريقين مدة طويلة وكادت الدائرة تدور على المسلمين بقيادة الامير فخر الدين لولا مماليك الملك الصالح فانهم دافعوا دفاعا شديداً وانتهت المعركة بتقهقر الصليبيين فتعقبهم المصريون حتى أدركوهم غربى فارسكور فاستلحموهم واثخنوهم قتلا وأسروا الملك لويس التاسع وكثيراً من ضباطه وكبار رجال جيشه

وانتهت الحملة الصليبية السابعة بموت السلطان المعظم آخر ملوك الأسرة الأيوبية وبوفاته انقضت دولتهم وماتت دولة المماليك الأولى

وتمكنت شجرة الدر من أن تقبض على زمام الأحكام بتواطئها مع « عز الدين ايبك » وكان من أعظم الأمراء والمماليك وأقواهم نفوذا . وبهذا التواطؤ لقبت بعصمة الدين أم خليل فى ١٠ صفر ٦٤٨ هـ - ولو أن خليلا هذا كان ميتا - ونقشت اسمها على النقود بالجملة الآتية « المستعصمة الصالحية ملكة المسلمين والدة المنصور خليل خليفة أمير المؤمنين » وعينت عز الدين اتابكا لتدبير المملكة وأخذت تتقرب إلى أرباب الدولة ووجهائها ولكن مساعيها لم تأت بفائدة . وانفذ السوريون الى الخليفة العباسى من يستفتونه فى أمر هذه الملكة فكتب إليهم يقول « من بغداد لأمراء مصر : اعلمونا ان كان مابقى عندكم فى مصر من الرجال من يصلح للسلطنة فنحن نرسل لكم من يصلح لها . اما سمعتم فى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : لا أفلح قوم ولوا أمرهم امرأة »

ولما استمسك مماليك مصر بهذه الفتوى عصوا شجرة الدر ونشأ خصام بين مماليك سوريا ومماليك مصر آل الى وقائع حربية تمكن فى أثنائها عز الدين ايبك من الاستقلال عن صديقته واكره الأمراء شجرة الدر على الاستقالة فاستقالت . ثم بويع عز الدين ايبك على مصر فى سنة ٦٤٧ هـ ولقب بالملك المعز الجاشنكير التركمانى الصالحى وتزوج بشجرة الدر ولم يكن يدرى أن شجرة الدر لاتزال واقفة له بالمرصاد فكانت تحول دون كثير من مقاصده ولم يكن يجسر على مقاومتها وفى الواقع كانت هى المدبرة الحقيقية لشئون الدولة . وأخيرا اشتعلت حسدا لما علمت أن زوجها يسعى للتزوج بابنة بدر الدين لؤلؤ ملك الموصل وخافت أن تحل هذه الزوجة الثانيه محلها فوافقت على الكيد به بعد أن تزوج الأميرة

وفى ذات يوم ضايقته فنزل من القلعة وهو غاضب فبعثت تتلطف به حتى عاد الى القلعة فلاقته وقامت اليه وقبلت يديه على غير عادة منها وكانت قد اضمرت له السوء فندبت له خمسة من الخدم الخصيان الروم وقالت لهم « إذا دخل الحمام فاقتلوه » فلما طلع الى القاعة اصطلح مع شجرة الدر وتراضيا ثم دخل الحمام فلما صار هو وشجرة الدر هناك دخل عليه أولئك الخدم وبأيديهم السيوف فقام ايبك وقبل يد شجرة الدر واستغاث بها فقالت للخدم اتركوه فاغلظ لها بعض

الخدم فى القول وقال لها « إن تركناه فلا يبقى عليك ولا علينا » فقتلوه فى الحمام خنقا ولم تجسر شجرة الدر على مزاولة الأحكام بنفسها خوفا من الايقاع بها فعرضت زمام الأحكام على أميرين فأبيا . وتولى من بعده ابنه نور الدين وكانت سنه ١٥ عاما . وأقام « ايبك » فى خلال حكمه بنايات عظيمة وفى جملتها مدرسة عظيمة دعاها المدرسة المعزية نسبة اليه بناها على ضفة النيل فى مصر القديمة وربط لها دخلا مخصوصا للنفقة عليها وكان أعدل من اقام من ملوك المماليك بقلعة الجبل

أما المنصور فكان أول عمل أقدم عليه أن قبض على قاتلة أبيه بعد ثلاثة أيام من توليه وعهد بها إلى نساء بيته فأماتوها فى البرج الأحمر بالقلعة ضربا بالقباقيب على رأسها وطرحوا جثتها فى خندق بالقلعة وكان ذلك على مرأى من « ضرتها » فأكلت الكلاب نصفها ودفن النصف الباقى فى مدفن السيدة نفيسة .
أما المنصور نور الدين فلم يحكم الا مدة سنتين وفى أيامه هجم « هولاكو » التترى على بغداد وقتل الخليفة المستعصم بالله وخرب عاصمته . فلما رأى رجال الدولة هذه الحال بحثوا عن رجل حازم يولوه أمورهم فعزلوا نور الدين وولوا مكانه سيف الدين قطز نائب السلطنة بمصر واتابك العساكر ولما تولى السلطنة لقب بالملك المظفر

وبدأ بذلك حكم المماليك البحرية باستثناء واحد من بيت صلاح الدين . ومن المدهش أن يتول حكم مصر من سنتى ٦٥٥ ﻫ و ٧٨٣ ﻫ (١٢٥٧ — ١٣٨١) بعد « ايبك » ثلاثة وعشرون سلطانا من المماليك البحرية الترك الذين جاءوا من بلاد القفجاق ومن هذا العدد اربعة فقط حكموا امددا طويلة مجموعها أكثر من نصف مدد حكم الباقين وهؤلاء هم بيبرس وقلاوون والناصر وحسن . ولم يكن السلطان أكثر من زعيم للماليك ينتخبه زملاؤه . ولما انتخب لاشين للسلطنة بعد مؤامرة دبرها الأمراء تقدموا الى ركابه مقدمين له الولاء والاخلاص وجعلوه يقسم مرتين أن يبقى واحدا مثلهم وأن يعمل بنصحهم ولا يفضل أبدا عليهم مماليكه ولما حنث بقسمه قتلوه . وكان من الكفاية النادرة أن يبقى أحد المماليك سلطانا لمدة طويلة كبيبرس مثلا وكان ذلك راجعا لهيبته وفتوحاته فى سوريا

ويجب علينا أن نوفى المماليك حقهم فقد كانوا على شىء كبير من الشجاعة

الفائقة فقدقاوموا أشد الغزوات مناعة وردوا جحافل هولاكو ملك المغول خليفة جنكيز خان. وكان المغول قد انتشروا فى كل آسيا الشمالية — ردهم المصريون على أعقابهم أربع مرات. وقد لقى قطز أول صدماتهم وكان هولاكو قد أرسل رسله للقاهرة ومعهم منشوراً يطلب فيه من المماليك أن يستسلموا فلم يكن من قطز إلا أن قطع رؤوسهم وعلقها على باب زويلة وسار يتقدم جيوشه التى انتصرت على الصليبيين حتى وصل الى الشام وما كاد الجيشان يلتقيان حتى اتصل بهولاكو خبر موت أبيه منجوخان ملك التتر فاضطر الى العودة حالا وترك جيشه لمقاتلة المصريين. فالتقى الجيشان فى عين الجالوت ٦٥٨ ه وانتصر المصريون انتصارا باهرا وغنموا غنائم كبيرة وطهروا البلاد من المغول وفى أثناء عودة الملك المظفر « قطز الى » القاهرة تربص له بعض رجاله وقتلوه

الظاهر بيبرس

تولى العرش من بعده الظاهر بيبرس البندقدارى (٦٥٨ — ٦٧٦ ه) الذى هزم المغول فى بيرة فى عام (٦٧١ ه) ثم قصد الكرك وقتل سبعة آلاف من أعدائه واستولى على العرش السلجوقى. وجاء قلاوون من بعده (٦٧٨—٦٨٩ه) فغزا المغول مرة اخرى فى عام ٦٧٩ ه وكان قد جمع لجيشه الوف المماليك من رجال حرسه والتركمان والبدو وعرب الفرات والحجاز وقد انضم اليه فى تلك الحملة صاحب حماة وكان يحكمها أحد أفراد أسرة صلاح الدين وانتصر على أعدائه فى موقعة حمص وبذلك حرر الشام مرة اخرى من شر المغول لكنهم عادوا اليها مرة ثانية فى أثناء حكم ابنه الناصر فجرد اليهم فى عام (٧٠٠ ه) جيشاً جراراً وأسرع ليلقاهم فى حمص فتقهقر الناصر ثم جمع رجاله ودارت الحرب بين الفريقين فغلب المصريون بادىء الأمر ثم ارتدوا على صفوف الأعداء كالسيل ففرقوا جموعهم وتطهرت الشام منهم وعرفت هذه المعركة بمرج الصفر وكان من الأمراء الذين أظهروا بسالة فائقة فى تلك المعركة بيبرس الجاشنكير الذى أصبح فيما بعد سلطانا. ثم عاد الملك الناصر الى القاهرة ظافراً ودخلها من باب النصر باحتفال عظيم وقد سبقه الرسل يحملون أنباء انتصاراته. وتناقش الأمراء فى إقامة الزينات الفخمة والحدائق المنيفة على جانبى الطرق وحرّم أهل الصناعات من عمل أى شىء خلا ما تعلق منها بحفلات النصر وفرشت الطرقات

بالسجاجيد الحريرية فلما وصل السلطان أظهر سروره بما أبداه الأمراء وعرض أسرى المغول فى سلاسلهم

ولم يكن المغول وحدهم هم الذين ذاقوا ألم السيف المصري فلقد أعان بيبرس الحرب المقدسة لمدة عشر سنوات فى فلسطين حيث تحالف الفرنجة مع المغول فاستولى على قيسارية وأرسوف فى عام ٦٤٣ هـ (١٢٦٥ م) وأذل مدافعيها من المسيحيين لما جلبهم معه إلى القاهرة فقد عرضهم بأعلامهم المنكسة ثم صمم بيبرس على قطع علاقة الصليبيين بتلك البلاد نهائيا فأستولى على يافا فى عام ٦٦٦هـ وسلمت بلفورت وأنطاكيا عاصمة سوريا الشمالية التى أحرقت عن آخرها وبالتدريج استولى على حصون الصليبيين وقلاعهم فى بقراس وصافيتا .. الخ ثم قصد مكة مارا بحلب وزار قبر ابراهيم الخليل وبيت المقدس ثم عاد إلى مصر وقد أتم عمله العسكرى والدينى معا وأستولى الأسطول المصرى على قبرص

وقبل وفاة بيبرس كانت أوامره تصدر وتطاع من بيراموس والفرات إلى جنوب بلاد العرب حتى شلال النيل الرابع وكانت المدن المقدسة مكة والمدينة وبيت المقدس فى قبضته ووضع يده على سواكن وعيذاب على البحر الأحمر وخضع له عرب الصحراء وبرابرة الشمال ومغول الفولجا واصبح خانهم حليفا له وأرسل ابنته للزواج منه وتبادل مفوضيه مع الامبراطورية الشرقية وبنى مسجدا فى الاستانة واتصلت تجارة المصريين بصقلية واسبانيا وفرنسا . ومن اعماله اعادته الخلافة العباسية التى قضى عليها المغول عام ١٢٥٨ م واستقدم الامام أحمد ابن الخليفة الظاهر من ذرية بنى العباس فى موكب عظيم وأعلنه خليفة للمسلمين وأسكنه قصراً عظيما بالقلعة وظل الخليفة العباسى فى ظل سلطان مصر حتى استولى العثمانيون على البلاد ووضعوا أيديهم على الخلافة فى ١٥٣٨

ومن أخلد المماليك البحرية أثرا الظاهر بيبرس فقد كان بيبرس قائداً ماهرا وسياسياً ذكيا ومصلحاً بعيد النظر وإداريا عادلا . كان يشرف على أمور البلاد بنشاط ويراقب عماله رقابة شديدة وقد قضى أكثر سنى حكمه فى ميادين القتال خارج مصر وكان يمضى أشهر الشتاء فى القاهرة مع جنوده . وكان ينتظر فرصة وجوده فى مصر فيعمل على اصلاحها وتحسين عاصمتها . وبنى فى عام

٦٦١ ﻫ دار العدل القديمة تحت القلعة وصار يجلس بها لعرض العساكر فى يومى الاثنين والخميس وكان ينظر فى أمر المظلومين بنفسه فاذا كان لأحد مظلمة أتى اليه رأساً وشكا للسلطان وهو يبت فيها وقد عمر المدارس وأصلح المساجد وبنى مسجده العظيم المعروف بجامع الظاهر وحفر خليج الاسكندرية القديم وباشره العمل فيه بنفسه وجدد الجامع الأزهر وأعاد اليه الخطبة وبنى القصر الأبلق فى دمشق ومن آثاره قناطر السباع التى أنشأها قرب ميدان الجبل والبرج الكبير فى القلعة وحفر الترع وأنشأ الطرق وحصن الاسكندرية وحمى مصب النيل ضد الغزوات الخارجية وأعاد للأسطول المصرى سابق ايامه فبنى اربعين سفينة حربية واحتفظ بجيش منظم عدده ١٢٠٠٠ جندى وكانت حكومته محترمة عادلة واستطاع التغلب على مجاعة سنة ٦٦٣ ﻫ فى الحال بقوانين أصدرها وكلف امراءه تنفيذها بحذافيرها ومنع شرب الخمر وتدخين الحشيش فى جميع أنحاء الدولة ونهض بأحوال البلاد الصحية ومنع الحانات وبيوت الدعارة وكان محباً لركوب الخيل ورمى النبال يمضى فيها نهاره ويقضى ليله فى العمل الرسمى . وأنشأ ميدانا دعاه ميدان القبق أو الميدان الأسود للعب وكان يحث النـاس على لعب الرمح ورمى النشاب وغيرها من الألعاب الحربية وكان يقوم بنفقات جميع هذه الأعمال بدون عسف أو إرهاق . ولا غرو فانه كان محبوباً من رعيته بعد ان رأوه الحاكم العادل والقائد الشجاع وتذكره العامة إلى اليوم فى القصة الشعبية المشهورة

ويعتبر بيبرس المؤسس الحقيقى لقوة المماليك والمنظم لسياستهم فى ادارة الحكومة ومنذ اليوم الذى قاد فيه بيبرس مماليكه البحرية فى معركة المنصورة وتغلبه على « لويس » ملك فرنسا سمت مكانته وتقرب الى السلطان فمنحه حق الاشراف على الجيش وتعبئة الجند وساعده فى وضع نظام لتوزيع السلطة بين الأمراء . واتبع خلفاؤه نفس السياسة الخارجية التى كانت لمصر فى عهده وكان بلاطه مثالا ناطقاً للنظام وحسن الرونق لمن تولى العرش بعده . فقد جمع السلطان فى حاشيته كبار ضبـاطه ورجال دولته وموظفى حاشيته — ومن أصحاب تلك الوظائف نذكر الوالى — واتابك العساكر (قائد الجيش) وقائد الحرس وأمير السـلاح وأمير الجياد وحامل الكأس وأمير الخزانة وأمير الصعيد وامير الصولجان وامراء الطبول وكان يتبع هؤلاء أربعون من الجند لهم فرقة موسيقى

مؤلفة من ستة عشر عازفا . وكانت الحاشية تجمع عدداً وفيرا من الخصيان والياوران والأمناء والكتاب وأطباء القصور والقضاة والفقهاء وغيرهم وكان السلطان يوزع على هؤلاء الأمراء إقطاعيات واسعة ويمنحهم الهبات العظيمة والمرتبات الضخمة فكان أمير الطبول مثلا يتناول مرتبا سنويا كبيرا ويمكن تقدير المصروفات ببيت المال بما كان يصرفه يوميا . فقد كان يستهلك يوميا مالا يقل عن ٢٠٫٠٠٠ رطل من أنواع الأطعمة . وبلغت تكاليف الخضر واللحم فى أيام الناصر من ثمانمائة إلى مئتين وألف من الجنيهات كل يوم

وكان لكبار رجال القصر وضباط الجيش المقام الأول فى الدولة وهم الذين يجيء ذكرهم بعد السلطان. لذلك كان كل واحد منهم يستطيع ان يخلف السلطان بعد بوفاته اذا تغلب على منافسيه

غير أن عصر المماليك كان يمتاز بكثرة المشاحنات والمشاغبات الداخلية وكانت حوادث السلب والنهب تسلية المماليك وأتباعهم يلجأون اليها كضرب من ضروب الألعاب الرياضية المسلية . يصوبون سهامهم وحرابهم من نوافذ مشربياتهم على أعدائهم فى المنازل المقابلة أو على السائرين فى الطرقات فتبتدىء المعركة وتسمع حوافر خيلهم ووقع أسلحتهم وأنين جرحاهم فيسرع أصحاب المتاجر إلى اغلاق أبواب حوانيتهم والهرب بحياتهم خلف أبوابها الضخمة

تلك كانت حياة القاهرة ايام حكم المماليك

ولم يتمسك المماليك بنظام الحكم الوراثى دائما فقد تولى خليل سلطنة مصر بعد موت أبيه المنصور قلاوون (٦٨٩ — ٦٩٣هـ) وتبعه الملك الأشرف محمد الملقب بالملك الناصر للمرة الأولى فى عام ٦٩٣هـ (١٢٩٣م) ثم للمرة الثانية فى عام ٦٩٨ هـ (١٢٩٩م) بعد موت القاهر ولم يلبث أن خلعه بعض الامراء المماليك فترك القاهرة متظاهرا بالحج وسار مع رجاله إلى الكرك فاستولى عليها وحصن المدينة ثم بعث بالختم السلطانى الى المماليك ينبئهم بتنازله ويفوضهم تولية من أرادوا فبايعوا الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير (٧٠٨ — ٧٠٩ هـ) فى ٢٥ رمضان ولقبوه بالملك المظفر . وفى عهده قدم الصليبيون لغزو دمياط

ومن آثاره فى القاهرة جامعه المعروف بجامع جاشنكير بالجمالية وقد بنى على طراز جامع السلطان حسن

وكان الملك الناصر قد ندم على تنازله عن كرسى السلطنة فجعل يترقب فرصة لاستعادة عرشه وكان قد أرسل إلى بعض زعماء المماليك ليدبروا مؤامرة لقلب جاشنكير فنجحوا فى عملهم فتنازل بيبرس وخرج إلى مصر العليـــا طامعا فى الاستيلاء عليها وفى غداة خروجه من القاهرة دخلها الملك الناصر باحتفال عظيم (٧٠٩ — ٧٤١ هـ ١٣٠١ — ١٣٤١ م) للمرة الثالثة وكان ذلك فى يوم عيـــد رمضان فزاد العيد بهجة وبويع بالسلطنة وبايعه الأمراء فى الايوان الأشرفى .

وقد تولى حكم البلاد واحداً وثلاثين عاما وكان خلفاؤه على ضعف شديد فلم يديروا الحكم إلا إسميا فقط وقد رأينا أن بيت قلاوون حكم مصر منذ عام ١٧٨ هـ إلى عام ٧٨٤ هـ (١٢٧٩ — ١٣٨٢ م) باستثناء ست أو سبع سنوات تخللت تلك المدة الطويلة . وكان مؤسس ذلك البيت السلطان قلاوون حاكما شجاعا وسياسيا حازما ومشجعا كبيراً للتجارة وقد وصلت المنتجات المصرية فى أيامه إلى الهند والصين وعمل ما فى طاقته لتنمية التجارة فى داخل القطر وكان على مثال أبناء جنسه المماليك محبا للبناء . وقد يكون عجيباً أن نرى رجال الحروب يهتمون اهتماما عظيما باحياء فن العمارة فى عصورهم فالملكة شجرة الدر شيدت فى عام (١٢٥٠م) ذلك المسجد الذى كان مدفنا لزوجها الصالح والذى كان يشغل القصر الفاطمى القديم فى بين القصرين وأسس بيبرس كليته فى عام ١٢٦٢ على جزء من أجزاء القصر المسمى بقاعة الفسطاط وبنى جامعاً خارج باب الفتوح عام (١٢٦٧ — ١٢٦٩ م) وهو الجـــامع المعروف اليوم بجامع الظاهر . وجاء قلاوون فبنى المستشفى الشهيرة بالبيمارستان المنصورى بخط بين القصرين (شارع النحاسين) وقد بناه خارج جامعه ومقبرته . وكان يحيط بناء البيمارستان قاعات الدرس ومكتبة وحمامات وصيدلية ... الخ وكانت هناك فرقة موسيقية لتسلية المرضى وكان قلاوون يقرأ القرآن الكريم ويربى اليتامى من أولاد الفقراء مجانا فى المدرسة المجاورة للمستشفى ولا يزال الناس إلى يومنا هذا يزورون قبر ذلك السلطان الصالح وقبر ابنه الناصر يلتمسون الشفاء

ويعتبر عصر الســـلطان الناصر من العصور الذهبية فى مصر من الناحية

المعمارية وكان على صفات خلقية ممتازة قوى الارادة مستبدا يسيطر وحده على حكم البلاد . وكان صغير الجسم أعرجا وفى إحدى عينيه مرض لكن أخلاقه القوية وثقافته المهذبة وتفكيره السامى ونشاطه الدائم وذوقه الجميل — كل هذه المزايا جعلت عصره من العصور الساكنة التى تمتعت بها مصر . وقد ارتقت حاشيته ومجلس بلاطه عن أيام أسلافه ـ وبالاختصار يمكن أن نعتبر الملك الناصر من الشخصيات البارزة فى أثناء القرون الوسطى

سار على منوال بيبرس وقلاوون واحتفظ بتحالف التتار وتزوج من ابنة أزبك خان (السيدة طلبية) فى سنة ٧٢٠ هـ ولا تزال مقبرتها مع أحد زوجاته إلى الآن فى القرافة الشرقية وكانت حدود أمبراطوريته تمتـــد من بيراموس والفرات إلى سواكن وأسوان

وارتبط بعلاقات سياسية لم تحددها تحالفات رسمية مع امبراطور دولة الروم الشرقية وملك البلغار وملوك الحبشة وبلاد العرب . وقد زوج بناته لاحدى عشر من ابناء الأمراء المصريين وكانت حفلة العرس الواحدة تتكلف ثروة وافرة ولم يكن الناصر سياسياً فقط بل كان فلاحا ومدربا ورياضيا فكان يدفع للجواد الواحد من أربعمائة إلى الف جنيه وكان ملما بتاريخ كل جياده وأثمانها وأعمارها وخصالها ومزياها .. الخ وكان فى مزرعته ثلاثون الفا من رؤوس الغنم وكان محبا للصيد وقد شاهده الرحالة ابن بطوطة فى عام ١٣٢٦ م فوصفه بقوله «خلق نبيل وفضائل سامية» وكان محبا لخير الحجاج يجلس مرتين فى الأسبوع لينظر بنفسه شكاوى الناس ونمت ثروة البلاد فى أيامه وأزال الضرائب الزائدة على الحاجة وأمر بمسح الأراضى الزراعية وكان يعاقب أصحاب مطاحن الغلال وتجار الخبز إذا تجاوزوا فى أسعارهم . وكان للمدارس التى أنشأها صلاح الدين وحلفاؤه تأثير كثير فى تهذيب الروح الدينية وكان نفوذ هذه المدارس يزداد بفضل علمائها وأساتذتها وقد حدثت فى عام ١٣٢١ م سلسلة من حوادث الاضطهادات ضد المسيحيين لأن بعض رجال الناصر كانوا يعملون فى حفر بركة اسمها « بركة الناصر » بالقرب من قنطرة السبع « غرب حى باب اللوق » فتحولوا قليلا بمعاولهم وخربوا جزءا من كنيسة الزهور وكان الناصر قد أمرهم باحترامها فاندفع الناس

نحو الكنيسة بدون علم رجال الحكومة وخربوها عن اخرها ثم قصدوا كنيسة « سنت مينا » بالحمراء ونهبوها ثم عملوا العمل نفسه بكنيسة العذارى (بالقرب من السبع سقايات) وطردوا منها الراهبات وغنموا ما وصلت اليه ايديهم ثم أحرقوها . فلما وصل إلى مسامع السلطان ماحدث أمر جنوده فى الحال بكبح جماح الغوغاء . ولكن وصلته أخبار أخرى بتدمير كنيستين فى حى زويلة وحى الروم بينما كانت الجموع الغفيرة من العامة تهاجم كنيسة المعلقة فى قلعة باب البوق وبينما كان هؤلاء يبدأون أعمالهم فاجأتهم جنود السلطان وحموا الكنيسة

لم ينقض شهر على تلك الحركة حتى ابتليت القاهرة بحرائق متوالية فكان حادث الحريق يتلو الآخر فى كل حى من أحيائها وصعد الناس إلى مآذن المساجد يسألون الله عز وجل المعونة . وبذلت الجهود الجبارة لكبح النيران فى أماكنها واستخدم لذلك جميع السقائين تحت أمرة أربعة وعشرون من كبار الأمراء فكانوا ينقلون المياه من الآبار والصهاريج والحمامات لمنع انتقال النار وكنت ترى الشارع الموصل من حى الديلم إلى باب زويلة كأنه نهر يفيض بمياهه المتدفقة وكان لا ينقضى يوم إلا ويحدث فيه حريق يأكل مئات البيوت والحوانيت . وقد لوحظ أن اكثر هذه الحرائق موجهة إلى الجوامع ودلت الحرائق على أنها من فعل فاعل وذلك من قطع الأقمشة المبتلة بالزيت والقطران والنفط التى عثر عليها وقبض على مسيحى فى جامع الظاهر وفى يده كميات من النفط والقطران يحاول اشعالها واعترف بأن تلك الحراق مدبرة وهى من عمل المسيحيين انتقاما لما فعله المسلمون بتخريب كنائسهم ولما دعى بطريق القبط لمعرفة رايه استهجن فعال طائفته ونهاهم عنها فاعيد الى بيته معززاً مكرما بين صفين من رجال حرس السلطان ولولا الجند لانتقم منه الجمهور الهائج الذى عجب كيف أن بطريق القبط يعود فى مثل هذا الموكب العظيم

واضطر السلطان أن يقاوم روح الجمهور فى القاهرة ويكبح جماح عاطفته الهائجة فارسل جنوده فى جميع أنحاء القاهرة لتشتيت شمل جماعاتهم بكل الوسائل وقبض فى يوم واحد على مائتين من المشاغبين بالقرب من النيل ومثلوا بين يدى السلطان نخيرهم بين قطع ايديهم أو شنقهم . وعبثا حاول الأمراء أن يتوسطوا

لهم لتخفيف حكمه فكان يرفض وساطتهم لكى يكونوا عبرة لغيرهم فنصبت المشانق على جانبى الطريق المؤدى من باب زويلة إلى ميدان الرميلة وعلق كثيرون من المسلمين من أيديهم ليكونوا عبرة لغيرهم

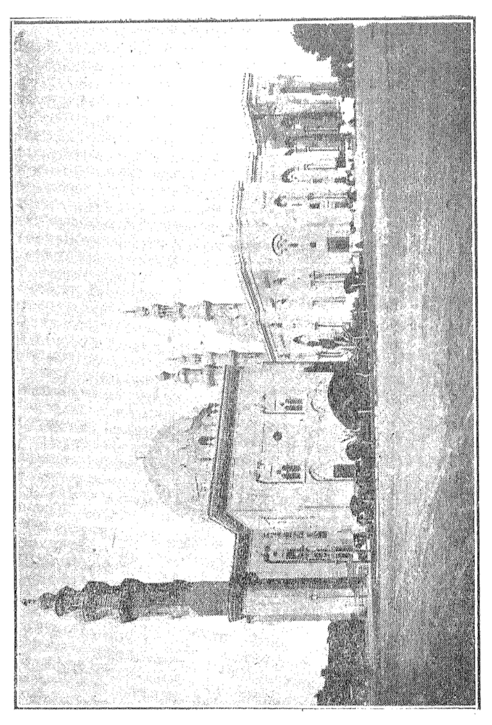
ولم يسبق أن تمتع البناء أو المعمار بموسم ناجح موفق كالفترة التى جاءت فى أثناء حكم الناصر وكان السلطان قدوة لرعيته يرعى العلماء كما كان صديقا حميما للمؤرخ العلامة أبى الفداء الذى أعاد اليه أمارة حماة والتى كانت وقفا على أفراد أسرته منذ حكم أخى صلاح الدين وامتاز عهده بالانتاج الفنى السامى وتدل المبالغ العظيمة التى صرفها السلطان وامراؤه على المبانى والأعمال الأثرية على ما كانت عليه مصر وقتذاك من الغنى والثروة وقد احتفظ ببعض قطع أثاث الناصر منها مائدة من النحاس المطعم بالفضة فى دار الآثار العربية . وأهم مبانيه العظيمة الأخرى مدرسة بين القصرين (١٣٠٤ م) المجاورة للبيمارستان المشهورة ببابها القوطى الذى جلبه معه أخوه خليل من عكاء وكذلك الجامع العتيق بالقلعة (١٣١٨ م) وكلا الأثرين يدلان على جمال ذوقه ولو أنهما لا ينبئان الآن على ما كانا عليه من بهاء ورونق ذاك الوقت ـ فان القبة العظيمة التى اعتلت جامع القلعة سقطت واختفت قطع القاشانى الرشيقة التى كانت تتحلى بها القبلة واندثر النحاس الذى أحاط بمصلى السلطان « مقصورته » ولا يزال الى الآن بعض المناور السماوية التى تحيط به على جدران الجامع ولكن ذهب زجاجها الملون البديع وتدل بقايا الأعمدة الجرانيتية العشرة وقطع الفسيفساء الملصوقة على حائط الجامع القبلى وقليل من الآثار الأخرى على مجده السالف ـ وأهم ما يسترعى النظر فى هذا المسجد مأذنته المغطاة بالبلاط الأخضر التترى ومما يؤسف له أن ذلك الجامع الجميل أسىء استخدامه فكان سجناً فى بعض السنين ـ وكان فى القلعة بهو الأعمدة وهو أحد أجزاء القصر الأبلق الذى شيده فى عهده الزاهر . وفى أيامه زيدت أجزاء كثيرة فى القلعة كما أن مجرى العيون التى كانت تصل المياه من النيل إلى القلعة من أعمال الناصر وبعضها من أعمال الأيوبيين وقد شيد الناصر جامعا بجانب مشهد السيدة نفيسة وكذلك قبة النصر بالقرب من التل الاحمر وزوايا أخرى والناس فى كل عصر على دين ملوكهم فكان الأمراء يتبعون سنة سلاطينهم فى بناء الجوامع

والمدارس والمقابر ، ولقد رأى الرحالة ابن بطوطه الذى زار القاهرة فى عام ١٣٢٦ كيف كان تنافس أمراء مصر على تخليد اسمائهم فشيدوا الخوانق والتكايا العظيمة ومنها خانقاه بيبرس الجاشنكير ولا تزال باقية وهو يقول انها عجيبة وصيدليتها المجهزة بالعقاقير الوفيرة وكان المبلغ الذى يصرف يوميا وقد قدره الرحالة بألف دينار مبلغا ضخماً ، وبلغ عدد المساجد والمدارس التى شيدت بين عامى (١٣٢٠ — ١٣٦٠ م) اربعين ، وهذا العدد أكثر من ربع ما شيد منها منذ فتح العرب مصر حتى أيام المقريزى (القرن الخامس عشر) ولا يزال الكثير منها باقيا الى اليوم وهو يبين ما كان عليه المماليك من مجد وأبهة ، ومن هذه الجوامع — جامع الأمير حسين (٩١٩ هـ — ١٣١٩ م) وجامع الماس (٧٣٠ هـ) وقوسون (٧٣٠هـ) وبشتاك (٧٣٦هـ) والتنبجا المردانى (٧٤٠هـ) واسلام (٧٤٦) وآق سنقر (٧٤٧) وارغون الاسماعيلى (٨٤٨) ومنجق (٤٥٠) وشيخون (٧٥٠) ومن المدارس مدرسة الملك (٧١٩)وسنجر الجاولى (٧٢٣) واحمد المهمندار (٧٢٥) واقبجا(٧٣٤هـ)وضرغتمش (٥٧٨) ومن الخانقات خانقاه قوسون (٧٣٦) والجاولى (٧٢٣هـ) وشيخون (٧٥٦) — وتكمل هذه القائمة بجامع السلطان حسن المواجه للقلعة (٧٥٧—٧٦٠هـ) وهو أجمل ماتركة المماليك وأفخم مساجدهم القاهرية

ولوصف مساجد العصر الناصرى يجب أن يفرد الانسان سفرا خاصا . حقيقة ان بعضها قد عمه الخراب الا أن مخلفاتها تدل على بهائها السابق . ويوجد عدد ليس بالقليل جددت عمارته وأعيدت الى أصلها كجامع آق سنقر والجامع الاسماعيلى فقد جدد الأول ابراهيم أغا فى سنة ١٦٥٢ وجدد الآخر أحد أمراء الأسرة الحاكمة . وهذه الجوامع المذكورة تختلف كلها فى تفاصيل الهندسة وزخرفتها المعمارية وليس من السهل أن يوضع لها وصف شامل واحد . وكل جامع أو مدرسة أو خانقاة مما ذكرتها تستحق وصفا مستقلا ودرساً خاصا . ولكن قد تتفق كلها فى ظاهرة أو مزية واحدة لأن الجوامع القديمة تكاد تشترك فى بساطتها الخارجية من حيث الزخرفة وفى جوامع المماليك ترى اقتباسا

من فن مبانيهم التى شيدوها فى فلسطين وسوريا وهو فن يمتاز بواجهة (Facade) رائعة — تشمل الأفاريز والكرانيش والتيجان وغيرها من مميزات الزخرفة المعمارية والظاهرة الثانية هى المأذنة التى أصبحت أرق وأرشق مما كانت عليه فتجدها قد شيدت من الحجر المتقن النحت كما اتقن ذوق تصميمها وتراها تتحول من قاعدة مربعة الى أخرى مثمنة فاسطوانية وهى ذات مسحة أخاذة وتزيدها شرفاتها الدائرة حول خصرها فتنة . أما الظاهرة الثالثة فاتخاذ القباب الكبيرة والقبيبات الصغيرة فوق المحراب أو المدخل — وهذه مزية أخذ بها أكثر مهندسى جوامع العصر الناصرى. ونحن لا ننكر - فضل البعض فى تصميمهم القبة فى أثناء العصر الأيوبى - ونلاحظ وجود القبة فى الجامع الشافعى بالقرافة وفى منشئات أيوبية أخرى

وليس هناك شك فى أن المماليك أجادوا بناء القباب واشتملت أكثر مساجدهم وكلياتهم على مقابر مشيديها - وكان القبر فى كثير من الأحيان متصلا بالبناء الأصلى تعد مظلة فوق الضريح . وقد بدأ فى عصر المماليك مشروع تجميل القاهرة بتلك المنشئات الرائعة الجمال والسامية الحسن التى لا تزال تسود فن العمارة فى العالم وتطورت القبة البسيطة الى قبة أخرى تعلوها قبيبة مقسمة الى شقق ثم الى القبة المزخرفة من الخارج بنقوش عربية أو هندسية متداخلة وكلها منحوتة نحتا على الحجر وأكثر هذه النقوش المزخرفة اتقاناً مبانى السلاطين الشراكسة فى القرن الخامس عشر وأعود ثانية لأقول أنه من أبنية العصر الناصرى اتخذت الوجهات المتقنة الصنع من حجر النحت غالبا من لونين واستعمل فيها زيادة فى الرونق الرخام الأبيض والأسود وفى أعلى الوجهات ابتكر طراز للكتابة ينتهى بافريز تعاوه الشرفات وفى داخل الجوامع ذوات الأيوانات استعملت عمد الرخام دعائم دون غيرها وكانت تؤخذ من العمائر القديمة . وأما السقوف فكانت تعمل من الخشب وتنقش العوارض التى تحملها نقشا جميلا محلى بالذهب وتعمل وزرات الجدران والكل منسجم للغاية ويزيد البناء طلاوة . وماقلناه عن الجوامع يصدق على سائر الأبنية التي ليست لدينا منها عمارة كاملة ولكن الأجزاء الباقية



جامع السلطان حسن بالقلعة (٧٥٧ — ٧٦٤ هـ — ١٣٥٦ — ١٣٦٣ م)

(تصوير الاستاذ حسن عبد الوهاب)

منها تمكنا من تصور تأليف المجموع وتثبت لنا عظم العمارات التى شيدت فى تلك الأيام

وكمثال واضح لطراز المبانى فى القرن الرابع عشر لا أجد خيرا من ذلك البناء الرائع — جامع السلطان حسن — فهو يضم مميزات العمارة فى العصر الناصرى وكان السلطان حسن قد اعتلى العرش للمرة الأولى فى سنة (٧٤٨ هـ — ١٣٤٧م) وعزله أمراؤه فى عام ٧٥٢ هجرية ولكنه استطاع خلع أخيه الصالح واستعاد عرشه عام (٧٥٥ — ٧٦٢ هـ) (١٣٥٤ — ١٣٦١ م) ولم يكن محبوبا أو محترما وعمله الوحيد الطيب الذى تركه بعد موته هو ذلك الجامع العظيم المعروف بجامع السلطان حسن أو بجامع الحسينية وهو أجمل جوامع القاهرة. وكان موضعه بيت الأمير يلبغا اليحياوى وابتدأ السلطان عمارته فى سنة سبع وخمسين وسبعمائة وأوسع دوره وعمله فى أكبر قالب وأحسن هندام وأضخم شكل فلا يعرف فى بلاد الاسلام معبد من معابد المسلمين يحكى هـذا الجامع أقيمت العمارة فيه مدة ثلاث سنوات بدون عطلة يوم واحد وأرصد لمصروفه كل يوم عشرون ألف درهم (ستمائة جنيه) ولقد قيل انه صرف على القالب الذى بنى عليه عقد الايوان الكبير مائة ألف درهم وذراع هذا الايوان خمس وستون ذراعا فى مثلها ويقال انه أكبر من ايوان كسرى بالمدائن فى العراق بخمسة أذرع وقبته العظيمة لم يبن بديار مصر والشام والعراق والمغرب واليمن مثلها وكذلك المنبر الرخامى الذى لا نظير له والبوابة العظيمة وقد عزم السلطان على أن يبنى أربع منائر يؤذن عليها فتمت ثلاث منها الى أن كان يوم السبت السادس من شهر ربيع الآخر سنة ٧٦٢ هـ فسقطت المنارة القريبة من المدخل فهلك تحتها نحو ثلثمائة نفس فأبطل السلطان بناء هذه المنارة ونظيرتها ولما سقطت المنارة لهجت عامة مصر والقاهرة بأن ذلك منذر بزوال الدولة فقال الشيخ بهاء الدين ابو حامد بن على بن محمد السبكى فى سقوطها:

أبشر فسعدك يا سلطان مصر أتى ... بشيره بمقال سار كالمثل
ان المنارة لم تسقط لمنقصة ... لكن لسر خفى قد تبين لى
من تحتها قرىء القرآن فاستمعت ... فالوجد فى الحال أداها الى الميل

واتفق أن قتل السلطان بمكيدة من كبار امرائه بعد سقوط المنارة بثلاثة وثلاثين يوما ومات قبل أن يتم رخام هذا الجامع فأتمه من بعده بشير الجمدار وقد قيل إنه بعد اتمام البناء الرئيسى أمر السلطان حسن بقطع يد مهندسه حتى لا تقوم يده برسم مثله فى العالم

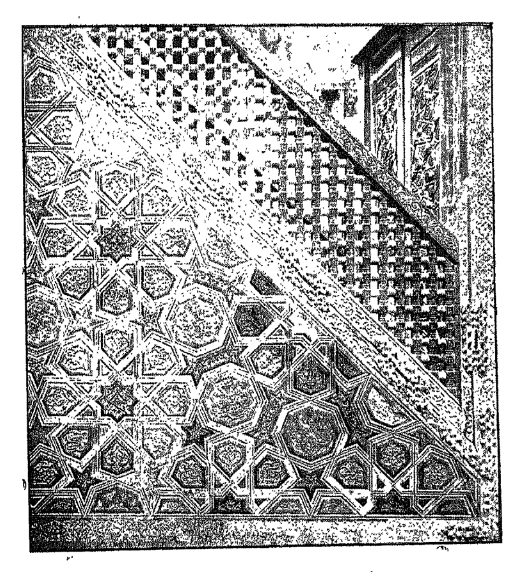
ويبلغ ارتفاع جدران هذا المسجد ١١٣ قدماً مبنية بالحجارة المنحوتة الكبيرة المأخوذة من أنقاض الأهرام وتحلى النوافذ العديدة وجهته الممتدة . وأجمل مظاهر الجامع كورنيشه الفخم المكون من ست وصلات من المقرنصات واحدة تعلو الأخرى ويتوجن جدرانه الشامخة بينما تزين مدخل الجامع تلك النقوش القويةوالزخارف الهندسية والأعمدة السركشية ذوات التيجان المقرنصة مما لا يستطيع وصفه بكل دقة سوى المعمارى الماهر

ولا يقل داخل الجامع أبهة ورونقا عن خارجه فالكتابات الكوفية والعربية المنقوشة على الجدران تزينه وتزيده حسنا وجمالا — فى مقصورة القبر كتبت آية الكرسى بالكوفية على الجدران الاربعة على ألواح الخشب الثمين وفى وسط المقصورة قبر منشئه وتعلوها القبة الجديدة وهى ليست بقبة الجامع الاصلية . فقد تهدمت فى عام ١٦٦٠ وكان قد وصفها « بيترو ديلافالى » لما زار القاهرة عام ١٦١٦ م

هذا وأكثر مشكاواته النحاسية ومصابيحه الزجاجية المطلية بالميناء لاتزال محفوظة فى دار الآثار العربية ولما شرع السلطان الملك المؤيد شيخ فى عمارة جامعه بجوار باب زويلة اشترى باب الجامع النحاسى ونقله إلى جامعه عام ٨١٩ هـ

وكان هذا الجامع مقاوما لقلعة الجبل فقلما تكون فتنة بين أهل الدولة إلا ويصعد إلى أعلاه عدة أمراء وغيرهم ويبدأ الرمى منه على القلعة فلم يحتمل ذلك الملك الظاهر برقوق وأمر بهدم الدرج الذى كان يصعد منه إلى المناوتين ويصل الانسان من هذا الدرج إلى السطح الذى كان يرمى منه على القلعة وهدمت البسطة العظيمة والدرج الذى كان بجانبى هذه البسطة أمام باب الجامع حتى لا يمكن الصعود اليه وسد من وراء الباب النحاسى وفتح شباك من شبابيك أحد مدارس هذا الجامع الاربعة لفصل الزائر إلى داخل الجامع وامتنع صعود

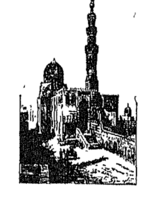
المؤذنين إلى المنارتين وبقى الآذان على درج هذا الباب ومع ذلك فقد استمر الجامع مركزا للمناوشات وتبادل الطلقات حتى أيام المغفور له محمد على الكبير ولا تزال آثار بعض « الجلل » باقية عليه للآن وقد ذكر الاستاذ «ستانلى لين بول» أن إحدى مأذنتى الجامع كانت تتصل بسور القلعة بحبل كان يلعب عليه « بهلوان أوربى » تسلية للجماهير التى كانت تفد لمشاهدة مخاطراته ومع كل ما مر بهذا الجامع الخالد من الحوادث والذكريات والسنين والأيام لم يزد إلا عظمة ووقارا بالرغم مما ظهل على وجهه من ملامح الشيخوخة وهو لا يزال أثمن وأفخر أثر اسلامى خلفه لنا أبناء القرن الرابع عشر .



منبر السلطان لاجين المنصورى فى جامع ابن طولون (٦٩٦ هـ)

قاهرة المماليك الجراكسة

أنظر إلى بركة الفيل التى اكتنفت بها المناظر كالأهداب للبصر
كأنما هى والأبصار ترمقها كواكب قد أداروها على القمر



جاء بعد الناصر ابناؤه الضعفاء محمد بن حاجى (الملك المنصور الخامس) وشعبان بن حسن الأشرف وعلى بن شعبان وأخيراً جاء حاجى بن شعبان وكانوا جميعهم ألاعيب يحركها الأمراء الأقوياء وظهر من هؤلاء جميعاً قوسون وشيخو وصرغتمس وآخرهم برقوق الذى خلع السلطان حاجى بن شعبان فى عام ٧٨٤ هـ (١٣٨٢م) وتولى العرش مكانه ولقب نفسه بالملك الظاهر وهو لقب أعظم من حكم مصر من دولة المماليك البحرية وهو ركن الدين بيبرس البندقدارى . وبتوليته العرش زال مبدأ الوراثة الذى لم يعد حتى جاء القرن التاسع عشر

وهذه السلالة الجديدة هى التى عرفت فى التاريخ باسم المماليك البرجية أو مماليك الحصن لأنهم كانوا فى الاصل يتبعون فرقة من الجند اتخذت القلعة مركزاً لحاميتها منذ قرن ويسمونهم أحياناً المماليك الشراكسة نسبة إلى منشأ سلاطينهم فانهم من الشعب الشركسى نشأوا فى سيبيريا ثم هاجروا الى غربى بحر قزوين ولو أن بعضهم كانوا من الترك والآخرين من الروم . وكان سلاطين هذه السلالة الجديدة تحت رحمة امرائهم أكثر من سلاطين المماليك البحرية وكان اتباع كل أمير مملوك يعد نفسه مستقلا عن شئون الدولة فيطلقون على فئتهم الاشرفية والمؤيدية والناصرية نسبة الى أميرهم أو ملكهم . وقد غدوا أنفسهم أحزاباً مستقلة فى السياسة بعد موت أميرهم أو خلعه ويساهمون كما يريدن فى المعارك الدموية وحوادث السلب والنهب ولم يستطع السلاطين أن يكبحوا جماح مماليكهم وعجزوا عن ادارة شئون البلاد بدونهم . ومن عجيب ماتراه أن ستة من ثلاثة وعشرين سلطانا منهم حكموا ١٠٣ سنه من ١٣٤ سنه وهى حكم

أسرتهم على عرش مصر فيتضح أنه فى مدة ثلاثة وعشرين عاما حكم منهم ١٧ سلطانا !

وكانت أخلاق الحكام الجدد على مثال من سبقهم ولم يكن بين «الشراكسة» سلاطين من طراز بيبرس وقلاوون وغيرهما من القواد الفاتحين . ولم يكن الشراكسة جنودا بمعنى الكلمة ولكن كانوا رجال فكر لا يعتمدون على الشجاعة بل على المؤامرة والمكيدة فمثلا السلطان الرومى « خوش قدم » اشتهر بحلمه وحبه لرعيته فكان يجبى الضرائب ويصرفها لمصلحتهم وقد يكون أفضل سلاطين مصر الشراكسة

وبالرغم من القلاقل الداخلية استطاع مماليك الشراكسة إلى حد ما أن يحافظوا على سمعة مصر بين الممالك المجاورة وأن يوسعوا ممتلكاتهم وينشروا تجارتهم فقد قاوم برقوق تيمورلنك الفاتح التترى وكان قد ملأ الارض بفتوحاته حتى سمع دويها فى سوريا إذ جاء يهدد حدودها فنهض اليه برقوق وأوقفه عند حده عام ١٣٩٩ م ولكن تيمورلنك قبل أخيراً شروطه وعاد من حيث أتى

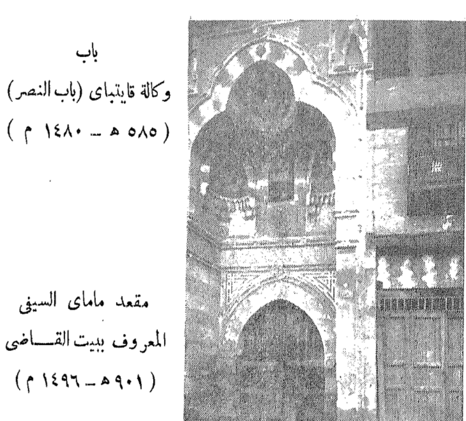
وقام سلاطين الجراكسة بعدة معارك على أرض آسيا الصغرى وغزوا قبرص التى اتخذها قرصان البحر مركزاً لأعمالهم وكثيرا ما كانوا يهاجمون الأسطول المصرى فجهز لهم الملك أشرف برسباى فى عام ١٤٢٦ م أسطولا بناه فى بولاق وأخضع الجزيرة وحمل الملك «جان لوسينيان الثالث» على الاعتراف بسلطانه واداء الجزية. وكان هذا الملك قد وقع أسيرا فى أيدى المصريين فى معركة «شيروكيتا» وعادوا به مكبلا الى مصـــــر وأخذوه فى موكب الى القلعة ودفع فديته قنصل البندقية والتجار الاجانب . ثم ركب فى موكب حافل وساروا به بين الشوارع والاسواق بعد أن جعله واليا من قبله. وعقد برسباى مع ملوك الصليبيين وسلطان آل عثمان إذ ذاك مراد بن محمد معاهدات سلمية دلت على عظم شوكته ، وقال بعض المؤرخين عنه أن برسباى أحق ملوك الشراكسة بالمدح لأنه كان أعلاهم همة وأشدهم عزيمة وأكثرهم دراية بشئون الحكم وقد وصلت الحدود المصرية فى عهده إلى بيراموس والفرات

ولا نجد من عجائب الشذوذ فى التاريخ الشرقى أغرب من هؤلاء المماليك فى الجمع بين المتناقضات . فبينما نجدهم عصبة من الآفاقين بيعوا بيع السلع ونشأوا أرقاء

باب

وكالة قايتباى (باب النصر)

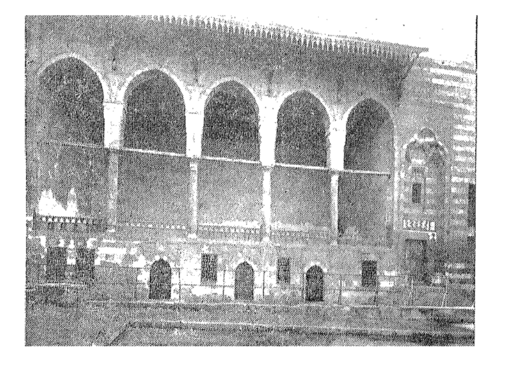
(٨٨٥ هـ ـ ١٤٨٠ م)



مقعد ماماى السيفى

المعروف ببيت القـــاضى

(٩٠١ هـ ـ ١٤٩٦ م)

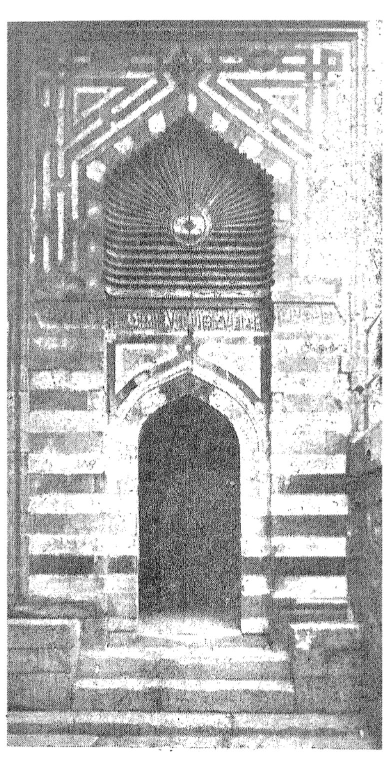


ونشأوا سفاكين للدماء ظالمين للعباد مخربين للبلاد نجد منهم ميلا غريباً للفنون والعلوم والأدب والدين . ولقد أظهر هؤلاء المماليك فى معيشتهم وعماراتهم ذوقا سليما ورفاهية بالغة . فكان برقوق والمؤيد وجقمق و قايتباى مولعين بمجالس العلماء والأدباء وكان برسباى على قلة علمه باللغة العربية يصغى إلى تاريخ العثمانيين الذى كان يقرأ له « العينى » وكان « الظاهر تمربغا » الرومى عالماً بأصول اللغات والتاريخ والتصوف وكانوا مسلمين يؤدون فرائض الدين كاملة لا يشربون الخمر ويحجون إلى بيت الله — شيدوا المساجد والمدارس والمستشفيات والمنشآت الدينية . وكان المؤيد مع ضعف نفوذه مسلما عالما وموسيقياً بارعا وشاعراً وخطيبا بسيط الملبس والمعيشة - يختلط بالشعب كأنه منهم شيد بنايات جميلة منها جامع المؤيد بالقرب من باب زويلة ولم يبق من بنائه القديم الا إيوان القبلة وشيد أيضا البيمارستان المؤيدى (١٤١٨ م) بالقرب من القلعة وبنى برسباى جامعه الكبير المعروف بالاشرافية (١٤٢٢م) بالقرب من الموسكى عند منعطف الغورية . وبنى برقوق (١٣٨٦ م) المدرسة الظاهرية بين القصرين وشيد جامعا فيه مقبرته وله قبتان وقدمات ولم يكمله فأتمه ابنه فرج فى عام ١٤١٠ وهذا الجامع يعد فى مجموعة الجوامع الرائعة الموجودة فى القرافة الشرقية ولكن درة المجموعة مسجد قايتباى (٨٧٩ هـ) وهو مثال جليل لما وصل اليه فن المماليك . فان القبة تسمو بنقوشها العربية ومأذنته البديعة التى تناطح السحاب تتحول من مربع فمثمن فدائرة وتختفى زواياها بالمقرنصات وكذلك إيوانه المرصع بالرخام .. كل هذه النفائس مجتمعة تزيد هذا الأثر قدرا واعتباراً بالرغم عما أصابه من الاهمال والنسيان

تولى السلطان قايتباى العرش فمكث على سرير السلطنة ٢٨ عاما (٧٧٢-٩٠١هـ) وكان مملوكا اشتراه « برسباى » بمبلغ خمسة وعشرين جنيها

وتحول من سيد لسيد وصار يترقى من رتبة لرتبة حتى أصبح (أتابك الجيش) للظاهر « تمربغا الرومى وكان الجيش المصرى إذ ذاك يكلف الدولة ٣٠٠,٠٠٠ جنيه فى السنة وهذه الميزانية تعد شيئا يذكر فى القرن الخامس عشر

ولقد وصم قايتباى بالشح ولكن الواقع لا يقر هذا الوصف فقد اشتهرت آثاره الخالدة من بعده فى الشام وبلاد العرب وجميع أنحاء مصر مما يدل على



مدخل حمام بشتاك (قبل ٧٤٢ هـ — ١٣٤١ م)

أنه صرف مالا كثيرا فى تشييد تلك الآثار النفيسة . فقد شيد جامعين أحدهما ضمن مقابر الخلفاء (١٤٦٢ م) والآخر بالقرب من جامع ابن طولون (١٤٧٥ م) وتعتبر وكالاته أو خاناته من أجمل الأمثلة لفن الزخرفة العربية التى لازمت العمارة الاسلامية . وكان قايتباى محباً للسياحة فقد رحل إلى سوريا وإقليم الفرات وطاف أنحاء مصر وزار مكة والبيت المقدس وتجده أينما رحل ترك خلفه آثارا تتحدث

على مكانته ـ فمن طرق إلى قناطر إلى مساجد إلى مدارس إلى قلاع إلى أسبلة متعددة ـ ولا يمتاز أى عصر من عصور سلاطين المماليك على قايتباى من حيث الانتاج المعمارى إذا استثنينا عصر الناصر بن قلاوون

وفى أيام الجراكسة وعلى الأخص فى عصر قايتباى أدخلت على فن المعمار تعديلات جديدة فقد توسعوا فى استعمال الحجر المنحوت وبناية الجدران الداخلية وزخرفوها بنقوش جميلة وفى داخل الجوامع وفى وجهاتها كانوا يدخلون النقوش الغريبة والزخارف ـ مع أن الخط الكوفى كان قد استبدل من زمن بعيد بالخط النسخى وذلك لجماله الزخرفى . وشيدت القصور العظيمة أيضا

وكان المهندسون يعنون على الأخص ببناء القبور وكانوا يجعلونها فى ركن غير ظاهر من المساجد كما كان الحال فى عهد المماليك البحرية بل صارت الجزء المهم من الجامع

ولم تكن الزخرفة الخارجية قبل دولة الشراكسة تتناول من أشهر الآثار غير الباب والمأذنة وبعض المرافق الأخرى حيث تكون سائر العمارة فى غاية البساطة والتجرد من التأنق ولكن فى عهد السلاطين الشراكسة راق المهندسون أن يجعلوا أبنيتهم شائقة فى كل وجهاتها الخارجية فامتازت الآثار التى كثرت فى مصر فى ذلك العهد بالاتقان جملة وتفصيلا

وشاع فى عصر الشراكسة عمل الزخرفة نقشا على الحجارة نفسها بدلا من عملها بواسطة الجص أو الملاط كما شاركهم مهندسو الفاطميين ومن جاءوا بعدهم والمنبر الحجرى ذو النقش البديع الذى أقامه قايتباى (١٤٨٤ م) فى مقام برقوق يعد فى طليعة الأمثلة الفنية الرائعة التى تفخر بها القاهرة من ذلك النوع والحجارة فيه تقوم مقام الخشب وهى عبارة عن ألواح من الحجر أجيد نحتها ونقشها وتركيبها فأصبحت قطعة واحدة أخرجت فى قالب دقيق الصناعة أو كقطعة من التنتلة أخرجتها يد آنسة رشيقة ـ وكثير من أمثال تلك النقوش الجميلة تغطى جدران السلم والضريح

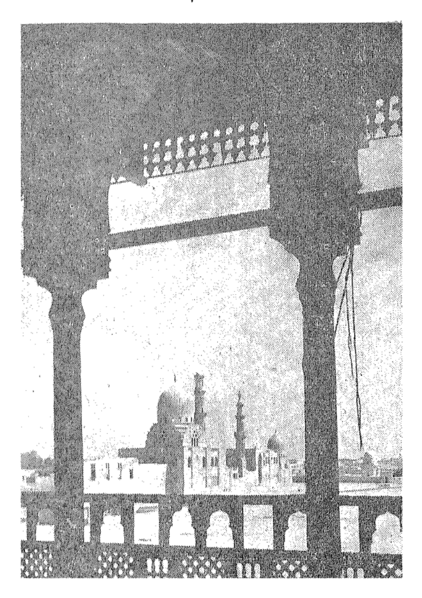
وكان قايتباى موفقا فى أعماله وقد فاق على جميع زملائه ذوقا وهندسة كما اشتهر بشدة عنايته بالدقائق كاهتمامه بالتفصيلات ودرس آثاره كلها تدعو الى الاعجاب والدهشة ـ ونستطيع التحقق من غنى نقوشه البديعة فى جامعه بمصر بالقرب من جامع ابن طولون وفيه نرى العقد الكبير مصنوعا من ثلاث وعشرين قطعة من الحجر وفى

كل ناحية من ناحيته قطعة حمراء وأخرى بيضاء وعلى هذا النحو وعلى العقد نفسه نجد نقشاً باسم السلطان وبجانبه شارة الملك وعبارة فيها الدعاء له ولحكمه ولا ريب فى أن هذه المجموعة تترك فى النفس أثراً طيبا لما تحتويه من أدلة الذوق السليم ـ ولم يكن قايتباى أقل عناية فى مبانيه الأخرى كالوكالات والخانات التى شملت هى الأخرى بدورها على محصول نفيس من الرسوم المتنوعة وتثبت لنا وكالته بالقرب من الأزهر هذا الرأى مع ما أصابها من الاهمال والخراب وتستحق وجهتها التى احتفظ بها درس الذين يرغبون الوقوف على جمال الزخرفة العربية الهندسية وقد استطاع بعض مهندسى الاجانب استخراج طبعات من هذه الحليات المنقوشة ووضعوها فى متحف «كنسنجتون الجنوبى» ولا شك أن البناء الأصلى لتلك الوكالة كان فى ايامه نموذجا لفن العمارة النبيلة التى تعتبر مرجعا صادقا للدراسة

ويمكن اعتبار عصر قايتباى صورة طبق الأصل لأيام الناصر من حيث تشييد المبانى العظيمة . ولا تزال مساجد الشراكسة تجذب اليها المعاريين والمصورين والزائرين من نواحى العالم . فضخامتها الباهرة ومآذنها الدقيقة وقبابها المزركشة ومقرنصاتها الكثيرة على المداخل وكرانيشها المصطفة وزواياها المحلاة وفسقياتها الرخامية وقبلاتها الزاهية ـ كل ذلك كمال فى الذوق والوضع

وأذكر من أشهر مبانى عصر قايتباى ما شيده الأمراء . فقد شيد أزبك اليوسفى جامعه (١٤٩٥ م) وخير بك (١٥٠٢) وشيد أميرا خور خانى بك أيضا وجوامعهم عنوان للنقش الجميل ـــ كذلك تلك الدرة الصغيرة مدرسة القاضى أبو بكر بن مظهر (١٤٨٠م) التى أعادت تجديد بنائها لجنة حفظ الآثار العربية فاعادت اليها رونقها السالف وألوانها الأصلية . وكذلك مسجد الأمير كجمز الاسحاقى

وقد تحول بناء المدارس اثناء القرن الخامس عشر فحدث تعديل فى تصميمها من حيث اتخاذ الشكل المصلب وابتدأ تصميم المدرسة يحل محل الجامع وأشهرها المدارس تلك التى أقامها المؤيد وبرسباى وأزبك. وحدث أيضا تعديل

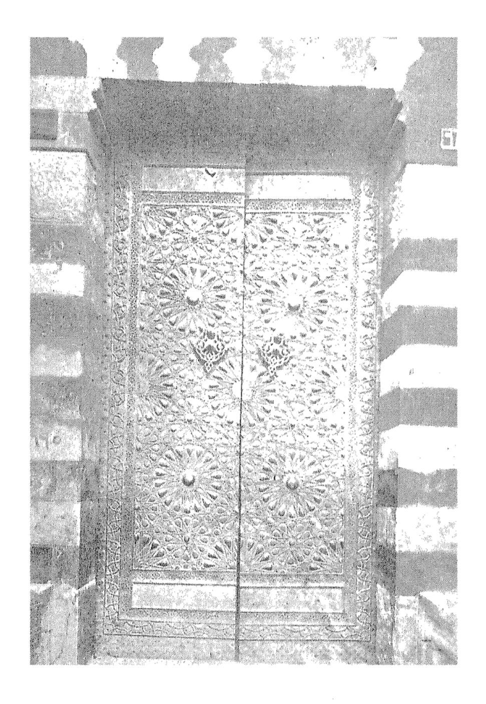


جامع برقوق بمقبرة الخلفاء

فى تصميم المساجد لتسير مع تصميم المدارس وأوضح هذا التغيير نراه فى مدرسة «كجمز»

السلطان الغورى

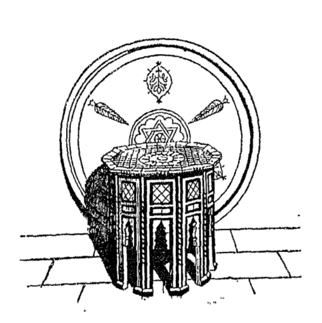
وأخيرا يتولى العرش السلطان الغورى (٩٠٦ هـ) بعد الناصر محمد والظاهر قنصوه والاشرف جنبلاط والعادل طومان باى - وكانت حركة البناء فى عهد أولئك فاترة جدا ولا نذكر من مشيداتهم العظيمة سوى قصر ماماى (بيت القاضى الحالى ٩٠٠ هـ) ومقبرة قنصوه (٩٠٤ هـ) ومقبرة العادل طومان باى (٩٠٦ هـ) - وكان الغورى قوى الارادة متوفر النشاط



باب مدرسة السلطان برقوق بالنحاسين (٧٨٩ — ٧٨٨ هـ — ١٣٨٤ — ١٣٨٦)

أعاد الأمن إلى نصابه وقضى على العسف الذى فشا فى القاهرة ثم زاد الضرائب دفعة واحدة فكان يجبيها من أصحاب مركبات المياه والسفن والجمال واليهود والمسيحيين والخدم ليكتنز المال فى الخزائن. فلما أصلح مالية الدولة بدأ يصرفها فى تشييد المبانى العامة الكبيرة فمن شق ترع إلى فتح طرق إلى إقامة حصون السواحل إلى تقوية القلعة. ثم أصلح طريق الحجاج إلى مكة وشيد مدرسته فى

عام (٩٠٨ ﻫ) ومقبرته التى لم يدفن فيها وهى دار المكتبة الزكية اليوم وهما مواجهان لبعضهما فى شارع الغورية الذى تغيرت ملامحه كثيرا فى الخمسين سنة الأخيرة وأقام الغورى أيضاً مأذنة الجامع الازهر وشيد جامع المقياس فى جزيرة الروضة وسبيل المؤمنين فى الرميله وطواحين الهواء فى مصر العتيقة وجدد بناء عيون المياه الموصلة للقلعة . وكان الغورى مبجلا فى مجلسه كريماً مع الشعراء ميالا للموسيقيين وكان محباً للمال يبحث عنه فى كل مكان . واشهر مايخلد للغورى على صفحات التاريخ مناوأته لأسطول البرتغاليين فى البحر الأحمر وهزيمته لهم فى عام ٩١٣ ﻫ . لكن حظه السعيد فارقه لما خرج فى طليعة جيش مصرى ليصد جيوش العثمانيين الذين توغلوا فى البلاد السورية فسقط فى معركة (مرج دابق) شهيدا وهرسته أرجل الخيل فقام المتولى بالأمور الأشرف طومان باى (٩٢٢ ﻫ) والتحم بالعثمانيين بالقرب من هليوبوليس شمالى القاهرة فدارت الدائرة عليه وهزمه المماليك شر هزيمة وحاول «طومان باى» فيما بعد أن يجمع قواه لمقاومة الفاتحين بالقرب من باب النصر ففاجأه سليم بهجمة عنيفة فى جناحه جعلته يرتد داخل المدينة ودار القتال بين المصريين والعثمانيين فى شوارعها حتى استولى السلطان سليم على القلعة فقبض على « طومان باى » وأمر بشنقه على باب زويلة ودفعت مصر الجزية آل عثمان





لعمرك ما مصر بمصر وانما هى الجنة العليا لمن يتذكر
وأولادها الولدان من نسل آدم وروضتها الفردوس والنيل كوثر

« ابن سلار »

وقاهرة هذا العصر صورة لتلك المدينة التى يتبع وصفها القارىء فى ألف ليلة وليلة . ففى الفصلين الآخيرين قرأنا وصف قاهرة السلاطين ولكن ليست العاصمة صورة لآثار سلاطينها وحكامها فللقاهرة حياتها الأخرى — تلك الحياة البسيطة التى قاومت المستبدين جيلا بعد جيل فليست القاهرة وقفا على مساجد ومدارس ومنابر ووكالات الحكام من سلاطين وأمراء . إذ هى فى كل عصر قلب الديار النابض ومقر تجارتها ومتعة أهلها الاجتماعيـة ومبعث ثقافتها ومنارة دينها

لقد أصبحت القاهرة الآن تلك التى عرفها المقريزى والتى عاش تحت سمائها ولم تكن ذلك العقل المحدود الذى اشتمل على القصور الفاطمية بأسوارها العالية فقد امتدت من جميع نواحيها إلا من ناحيتها الشرقية وتعدت عمارتها بوابتيها الشماليتين وتكونت ضاحية جديدة عرفت بالحسينية كثرت فيها المساجد والزوايا والدور وانتشرت مبانيها الى الغرب حيث كان الفضاء بين سور القاهرة الفاطمى والنيل وانحسر النهر وتقلص ماؤه عن سور القاهرة فسمح لقطعة من الأرض بالظهور فنشأت ميناء جديدة عرفت باسم بولاق وبنيت مجموعة من المنازل مكان مجرى النيل القديم (١٣١٣ م) وجد الأمراء والجند والكتاب والتجار والعامة فى البناء وصارت بولاق حينئذ تجاه بولاق الدكرور يزرع فيها القصب والقلقاس بواسطة سواقى تنقل الماء من النيل وتفاخر الأهالى فى انشاء القصور

والمناظر وغرسوا حولها البساتين العظيمة وانتظمت العمارة فى الطول على حافة النيل من منية السيرج إلى موردة الخلفاء بجوار الجامع الجديد خارج مصر وعمر فى العرض على حافة النيل الغربية من تجاه الخندق شمالى القاهرة إلى منشاة المهرانى وبقيت هذه المسافة كلها بساتين وأحكار عامرة بالدور والأسواق والحمامات والجوامع وغيرها. وكان موضع جزيرة الفيل « ١٢٠٠ م » مغمورا فى الماء أيام الدولة الفاطمية فلما انكسر مركب كبير كان يعرف بالفيل وترك فى مكانه تراكم عليه الرمل وصار الماء يمر من جوانبها وصارت هذه الجزيرة فى وسط النيل وما برحت تتسع إلى أن زرعت فى أيام الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب فوقفها على المدرسة التى انشأها بالقرافة بجوار قبر الشافعى رضى الله عنه وكثرت أطيانها بانحسار النيل عنها تدريجاً فى كل عام ـ فلما كانت أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون بعد عودته إلى قلعة الجبل من الكرك انحسر النيل على جانب المقس الغربى وصار ماهنالك رمالا متصلة من بحريها بجزيرة النيل وما قبلها بأراضى اللوق وافتتح الناس باب العمارة بالقاهرة ومصر فعمروا فى تلك الرمال المواضع التى تعرف اليوم ببولاق فى خارج المقس وجدد ابن المغربى الطبيب بستانا اشتراه منه القاضى كريم الدين ناظر الخاص للأمير سيف الدين طشتمر الساقى بنحو المائة ألف درهم وتتابع الناس فى انشاء البساتين حتى لم يبق بها مكان بغير عمارة بعد أن كانت فضاء يلعب على أرضه فرسان المماليك واستمرت بساتين الجزيرة عجباً من العجائب فى حسن المنظر وكثرة المتحصل من خيراتها الى ان حدثت المحن من سنة ست وثمانمائة فتلاشت وخرب كثير منها وتعطل معظم سوقها وهجرت أرباعها وحماماتها

وكذلك كان نمو المدينة من ناحيتها الغربية . أما من ناحيتها القبلية فكانت المساحة الممتدة بين السور الفاطمى والقلعة وجامع ابن طولون حتى أيام صلاح الدين تشتمل على البساتين والبيوت الصيفية والبركة التى يفيض عليها مياه النيل أثناء الصيف — أصبحت الآن تشغلها المنازل والمساجد بقبابها ومآذنها التى أقام معظمها المماليك

تحول القاهرة

ويمكن للباحث الراغب فى معرفة تفاصيل امتداد القاهرة من هذه

الناحيـــة أن يقرأ الخطط المقريزية فهى المرجع الوحيد الوافى — فمن الجوامع التى شـيدت جامع يونس (٧١٩ ﻫ) وجامع ابن الطباخ (٧٤٦ ﻫ) وجامع الطواشى (٧٤٥ﻫ) الذى كان غرب باب البحر القديم وزاوية أبى السعود (٧٢٤ ﻫ) خارج باب القنطرة وأرض تلك الناحية لم تكن فى يوم من الأيام مغمورة بالمياه . وأذكر من جوامع بولاق جامع ابن سارم والباسطى (٨١٧ﻫ)

أرض الطبالة

وفى شرق بولاق أو خلفها (العباسـية الآن) عمرت منطقة جديدة من الأراضى عرفت بأرض الطبالة حصرت بين الخليج الناصرى والمقسى وكانت من أحسن متنزهات القاهرة يمر النيل من غربيها عندما يندفع من ساحل المقس حيث كان جامعها إلى أن ينتهى الى الموضع الذى عرف بالجرف على جانب الخليج الناصرى بالقرب من بركة الرطلى وكان منظر هذه المنطقة فى أيام الربيع خلابا جميلا وفيها قال الشاعر المصرى سيف الدين على :

إلى طبـالة يعزون أرضـا لها من سندس الريحان بسط

رياض كالعرائس حين تجلى يزين وجههـا تاج وقرط

ويعزى اطلاق ذلك الاسم عليهـا الى الأمير أبى الحارث أرسلان البساسيرى عندما غاضب الخليفة القائم بأمر الله العباسى وخرج من بغداد يريد الانتماء الى الدولة الفاطمية بالقاهرة أمده الخليفة المستنصر بالله حتى استولى على بغداد وأخذ قصر الخلافة وأزال دولة العباس فيها وأقام الدولة الفاطمية وأرسل كل تحفه الثمينة وغنائمه النفيسة الى القاهرة فسر الخليفة المستنصر سرورا عظيما وزينت القاهرة والقصور ومدينة مصر والجزيرة فوقفت «نسب» طبالة المستنصر وأنشدت وهى واقفة تحت القصر وحولها طائفتها :

يا بنى العباس ردوا ملك الأمير معـد

ملككم ملك معـار والعوارى تسـترد

فأعجب المستنصر بها وقال لها « تمنى » فسألت أن تقطع هذه الأرض المجاورة للمقس فأقطعها هذه الأرض وقيل لها أرض الطباله وأنشأت هذه الطبالة تربة بالقرافة الكبرى عرفت بتربة نسب . وقد عمرت هـذه الأراضى وبنت بها دورا وبيوتا وكانت من ملح القاهرة وبهجتها وقد خربت سنة ست وتسعين وستمائة

عند حدوث الغلاء والوباء فى سلطنة الملك العادل وبقيت خرابا إلى ما بعد سنة ٧١١ ﻫ فشرع الناس فى سكناها قليلا قليلا فلما حفر الملك الناصر محمد بن قلاون الخليج الناصرى سنة ٧٢٥ ﻫ كانت هذه الأرض بيد الأمير بكتمر الحاجب فمازال المهندسون حتى مروا بالخليج من عند الجرف على بركة الطوابين التى عرفت فيما بعد ببركة الرطلى فمروا به من هناك حتى صب الخليج الكبير فعمر الأمير هناك القنطرة التى عرفت بقنطرة الحاجب عند الخليج الناصرى وبذلك أعيدت العمارة ثانية إلى أرض الطبالة وصارت بها عدة حارات منها حارة العرب والأكراد و .. ألخ إلى أن حدث غلاء سنة ٧٧٧ ﻫ فى أيام الأشرف شعبان بن حسين فخرب كثيرا من حارات أرض الطبالة وبقيت منها بقية إلى أن اندثرت منذ سنة ٨٠٦ ﻫ وصارت أكواما . وكان من أشهر جوامع الطبالة جامع الكيفتى الذى شيد على الخليج الكبير فى عام ٧٩٠ ﻫ وجامع سروجه (٧٤٠ ﻫ) بالقرب من بركة الرطلى - وإذا بعدنا نحو الشرق قليلا وجدنا مساجد أخرى شيد منها جامع الملك ٧٣٢ ﻫ وابن الفلك فى حى الحسينية وجامع عكوش وابن المغربى وخان يونس وابن غراب (٧٩٨ ﻫ) وزاوية الجبرى (٦٨٧ ﻫ) والقلندرية (٧٢٢ ﻫ) والخلاطى (٧٣٧ ﻫ) خارج باب النصر ومن هذه المساجد نستطيع أن نعرف مدى نمو القاهرة من ناحية الشمال

وكانت القاهرة إذ ذاك تشغل المساحة التى كانت تشغلها حتى أوائل القرن الماضى قبل أن تتسع وتمتد وتوجد ضواحيها الحالية التى أنشئت منذ نصف قرن أو أكثر بقليل . وأعتقد أنه لم يكن هناك فرق يذكر بين حال القاهرة خلال القرن الخامس عشر وتلك القاهرة التى أجاد وصفها فوج من الرحالة والمستشرقين الأوربيين وفى طليعتهم ويلكنسون وبورخاردت ولين وجون فايس وهاى — وهؤلاء أجادوا وصفها أو تصويرها فى مؤلفاتهم أو لوحاتهم الخالدة فى النصف الاول من القرن التاسع عشر - والذين يدققون النظر فى لوحات هؤلاء يتصورون بوضوح تلك القاهرة التى كانت إلى عهد قريب تحمل طابع القرون الوسطى

وكيف يكون منظر القاهرة مختلفا لذلك الزائر الجديد عند ما يصل إلى الأسكندرية فيركب إحدى السفن لتنقله على ترعة المحموديه وبعد أيام يصل إلى

ميناء بولاق ومنها يستأجر مطية يصل بها إلى باب الحديد على بعد ميل تقريبا فيصل القاهرة من ناحيتها الشمالية الغربية من المدينة

وكان يوجد طريقان رئيسيان يؤديان من بولاق إلى القاهرة - أولهما الشمالى غير منظم ولكنه الممر الهام للتجارة وثانيهما الجنوبى ويجبر الزائر على عبور قناتين ليصل إلى الجانب الغربى من حديقة الأزبكية واذ ذاك يمر بجامع أبو العلا على يمينه . وقد رفع الفرنسيون أثناء الاحتلال الفرنسى مستوى الطريق لكى لا يعرقله الفيضان وحاولوا أن يصلوا به إلى القلعة بطريق مستقيم وواسع وهذا المشروع وإن لم ينجح أثناء حكم الفرنسيين إلا أنه تم فيما بعد وعرف باسم شارع فؤاد الأول

وقد لعبت القاهرة دوراً عظيما فى التجارة فكانت ملتقى تجارات الشرق بالغرب وعادت على أهلها وتجارها بالأرباح الطائلة التى نقرأ عنها فى كتاب الف ليلة وليلة وكان لابد لهذا النشاط التجارى من أسواق ووكالات وخانات وفنادق - وكانت القاهرة مزدحمة بمثل تلك المنشآت التى ترمى كلها إلى غرض واحد فهى عبارة عن مجموعة من البيوت التجارية أو الحوانيت التى تحيط بساحة أو فناء وأمام هذه الحوانيت باكيات مسقوفة يضع فيها التجار بضاعتهم الزائدة على حاجة العرض كما يستعملونها سكنا لهم إلى انتهاء مهمتهم ومكانا يستخدمونه أيضا لراحة حيواناتهم وأشهر هذه الخانات الباقية إلى يومنا هذا خان الخليلى وكان موضعه ضريح القصر الذى فيها قبور الخلفاء الفاطميين وقد أنشأه الأمير جهاركس الخليلى أمير أخور (أمير الخيل) الملك الظاهر برقوق وكان أخرج منها عظام الأموات وألقاها بكيمان البرقية (١٤٠٠) وخان الحمزاوى أو سوق القماش ووكالة قايتباى ووجهتاهما يعتبران مثلين بديعين لزخرفة النقش فى تلك الأيام والأولى بالقرب من جامع الأزهر والثانية بالقرب من السروجية ولقد كان فى القاهرة عندما وصفها « مستر لين بول » عام ١٨٣٥ مائتان وكالة لا تزال للآن بقية منها نشاهدها إلى اليوم

خانات القاهرة وفنادقها

وفى أثناء القرن الخامس عشر صارت خانات القاهرة أسواقا للتجار الذين

ازدحمت بمتاجرهم وكان أمراء المماليك يدركون الفوائد التى تعود عليهم من بناء الوكالات فكان يفخر الأمير إذا شيد وكالة كبيرة تعود عليه كل غرفة من غرفها بأيجار شهرى يناسبها وكان من أشهر تلك الخانات التى ازدحمت بها القاهرة خان مسرور وهما اثنان أحدهما الكبير على يسار الذى يسلك الطريق من سوق باب الزهومة إلى الجامع الأزهر وكان ساحة يباع فيها الرقيق بعد ما كان موضع المدرسة الكاملية هو سوق الرقيق . وكان مسرور هذا خادم من خدام القصر واختص بالسلطان صلاح الدين : وقد أدرك المؤرخ المقريزى ذلك الخان وهو فى غاية العمارة وكان ينزل فيه أعيان التجار الشاميين بتجارتهم وكان من أجل الخانات وأعظمها فلما كثرت المحن بحروب بلاد الشام منذ غارة تيمورلنك وتلاشت أحوال مصر قل الثمار وضألت مكانته وتهدمت عدة أماكن منه

ومن أسواق القاهرة أيضا قيسارية جهاركس التى بناها ابن عبد الله فخر الدين أمير المنصور الناصرى الصلاحى، وقد رأى المقريزى جماعة من التجار الذين طافوا البلاد يقولون « لم نر شيئا فى البلاد مثلها فى حسنها وعظمتها وأحكام بنائها » وبنى بأعلاها مسجداً كبيرا وربعا معلقا

وفندق بلال المغيثى الذى أنشأه الأمير الطواشى حسام الدين بلال المغيثى أحد خدام الصالح وكان معظما إلى الغاية يجلس فوق جميع امراء الدولة وكان الملك المنصور قلاوون اذ رآه يقول « رحم الله أستاذنا الملك الصالح نجم الدين أيوب أنا كنت أحمل خفى هذا الطواشى حسام الدين كلما دخل إلى السلطان الملك الصالح حتى يخرج من عنده فأقدمهما له » وكان الفندق المذكور يقع بين خط حمام خشيبه وحارة العدوية

وقال المقريزى عنه « لقد كنت أدخل فيه فاذا بدائرة صناديق مصطفة ما بين صغير وكبير فلا يبقى من الفندق غير ساحة صغيرة بوسطه وتشتمل الصناديق من الذهب والفضة ما يجل وصفه » وقد تلاشى أمر هذا الفندق حتى أنشأ الأمير الطواشى زين الدين مقبل فندقا آخر بالقرب منه

وخان السبيل الذى بناه خارج باب الفتوح الأمير بهاء الدين أبو سعيد قراقوش وزير صلاح الدين وعتيقه لأبناء السبيل والمسافرين بغير أجر وبه

بئر ساقية وحوض ـ ووكالة قوسون وكان موضعها بين الجامع الحاكمى ودار سعيد السعداء وقد بناها الأمير قوسون بعد أن هدم دار سعيد وجعلها فندقا كبيرا للتجار وبدائره عدة مخازن وأشترط أن لا يؤجر كل مخزن إلا بخمسة دراهم من غير زيادة وقد دهش المقريزى لما زارها لكثرة ما فيها من أصناف البضائع وازدحام الناس وشدة أصوات العتالين ثم تلاشى أمرها منذ خربت الشام فى سنة ٨٠٣ هـ على يد تيمورلنك وكان يعلوها أرباع تشتمل على ثلثمائة وستين بيتا أدركها المقريزى لما كانت عامرة كلها وقد سكنها نحو أربعة ١ لاف نفس ـ فلما كانت سنة ٨٠٦ خرب كثير من هذه البيوت . وفندق دار التفاح وكان تجاه باب زويلة وترد اليـــه الفواكه على اختلاف أصنافها مما ينبت بساتين ضواحى القاهرة ومن التفاح والكمثرى والسفرجل الوارد من البلاد الشامية ، وقد أنشـــأ هذا الفندق الأمير « طقوزدمر » بعد سنة أربعين وسبعمائة ووقفها على خانقاه بالقرافة . وخلا ما ذكرنا من الخانات والفنادق كان يوجد خان منكورش (بالقرب من الجامع الأزهر) وكان أحد مماليك السلطان صلاح الدين وفندق ابن قريش ووكالة باب الجوانية وفندق طارنطاى (خارج باب البحر ظاهر المقسى) وكان ينزل فيه تجار الزيت الواردون من الشام وكان فيه ستة عشر عمودا من الرخام ويعلوه ربع كبير

وكان فى القاهرة الكثير من أمثال هذه المبانى العظيمة كتب تاريخها المؤرخ المقريزى فأفاض فى وصف خطط القاهرة القديمة وتطورات المدينة الجغرافية والعمرانية واحيائها وأثارها ومساجدها ومدارسها وقصورها وبساتينها وميادينها وحماماتها وشـوارعها وأسواقها .وصف كل ذلك بأسلوب يغرى الانسان على قراءته بسهولة وبصورة ممتعة بعيـــدة عن الخيال المنمق . لقد كانت القـاهرة المقريزية مدينة رائعة الجمال فخمة البناء جميلة العمارة متجانسة فى كل شىء وكانت قصور المماليك القـــدماء والتى لا تزال آثار بعضها لليوم — كبقايا قصر بشتاك وبوابة دار يزبك الفتانة الملاصقة لجامع السلطان حسن وبعض ممتلكات قايتباى وقصر الأمير ماماى الذى بقيت منه تلك الشرفة الرائعـــة التى نعرفها اليوم ببيت القاضى — كل هذه المنشئات كانت فى كامل مجدها حينذاك — وكان يقع قصر بشتاك فى أيام المقريزى تجاه الدار البيسرية (وهذه كانت أعدت فى

أيام الفاطميين لقصاد الافرنج بخط بين القصرين) وكان يقصد اليه من باب البحر الذى عرف بباب قصر بشتاك تجاه المدرسة الكاملية وما زال الى أن اشتراه الأمير بدر الدين بكتاش الفخرى المعروف بأمير سلاح وصار ينزل اليه هو والأمير بدر الدين بيبرس عند انصرافهما من الحضرة السلطانية بقلعة الجبل فى موكب عظيم ويدخل كل منهما داره

وقد وصف مؤلف الخطط هذه الدار وصفا متقنا فذكر منها عددا وفيرا نأتى هنا على أهمها . دار الأحمدى ودار قراسنقر ودار أمير مسعود ودار نائب الكرك ودار بيبرس الحاجب ودار الدودار ودار الذهب ودار بكتمر ودار الجاولى ودار طوغباى ودار البقر ودار طاز ودار صرغتمش وداد بهادر المقدم الخ وكان وصفه لها فيما لا يقل عن الأربعين صفحة

أخطاط القاهرة

وكانت أخطاط القاهرة تفصلها عن بعضها البوابات الخشبية الضخمة التى كانت توصد على سكان الحى بعد غروب الشمس واهم الخطط التى أذكرها المؤرخ العلامة المقريزى خط خان الوراقه وخط باب القنطرة وخط بين السورين وكان يمتد من باب الكافورى فى الغرب الى باب سعادة وكانت بهذا الخط قناطر اللؤلؤة وقناطر دار الذهب وقنطرة الغزالة وهى بجوار قنطرة الموسكى ، وخط الكافورى وكان بستانا قبل بناء القاهرة وخط الخرنفش وكان بين حارة برجوان والكافورى ويصل الانسان اليه من بين القصرين وخط باب المارستان وخط بين القصرين وقد كان من أعمر أخطاط القاهرة وكان فى عصر الدولة الفاطمية فضاء كبيرا يقف فيه عشرة آلاف من الجند المشاة والخيالة ولما حكمت الدولة الايوبية صار هذا الموقع سوق مبتذلة ثم متنزها تمر فيه أعيان الناس وكانت تعقد فيه عدة حلقات لقراءة السير والأخبار وإنشاد الأشعار وأنواع اللعب واللهو ولما حدثت محن سنة ٨٠٦ هـ تلاشى كل هذا

ومن الخطط أيضا خط الخشبية وخط سقيفة العداس وخط البندقانيين وخط دار الديباج وسمى بهذا الاسم لان دار الوزير يعقوب بن كلس التى جملتها المدرسة الصالحية ودرب الحريرى والمدرسة السيفية كانت عملت دار ينسج فيها الديباج

والحرير برسم خلفاء الفاطميين وصارت تعرف بدار الديباج فنسب اليها الخط الى أن سكن هناك الوزير صفى الدين عبدالله فصار يعرف بخط سويقة الصاحب — وخط الملحيين وخط المسطاح وخط قصر أمير السلاح الذى كان تجاه حمام العيسوى بين القصرين وكان أمير السلاح هذا بكتاش الفخرى الامير فخر الدين أمير السلاح الصالحى وخط اسطبل الطارمة وخط الاكفانيين وخط المناخ وخط سويقة أمير الجيوش وخط دكة الحسبة وخط الفهادين وخط خزانة البنود وخط خان السبيل

أسواق القاهرة

وكان بمدينة مصر والقاهرة وظواهرها من الأسواق شىء كثير جدا والدليل على كثرة عددها أن الذى خرب من الاسواق فيما بين اراضى اللوق إلى باب البحر بالمقس اثنتان وخمسون سوقا ادرك بعضها المقريزى

وكانت الأسواق تسقف بالحصير أو الخشب وكانت النوافذ والمشربيات تطل على السوق بشكل جذاب يستوقف النظر.

ومن أشهر الاسواق التى ذكرها المقريزى فى خططه القصبة وكانت أعظم اسواق مصر احتوت على أثنى عشر الف حانوت وامتدت من الحسينيه الى المشهد النفيسى ولقد أدرك المقريزى هذه المسافة الممتدة بأسرها ورآها عامرة بالحوانيت غاصة بأنواع المآكل والمشارب والأمتعة التى تبهج رؤيتها. وقد تفرعت على هذه الأسواق أسواقا صغيرة أخرى أهمها سوق باب الفتوح وسوق المرحلين وسوق حارة برجوان وسوق الشماعين وسوق الدجاجين ومن الأسواق أيضاً سوق بين القصرين واعتبرت من أعظم أسواق الدنيا ثم سوق السلاح وكانت تمتد بين المدرسة الظاهرية بيبرس وبين باب قصر بشتاك وقد جدت بعد الدولة الفاطمية وجعلت لبيع النشاب والزرديات وغير ذلك من الآت السلاح وسوق باب الزهومة وسوق اللحميين وسوق الجوخيين وسوق الحلاويين وسويقة أمير الجيوش وسوق الصنادقيين والحريريين والعنبريين والخراطين والقرابيين وغير ذلك من السويقات العديدة

وقد وصف المقريزى فى كتابه الخالد ٣٧ حارة أوحيا وثلاثين خطاً و ٦٥

شارعا أو دربا ، و ٢١ زقاقا وخوخه و ٤٩ رحبة أو ميدانا و ٥٠ سوقا و ٢٣ قيسارية و ١١ خانا أو فندقا أو وكالة و ٥٥ قصرا ودارا و ٤٤ حماما و ١٨ بستانا و ١١ ميدانا للسباق وغيرها من تلك المناظر الجميلة

فمن تلك الحارات ذكر حارة بهاء الدين وبراجوان وزويلة والمحمودية والجودرية والوزيرية والباطلية والروم والديلم والأتراك والصالحية والبرقية والعطوفية وقائد القواد والأمراء والمنصورية والهلالية والحسينيه الخ . . ومن الدروب التى ذكرها درب الترك وشمس الدولة وتوران شاه ودرب ابن طلائع ودرب أمير حسن وأرقطاى ومن الأزقة طريف منعم ومن الخوخ ايدغمس والازرقى وعسيله والصالحية وخوخة حسين . . ومن الرحاب ذكر رحبة باب العيد ورحبة قصر الشوك ورحبة الجامع الأزهر ورحبة البدرى ورحبة اقبغا ورحبة مقبل ورحبة المنصورى ورحبة بيبرس وارقطاى ورحبة باب اللوق والناصرية

ميادين القاهرة

وأشهر الميادين التى وردت فى الخطط ميدان ابن طولون الذى كان بناه وتأنق فيه وعمل فيه المناخ وبركة الزئبق والقبة الذهبية وميدان الأخشيد وميدان القصر وقد عرف موضعه فيما بعد بالخرتشف عند بناء القاهرة بجوار البستان الكافورى واستعمل فى أيام الفاطميين حتى زوال ملكهم فتعطل وبقى الى أن بنى المماليك اصطبلات ـ ثم حكر وبنى فيه فصار من أخطاط القاهرة، وميدان قراقوش وكان خارج باب الفتوح وميدان الملك العزيز وكان موضعه بستانا. والميدان الصالحى وكان بأراضى اللوق من شاطىء الخليج الغربى وموضعه كان من جامع الطباخ بباب اللوق الى قنطرة قدادار التى على الخليج الناصرى ـ والميدان الظاهرى كان بطرف أراضى اللوق يشرف على النيل الأعظم وميدان بركة الفيل الذى أشرف على بركة الفيل تجاه الكبش وكان أولا اسطبلا لغسيل المماليك السلطانية الى أن جلس الأمير زين الدين كتبغا على تخت الملك وتلقب بالملك العادل بعد خلعه الملك الناصر محمد بن قلاوون فحوله ميدانا عوضا عن ميدان اللوق وبادر الناس من ذلك الحين الى بناء الدور بجانبه وكان أول من بنى هناك الأمير علم الدين سنجر الخازن وتلاه

الناس فى العمارة والأمراء وصار السلطان ينزل الى هذا الميدان من القلعة وظل هذا الميدان باقيا الى أن عمر السلطان الملك الناصر قصر الأمير بكتمر الساقى على بركة الفيل فادخل فيه جميع أرض هذا الميدان

وميدان المهرانى بالقرب من قناطر السباع على شاطىء الخليج الغربى وميدان سرياقوس والميدان الناصرى وكان موضعه قديما غامرا بها النيل ثم عرف ببستان الخشاب فلماكانت سنة ٧١٤ هـ هدم السلطان الملك الناصر الميدان الظاهرى وغرس فيه أشجاراً وقد انشأ هذا الميدان من أراضى بستان الخشاب

حمامات القاهرة

أما الحمامات العامة فيبلغ عددها أربعة وأربعين وقد ذكر « المسبحى » فى تاريخه أن العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله كان أول من بنى الحمامات بالقاهرة وذكر القاضى القضاعى انه كان فى مصر الفسطاط الف ومائة وسبعون حماما وقال ابن المتوج أن عدد حمامات مصر فى زمنه بلغ أكثر من سبعين حماما وذكر ابن عبد الظاهر أن عدة حمامات القاهرة الى آخر سنة خمس وثمانين وستماية تقرب من ثمانين حماما

وأهم الحمامات التى ورد ذكرها فى خطط المقريزى حمام السيدة العمة وحمام الساباط وحمام لؤلؤ وحمام تتر وحمام الذهب وحمام السلطان وحمام خوند وحمام الجيوشى وحمام الرومى وحمام كتبغا الأسدى وحمام القاضى وحمام الحسام وحمام الصوفية الخ

خلجان القاهرة

وكان بظاهر القاهرة عدة خلجان أهمها خليج مصر وخليج فم الخور وخليج الذكر والخليج الناصرى وخليج قنطرة الفخر أما خليج مصر فكان بظاهر مدينة الفسطاط ويمر غربى القاهرة وهو خليج قديم أهمل عصوراً طويلة حتى أعاد حفره عمر بن العاص بأمر الخليفة عمر بن الخطاب وقيل له خليج أمير المؤمنين

وقد ذكر « الكندى » فى كتابه الجند العربى أن عمر حفره فى سنة ٢٣ هـ

وفرغ منه فى ستة أشهر وما برح هذا الخليج متنزها لأهل القاهرة يعبرون فيه المراكب للنزهة الى ان حفر الملك الناصر محمد بن قلاوون الخليج المعروف بالخليج الناصرى وذكر المسبحى ان الحاكم بامر الله منع فى سنة ٤٠١ ه الركوب فى القوارب الى القاهرة فى الخليج وشدد فى المنع وسدت أبواب القاهرة التى يوصل منها الى الخليج وأبواب الطاقات من الدور التى تشرف على الخليج وكذلك أبواب الدور والخوخ

وعن الخليج قال المقريزى

لاتركبن فى خليج مصر الا إذا يسدل الظـــلام
ياســـيدى لا تسر اليه إلا اذا هوم النيـــام
والليل ستر على التصابى عليه من فضله لثـــام

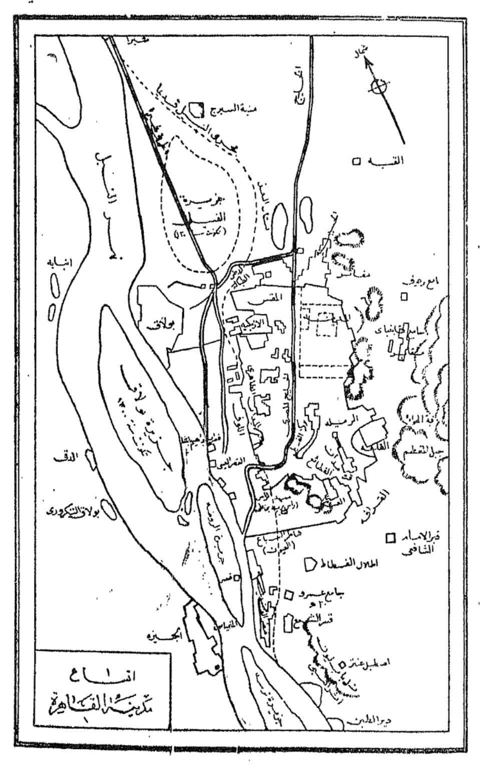
وخليج فم الخور كان يخرج من النيل ويصب فى الخليج الناصرى وقيل أن الذى حفر خليج الدكر هو كافور الأخشيد وكان على خليج فم الخور قنطرة كما كان على خليج الذكر مثلها وهى قنطرة الدكة التى عرفت أيضاً بقنطرة التركمانى .

أما الخليج الناصرى فكان يخرج من النيل ويصب فى الخليج الكبير وقد أمر بحفره الملك الناصر محمد بن قلاوون لتمر فيه المراكب إلى ناحية سرياقوس تحمل مايحتاج إليه من الغلال وغيرها كما انشا قصوره وخانقاه بتلك الناحية وقد بدء بحفره سنة ٧٢٥ ه وجرى الماء فيه بعد شهرين وجرت فيه السفن والغلال وغيرها فسر السلطان بذلك واشترت الأهالى عدة اراضى غرسوا فيها الأشجار كما أخذوا فى العمارة على حافتى الخليج فعمرها بين المقس وساحل النيل ببولاق وكثرت العمائر على الخليج حتى اتصلت من أوله بموردة البلاط إلى حيث يصب فى الخليج الكبير بأرض الطبالة وتنافس الناس فى السكن هناك وأنشأوا الحمامات والمساجد والأسواق وصار هذا الخليج مواطن للفرح ومنازل للهو والقصف إلى أن منعت المراكب منه

وخليج قنطرة الفخر ابتـــداء من بولاق إلى حيث كان يصب فى الخليج الناصرى وقد كانت على تلك الخلجان عدة قناطر منها أربعة عشر قنطرة على الخليج الكبير والخليج الناصرى خمس قنـــاطر وعلى كل من الخلجان الأخرى قنطرة

قناطر القاهرة

وأهم قناطر الخليج الكبير قنطرة السد وهى التى كان يتوصل بها إلى منشاة المهرانى وغيرها من شاطىء الخليج الغربى وقناطر السباع بجانب خط السبع سقايات من جهه الحمراء القصوى وجانبها الآخر من جهة جنان الزهرى وكان اول من أنشأها الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى ونصب عليها سباعا



من الحجارة فقيل لها قناطر السباع وكانت عالية مرتفعة وقد محاها الملك الناصر محمد بن قلاوون وأعاد بناءها بشكل آخر لتنسب إليه وليست لملك آخر وانتهى منها فى سنة ٧٣٥ ﻫ .

وقنطرة عمرشاه وكانت على الخليج ويتوصل منها إلى شاطىء الخليج الغربى وحكر قوسون وقنطرة آق سنقر ويتوصل اليها من خط قبو الكرمانى ومن الحبانيــة إلى شاطىء الخليج الغربى وقنطرة باب الخرق وكان موضعها ساحلا ومورودة للسقايين فى أيام الفاطميين فلما أنشــأ الملك الصالح نجم الدين ميدان السلطانى بأرض اللوق وعمر به المناظر فى سنة ٦٣٩ ﻫ أنشأ هذه القنطرة ليمر عليها الى الميدان المذكور وقنطرة الموسكى ويتوصل اليها من باب الخوخة وباب القنطرة ويمر فوقها إلى بر الخليج الغربى أنشأها الأمير عز الدين موسك قريب صلاح الدين الأيوبى . وقنطرة الأمير حسين وقنطرة باب القنطرة ويمر فوقها الى المقس وأرض الطبلة وأول من بناها القائد جوهر وقنطرة باب الشعرية ويسلك اليها من باب الفتوح ويمشى من فوقها الى أرض الطبلة عرفت فيما بعد بقنطرة الخروبى . والقنطرة الجديدة وقناطر الارز ويتوصل اليها من الحسينية وقناطر بنى وائل التى أنشأها الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة ٧٢٥ ﻫ وعرفت بهذا الاسم لأنه كان يسكن بها عرب بنى وائل وقنطرة الأميرية وهى آخر ما على الخليج الكبير من القناطر بضواحى القاهرة بالقرب من المطرية وكان منشئوها الملك الناصر أيضا

وكانت قنطرة الفخر أول القنــاطر التى عمرت فى الخليج الناصرى بجوار موردة البلاط من أراضى بستان الخشياب وقد أنشأها القاضى فخر الدين ناظر الجيش فى سنة ٧٢٥ ﻫ عند انتهاء حفر الخليج الناصرى . وقنطرة قدادار ويتوصل اليها من اللوق الى شاطىء الخليج الناصرى مما يلى الفيل — وقنطرة الكتبة بخط بركة قرموط وعرفت بذلك لكثرة ما كان يسكن بالقرب منها من الكتاب وقنطرة باب البحر وتوصل الى باب اللوق . وقنطرة الحاجب وتوصل لأرض الطبالة . . الخ وكانت على خليج فم الخور قنطرة المقسى مازال موضعها سدا إلى أن كانت وزارة الصاحب شمس

الدين بن الفرج عبدالله المقسى فى أيام السلطان الملك الأشرف شعبان بن حسين فأنشأ بهذا المكان تلك القنطرة فعرفت به

وكانت من أعظم قناطر مصر قناطر بحر ابو المنجا ولا تزال بعض آثارها لليوم أنشأها السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس فى سنة ٦٦٥ ه وتولى عمارتها الأمير عز الدين إيبك — وقناطر الجيزة وكانت تعد من الأعمال العجيبة فى الزمان القديم وقد احتوت على نيف وأربعين قنطرة عمرها الأمير قراقوش الأسدى فى زمن السلطان صلاح الدين

برك القاهرة وضواحيها

وكانت بالقاهرة ومصر وضواحيهما عدة برك أولها بركة الحبش وكانت فى ظاهر الفسطاط من قبليها بين الجبل والنيل وقد أحياها وغرسها قصباً أمير مصر قره بن شريك العبسى . وقد قال أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسى فى وصفه للبركة « . . واتفق ان خرجنا فى مثل هذا الزمان الى بركة الحبش وافترشنا من زهرها أحسن بساط واستظللنا من دوحها بأوفى رواق فظللنا نتعاطى من زجاجات الأقداح شموساً فى خلع بدور ، إلى أن جرى ذهب الأصيل على لجين الماء ونشبت نار الشفق بفحمة الظلماء

وقد عاين المقريزى هذه البركة أيام فيض النيل كما زارها فى أيام التحاريق وفيها قال :

يابركة الحبش التى يومى بها	طول الزمان مبارك سعيد
حتى كأنك فى البسيطه حبشه	وكان دهرى كله بك عيد
ياليت شعرى هل زمانك عائد	فالشوق فيه مبدىء ومعيد

ومن البرك بركة الشعيبية وكانت تجاور بركة الحبش من بحريها وانقطع عنها الماء وصارت بساتين ومزارع . وبركة شطا وأصبح موضعها كيمان على يسار من كان يخرج من باب القنطرة بمدينة مصر . وبركة قارون وكان موضعها بين جامع ابن طولون وبين الجسر الأعظم الفاصل بين هذه البركة وبركة الفيل وهى من أكبرها

وقال عنها ابن سعيد الرحالة : « وأعجبنى فى ظاهر القاهرة بركة الفيل لأنها

دائرةً كالبدر والمناظر فوقها كالنجوم وعادة السلطان أن يركب فيها بالليل وتسرج أصحاب المناظر على قدر هممهم وقدرتهم فيكون لها بذلك منظر عجيب .

وبركة الشقاف وكانت بجوار اللوق وجامع الطباخ وعدة مناظر منها واحدة للأمير جمال الدين موسى بن يغمور . وبركة السباعين ثم بركة الرطلى وكانت داخلة فى نطاق أرض الطبالة — وكان فى شرقى هذه البركة زاوية فيها نخل كثير وفيها شخص كان يصنع الأرطال الحديد التى تزن بها الباعة فسماها الناس ببركة الرطلى

وبركة بطن البقرة وكانت موجودة بعد أرضٌ الطبالة واللوق . وكانت تجاه للؤلؤه ودار الذهب وبركة جناق وكانت خارج باب الفتوح بالقرب من منظرته وكانت الدور مقامة على حافتها حتى أيام المقريزى . وبركة الحجاج وسميت بذلك الاسم لنزول حجاج البر بها عند مسيرهم من القاهرة وعند عودتهم وبركة قرموط وكانت بن اللوق والمقس وقد ردم جزءا كبيرا منها الملك الناصر محمد بن قلاوون وأدرك المقريزى بها ديارا جليلة تباهى أربابها فى احكام بنائها وتحسين سقوفها وزخرفتها بالرخام والدهان وغرسوا بها الأشجار وأجروا اليها المياه من الآبار فكانت تعد من المساكن البديعة للنزهة ويقول المقريزى عن دورها « ما مررت بها قط إلا وتبين لى من كل دار هناك آثار النعم أما الروائح فتتعالى من المطابخ أوعبير بخور العود أو نفحات الخمر أوصوت غناء أو دق هاونٍ ونحو ذلك مما يبين ترف سكان تلك الديار ورفاهة عيشهم وغضارة نعمهم ثم هى الآن موحشة خراب قد هدمت تلك المنازل وبيعت أنقاضها منذ كانت الحوادث بعد سنة ست وثمانمائة فزالت الطرق وجهلت الأزقة وأنكشفت البركة وبقى حولها بساتين خراب »

وبركة قراجا وكانت خارج الحسينية قريبا من الخندق وعرفت بالأمير زين الدين قراجا التركمانى أحد أمراء مصر أنعم عليه بالامارة السلطان الناصر محمد بن قلاوون

والبركة الناصرية وكانت من جملة جنان الزهرى فلما خربت الجنان صار

موضعها كوم تراب وقد أعاد اليها رونقها الملك الناصر على يد الأمير بيبرس الحاجب . فلما امتلأت بالماء صارت مساحتها سبعة أفدنة فحكر الناس ما حولها وبنوا عليها الدور العظيمة وما برح خط البركة الناصرية عامرا الى أن كانت الحوادث من سنة ٨٠٦ ﻫ فشرع الناس فى هدم ما عليها من الدور

وإنك اليوم إذ طفت بشارع الصليبة وشوارع الغورية فالنحاسين فخان الخليلى فباب الشعرية والجمالية وباب الفتوح وعدت إلى سوق السلاح والدرب الأصفر والدرب الأحمر وما يتفرع عليه من حارات الدردير وحوش قدم والدرب المحروق وذهبت إلى الجبانية أو الخرنفش وبقية هذه المناطق القديمة رأيت فيها المدينة التى طالما تغنى بها كتاب العرب وذكرهاسائحوهاوسماها شعراؤهم مدينة المآذن والقباب وصورها فنانوه أمثال « كارتر » و «سنت جون» و« روبرت هاى » و «باسكال كوست» و « بريس دافنس »

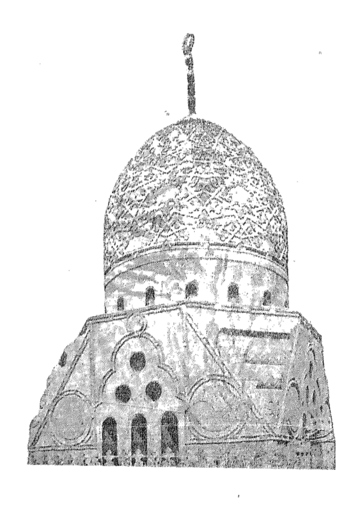
شوارع ضيقة وبيوت متلاصقة إذ ماوقعت باب الخوخة منها رائبها دور الأحواش الفسيحة والرواشن المنمقة والمشارب الجميلة والدواوين والاواوين والمساطب وترى الدار بجوار المسجد بجوار الخانقة بجوار الدكان والمشرب أشبه بلوحة سحرية انزلها فنانها منازلْ السحر والدهشة البسها روح الاستهواء والاعجاب ومن هنا فقط كانت القاهرة الساحرة مهوى أفئدة السياح والرواد ويرى فيها المواطن مجالا للحديث والبحث والتمتع بأخبارها الطلية

انك لو جعلت للقاهرة مكانامن نفسك فمربها بين مسجدى الرفاعى والسلطان حسن مر بميدان القلعة على تلك العمائر والمساجد وانعطف لتقف بين جامعى المردانى وابى حريبة وستظل بدهليز باب المتولى تحت عقد باب زويله فترى أمامك قيسارية « قصبه رضوان » لسقوفها الكتاتنة وجدرانها الحجرية،وحول طرفك عجبا بين جامع الوزيرطلائع بن رزيك والجامع الذى يقابله شرقا وجامع المؤيد يقابله شمالا ومئذنتاها ناشئتان من قربى البوابة كأنهما اذنا الغزال وعد قليلا فى شارع الغورية بين مسجد السلطان الغورى وقبته إلى أن تقف بين القصرين فى ميدان قسم الجمالية وأنت شاخص البصر بين آثارالسلطان قلاوون وبرقوق من مساجد وبيمارستانات وخانقات تسلبك لبك وانت ترى مظاهرها

فاذا دخلتها جلوت سرا من أسرا القـــاهرة لايزال ماء الذهب يسطع ببهجة أيامه السابقة

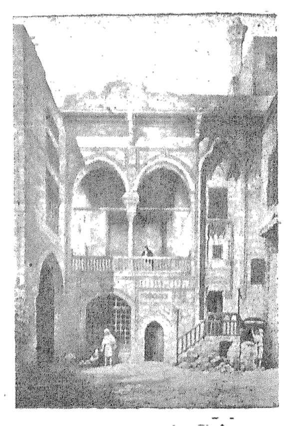
واترك المساجد والمقابر وقصر الخطو على أبواب القاهرة وسورها وسرح طرفك فى قليل من عمائرها ودورها الباقية فانظر دار السحيمى والمسافرخانة ودار خيرالدين ووكالة بازرعة وهى دور أربع متقاربة بحى الجمالية فاسوف تحس الروعة منها وتعطف عليها

لقد اثرت فى القاهرة أشياء كثيرة أهمها فقدانهاالتجارة الهندية وتبعيتهاللترك وسوء حكم الباشوات وبكوات المماليك . كل هذه العوامل مهدت خراب مدينة القاهرةبعد أن تمتعت وابتهجت تحت حكم سلاطين البحرية والشراكسة كما بهرت العالم بمدنيتها وثقافتها ـ وبسبب اضمحلال المدينة اقتصاديا اضمحلت فنونها أيضاً إلى حين .



قبة مسجد قايتباى بالصحراء (٨٧٧ـ٨٧٩ هـ)

قاهرة الباشوات والبكوات



بيت الشيخ الامير

وصفت القاهرة فى عام (٩٢٣ هـ — ١٥٢٦م) فى مؤلف ألمانى نشر فى سنة ٥٧٤م جاء فيه ما يلى :

ان القاهرة (Alcaire) مدينة مصر الكبيرة هى التى ندعوها كيروس (Cairus) ويدعوها العرب مازار (Mazir) أو ميزير (Mizar). وللمدينة ضواحى كبيرة جداً يحتوى بعضها على ثلاثة آلاف منزل والبعض الآخر على اثنى عشر ألف منزل ويقال أن (الكاير) القاهرة تحتوى على نحو ثلاثين ألف منزل وعلى دور كبرى غيرها وللكثيرين من أهلها مساكن كبيرة جدا وفيها قصور ومعابد فخمة عديدة تدعى جوامع وكثير من المستشفيات والمدارس والحمامات التى يستخدمونها لتقديم الضحايا وفاقا لعاداتهم (!) ويوجد فى المدينة عدد لا يحصى من المحاكم والمواخير وفيها أيضا مبان كبيرة يجعل منها الوجهاء مدافن لهم. ويظن حكام القاهره « الظالمون » أنهم يستطيعون أن يكفروا عن ذنوبهم ببناء بيوت عظيمة قريبة من أضرحتهم ووقف مبالغ عليها للفقراء والحجاج والطلبة والنساك. وقد وجدت الفقرات الآتيه فى دليل قديم عن مصر

والقاهرة مدينة جميلة تبلغ أربعة أضعاف مدينة باريس وفيها كثير من

والكنائس شـــوارعها مزدحمة ازدحاما عظيما بالناس والخيل والبغال فلا يستطيع أحد أن يمشى بدون عائق . ويشتغل الصناع أمام المنازل فى الشوارع وقليلون منهم يطهون طعامهم فى منازلهم لأن بعض الناس يبيعون أصناف الأطعمة فى الشوارع مطبوخة أجود طبخ ويوجد فى القاهرة أكثر من ثلاثين ألف طباخا . وقد أرفق المؤلف الألمانى هذا الوصف بخريطة طريفة للقاهرة فى عصره وبين عليها مجرى النيل وتخلله المدينة ونواحى العمران ومحال التسلية وميادين عرض الخيل

القاهرة كما وصفها بعض الرحالة الاجانب

نرى وصف القاهرة فى العصر التركى يدون فى طائفة كبيرة من المراجع العربية والأفرنجية .وفى مقدمة المراجع العربية تاريخ الجبرتى وابن أبى السرور وفى هذين المرجعين يضل الباحث كثيرا لأسباب عدة أهمها ذكر التفاصيل الثانوية عن الحوادث التافهة المسلية وان كان لبعض تلك الحوادث أهمية إذ يستطيع أن يرجع اليها المؤرخ فينتج منها كثيرا من الحقائق أما المراجع الأفرنجية فتنحصر فيما كتبه السائحون الأجانب أثناء زياراتهم لمصر أو التقارير الوصفية التى كتبها بعض الرجال السياسيين وأكثر هذه التقارير ليس ممتعا يصف بجلاء دخائل الأحوال المصرية أو يصف بوضوح ماكانت عليه البلاد فاكثر هؤلاء الأجانب متفرجين يشاهدون عن بعد ويبنون أحكامهم على أسس غير صحيحة وعلى كل حال فان آراء أغلبهم سطحية سريعة . غير أننا سنثبت ما نعثر عليه فى تلك المؤلفات القديمة ونوفق بين آراء كل كتابها حتى نستطيع أن نعطى صورة صحيحة للقاهرة فى أثناء العصر التركى . فان الرحالة الأوربيون لا سيما الذين زاروا مصر فى أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر يذهبون مذاهب شتى فى تخيلاتهم وكتاباتهم عن عاصمة البلاد المصرية فلما وطأت أقدامهم القاهرة وشاهدوا ما وقع نظرهم عليه خابت آمالهم ودكت صروح افكارهم ولم يستطيعوا أن يلمسوا محيط الحياة المصرية ولعل خير مصدر يعطى صورة جيدة للقاهرة حين استولى العثمانيون على مصر هو

كتاب (الحاج الفرنسى) (جريفا أفاجار) (Greffin Affagart) واسمه (Relation de Terre Sainte) وكان قد زار القاهرة عام ١٥٣٤ ووصفها فى عدة صفحات من كتابه قال :

« تقدر مساحة القاهرة بثلاثة أمثال مساحة باريز وهى ذات شوارع ضيقة وملتوية وقصيرة وأكثرها غير منظم ومن هذه الطرقات ما هو مغطى بألواح الخشب أو القماش السميك لشدة حرارة الصيف والتى بسببها يقفل أصحاب الحوانيت متاجرهم فتبطل الحركة ويبقى الناس داخل بيوتهم — وفى أثناء الليل تضاء المدينة بمصابيح يعلقها أصحاب البيوت أمام منازلهم »

« وشعب القاهرة خليط من أجناس العالم وأديانه المختلفة فمنهم الأتراك والمغاربة والعرب والعجم واليهود والمسيحيون واللاتينيون والروم والهنود والأرمن واليعقوبيون والنسطوريون وبالاختصار فان حكومة البلاد تسمح لكل هؤلاء بالمعيشة وهم يتمتعون بقوانين بلادهم لأن القاهرة مدينة الحرية »

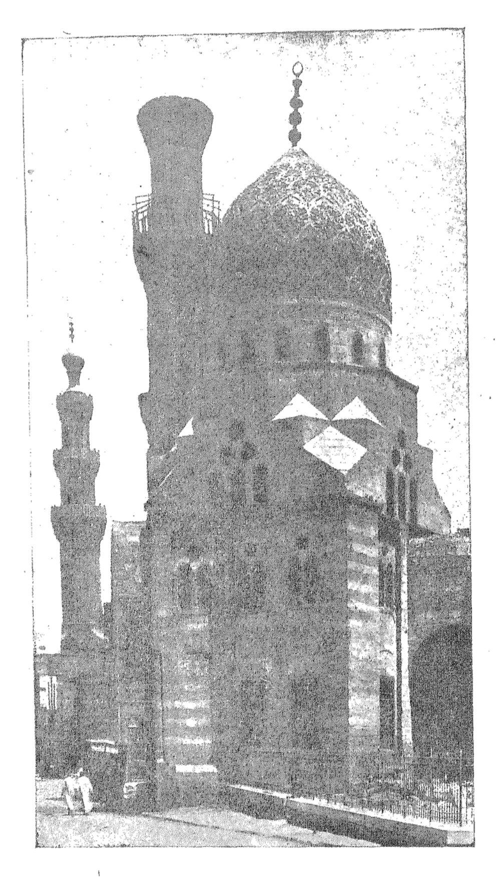
وقد كتب ليون الأفريقى قبل ذلك بعدة سنوات فقال :

والقاهرة زاخرة بالتجار والصناع ولكل أصحاب حرفة من الحرف حى خاص بهم ومقر اصحاب الحرف الرفيعة وتجار الأقمشة والحرائر والأصواف والخردوات الواردة من بلاد الفلاندر وتجار السجاجيد الفارسية خان الخليلى وكان مؤلفا من ثلاث طبقات — وفى القاهرة كثير من محال بيع أنواع الجبن المشبعة بالزيت وحوانيت الشربات فى أوانيها البلورية الجميلة وكذلك حوانيت بيع الفطائر الدسمة والحلوى المصنوعة من عسل النحل أو سكر القصب — وذكر الرحالة (كاربيه دى بنو) (Carbier be Pinon) ان القاهرة أرحب من الآستانة وقال فيرمانل (Formanel) وقد زارها أثناء القرن السابع عشر أن القاهرة كانت معادلة لأعظم المدن الأوربية كما أنها أكثر مدن الامبراطورية العثمانية ازدحاما . أما الرحالة (ديلافالى) (Della Valle) فقدرها تقديراً تفوق به الآستانة وروما وكل البلدان التى شاهدها فى أثناء رحلاته . فلما زارها كوبان (Coppin) وصفها بأنها أصغر من باريس وأقل سكانا على عكس ما ذكرناه

فيما بعـــد تيفنو (Thevenot) . وزار مصر فى القرن الثامن عشر ثلاثة من الرحالة أجمعوا على أن القاهرة تساوى باريز فى المساحة وعدد السكان وأولهم الطبيب جرانجر (Granger) وكان قد استهوته القاهرة كما وصفها اليه صديقه المسيو بينيون قنصل فرنسا فى القاهرة وثانيهم لوماسكرييه (Le mascrier) وثالثهم دانفيل (Danville)— ووضع بروين (Bruyn) مدينة القاهرة فى مرتبة أمستردام أو رومة . فلمـــا أطلع فان أجمون (Van Egmont) على ما كتبوه احتج على تقديراتهم جميعاً لاسيما الذين قالوا بان القاهرة أعظم مدن العالم ودهش كيف أن « لوماسكرييه » قدر عدد سكانها بالملايين

من هذا نرى أن الرحالة لم يتفقوا على مساحة القاهرة فلا نستدل منها على حالتها الحقيقية فى القرنين السادس عشر والسابع عشر فبينما ذكر (هاكلو) (Hakluyt) فى القرن السادس عشر أن محيط القاهرة ٣٣ كيلومترا قال كوربييه دى بنو أن طول القاهرة بدون مصر القديمة هو ١١ كيلو مترا وعرضها خمسة كيلو مترات ونصف . وذكر (فيرمانل) أنها ٣٦ كيلو مترا فى محيطها . وذكر (بوفو) (Beauvan) أن القاهرة وضواحيها محيطها ســـتة وخمسون يخص القاهرة منها أربعون حتى اذا وصلنا الى القرن الثامن عشر وجدنا « بوكوك » (Pococke) وجرانجر (Granger) يقولان إن محيطها لا يزيد عن أربعة عشرة بينما ذكر بروس (Bruce) وبروين (Le Bruyn) أنهما قطعا بعدها الطولى فى ثلاث ساعات مشياً على الأقدام . ولا شك أن ذلك التناقض فى التقـــدير وتضارب الآراء فى الابعاد يجعلنا نعرف الحد الذى يجب أن لا نتجاوزه فى الاطمئنان إلى مثل هذه التقديرات والوثوق بصحتها فيما يتعلق بالقاهرة وغيرها من العواصم التى يذهب بعض الرحالة الى أن فى استطاعتهم إعطاء صـــورة صحيحة عنها بعد إقامتهم فيها مددا تتفاوت فى القصر . فليس كل رحالة يستطيع أن يقدر فى أثناء إقامته القصيرة فى القاهرة ما يجب أن يقوم به الباحث الجغرافى أو المؤرخ الاجتماعى فى شهور وسنوات

كانت مساحة المناطق المزدحمة الآهلة بالسكان من أحياء القاهرة كبيرة لكنها كانت خداعة أيضا فضيق الشوارع يوهم بارتفاع مبانيها المقامة على جانبيها مع أنها



جامع خير بك بالمنشية (٩٧ هـ — ١٥٠٢ م)

تكون عادية العلو. كذلك ندرة مرور الناس فى الطرقات الواسعة أحيانا تجعلنا نتوهم أن المدينة أو الحى خال من السكان وهذه الاعتبارات لم يلتفت اليها أكثر الرحالين

القاهرة فى القرن السادس عشر

شهدت القاهرة فى أيام السلاطين المماليك الذين عرفوا بتشجيع الفنون والآداب وولعهم تشييد العمائر الجميلة فى جميع أنحائها. فلما جاءها الباشوات الأتراك يحملون أوراق تعيينهم من الخليفة العثمانى ليحكموا بلدا لا تربطهم به أية عاطفة وطنية ولا يرون فيه الا مزرعة عليهم أن يحسنوا استغلالها كان لذلك عواقب وخيمة على مصر فبدا الهزال على وجه القاهرة وبدت ضعيفة وأهملت وفقدت جاذبيتها وأصيبت فى أكثر مبانيها وعمائرها التى كانت رمزا لعصورها الزاهرة. وظهرت عليها كل عوامل الفساد ولكن مع ما لحق القاهرة من تشويه كبير فى أيام العثمانيين رأينا بعض المساجد أقيمت وبعض الأسبلة والحمامات والمدارس شيدت وهى التى أقامها بعض الولاة ومشايخ البلد وأعيان المماليك. وكان الوالى يتلو الآخر حتى أمر السلطان سليم الثانى بنقل سنان باشا والى حلب إلى مصر فأهتم بتأييد النظام وحفظ رونق البلاد وبنى فى بولاق شارعا ووكالات وجامعاً لا يزال معروفا باسمه لليوم. وبموته خلفه حسين باشا الذى لم يحكم أكثر من سنة وتسعة أشهر وتبعه مسيح باشا فوجه اهتمامه الى إبطال السرقات وبلغ عدد قتلاه من اللصوص عشرة آلاف — ومن آثاره مسجد عظيم فى ضواحى القرافة عرف باسمه وقد خرب الآن

القاهرة فى القرن السابع عشر

وفى سنة (١٠٢٢ هـ — ١٦١٣ م) أرسل السلطان عشرة آلاف جندى الى اليمن إجابة لطلب حاكمها لأخماد ثورة هناك. أرسل هؤلاء الجنود عن طريق مصر ومعهم أمر إلى الوالى بامدادهم بالمؤونة الضرورية وبوسائل النقل داخل البلاد وتشييع الحملة إلى اليمن. فلما أرسل محمد باشا الملقب بالصوفى لضباطهم ليدفعوا أثمان ما اشتروه ادعوا انهم جاءوا ليقيموا فى مصر وقد راقت لهم

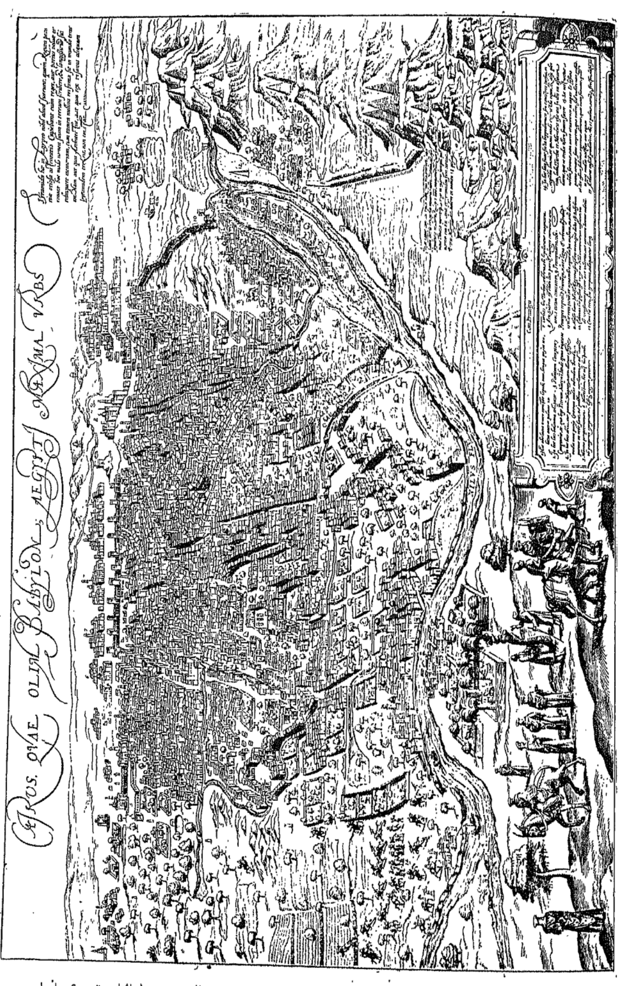
المعيشة فيها . ولم يذعنوا لأوامره بالسفر واحتلوا بالقوة الحى المجاور لباب النصر وباب الفتوح وطردوا أصحاب البيوت منها إلى الشوارع وأقاموا المتاريس فى أبواب الحى وأقفلوا باب النصر وثبتوا المدافع فى برجه . فاضطر الباشا إلى الذهاب إليهم ومحاصرتهم بالقوة وكادت تذهب وسائله أدراج الرياح حتى تمكن أحد امرائه وهو عابدين بك من الدخول إلى صهريج مياه فارغ لأحدى المدارس المجاورة المدعوة بالجانبلاطية وسلط على الثوار نيرانه وهم داخل استحكاماتهم ففوجئوا وسلموا ولكن ذهبت كل محاولته لمعاقبة رءوس الثورة وتسلموا نقودهم وأمروا بمغادرة البلاد فسافروا . وعزل بعد قليل محمد باشا الصوفى فاعتزل فى قبة العدلية ولم يبرحها إلا بعد أن علم بوصوله خلفـــه احمد باشا الدفتردار (١٠٢٤ هـ — ١٦٥١ م) الذى جاء إلى القاهرة ودخلها بموكب حافل . وبينما هو فى موكبه بالمدينة رماه بعض الناس بحجر من سطح بيت فكسر الهلال الذى كان فوق عمامته ولم يؤذه . فضبط الفاعل واعترف بذنبه وقتل فى ذلك المكان وتبعه عدد من الولاة الأتراك من بينهم الوزير (فرغلى مصطفى) و (وجعفر باشا) (ومصطفى باشا) فلم تدم ولايتهم أكثر من بضعة أشهر . ثم بيرم باشا فموسى باشا والوالى حسين الدالى وأيوب باشا وغيرهم ممن لم يكن لهم أى نفوذ . وأخيراً تحولت القوة إلى المماليك البكوات الذين كانوا يعدون أنفسهم من أبناء البلاد وليسوا كباشوات الأتراك الذين أتوا مصر وكان همهم اكتساب الثروة قبل أن يأتيهم الأمر العالى بالعزل . وفى أيام الوالى مقصود باشا (١٠٥٢ هـ — ١٦٤٢م) قاست مصر وباء الطاعون فقد ظهر فى بولاق فى أوائل شعبان ١٠٥٢ هـ . وبعد ذلك امتد الى القاهرة ولم يكن يسمع إلا بالوفيات المتتابعة فى كل ساعة وكانت الجثث تنقل بالعشرات دفعة واحدة فيمر فى الطريق الواحدة أحيانا ثلاثون أو أربعون جنازة . وقد روى ابن أبى السرور وهو من مؤرخى ذلك العهد أن جملة من صلى عليهم من المتوفين فى الجوامع الخمسة الرئيسية فى القاهرة ألفان وتسعمائة وستون فى خلال ثلاثة أشهر وصار الناس فى آخر الأمر يدفنون موتاهم بلا صلاة وعدد هؤلاء لا يقل عن عدد الذين صلى عليهم . أما خارج القاهرة فلم يكن الوباء أقل فتكا وقيل إن مائتين وثلاثين قرية أصبحت خرابا لأصابة سكانها

جميعاً بذلك الداء . وقدر المؤرخ شمس الدين عدد موتى الوباء من أصحاب الحوانيت وعمال الوكالات بالقاهرة بستمائة وثلاثين ألف نفس غير الذين ماتوا من أماكن أخرى وبالرغم من أن هذا التقدير مبالغ فيه إلا أنه يدل دلالة واضحة على فتك الوباء بسكان القاهرة فى تلك السنة . ومما ذكر أيضاً شمس الدين أن عدد النساجين المصريين فى القاهرة وإمبابه والجيزة كان يبلغ فى أيامه ١٧٠٠٠ أكثرهم من المسيحيين

قاهرة الرحالة دى تيفنو

زار الكاتب الرحالة جان تيفنو (de Thevenot) القاهرة بين سنتى (١٦٥٦ ، ١٦٥٨) وذكر عنها فى كتابه عن سياحاته فى بلاد الشرق مايسمح لنا بتكوين فكرة عما كانت عليه القاهرة فى سنة ١٦٥٦ أى منذ نحو ثلثمائة سنة تقريباً . أراد (دى تيفنو) أن يقيس طول القاهرة وعرضها وحجمها فركب حماراً ودار حول المدينة والقلعة فقطع تلك المسافة فى ساعتين وربع ساعة . وفضلا عن ذلك فأنه سار من أول الخليج إلى آخره مشياً على القدمين ليعرف امتداد المدينة . فقال إن طولها بلغ مائة وخمسة آلاف خطوة وجعل كل خطوة قدمين ونصف قدم وأنه رأى حول المدينة بعض أماكن غير مأهولة وبركا متعددة تحيط بها منازل كبيرة

وأشار (دى تيفنو) إلى حى بالقاهرة بالقرب من الطريق المؤدية إلى بولاق أسماه لزبيكه (الأزبكية) وقد ذكر أن الماء كان يظل فيه نحو أربعة أو خمسة أشهر كل سنة وبعد ذلك تزرع أرضه وكانت حوله قصور جميلة للبكوات والكبراء البلاد أقاموا فيه من وقت إلى آخر بضعة أيام طلباً للراحة . وأن كان (دى تيفنو) لم يذهب إلى أن القاهرة كانت أكبر من (باريس) فى ذلك الوقت فقد قال أن الأولى كانت تفوق الأخيرة فى عدد السكان . وقال أيضاً أن الشوارع كانت مزدحمة فى كل وقت بالناس وكانت منازل الفقراء مملوءة بالنساء والأطفال وأنه عندما جرف الطاعون مائتى ألف نسمة من مكانها لم يكد أحد يشعر أن عدد السكان قد نقص — وكتب كثيرون من السياح أنه لم يكن



خريطة للقاهرة نشرت فى مؤلف ألمانى نحو سنة ١٥٧٤ وتبين مجرى النيل وسط القاهرة وعمرانها

للقاهرة سور . ولكن (دى تيفنو) قال انها كانت محاطة بجدران جميلة جدا وكثيفة ومشيدة بحجارة ورأى هذه الحجارة بيضاء ناصعة الجمال كأنها بنيت من عهد قريب . وكان فى تلك الجدران فتحات مزخرفة وأبراج لا يبعد أحدها عن الآخر أكثر من مائة خطوة ويمكن أن يحتشد فيها كثير من الرجال. وكانت الجدران عالية جداً لكن بعضها كان مطمورا بين الأنقاض . وكانت الطرقات قصيرة وضيقة . وإذا استثنى شارع البازار (بالقرب من خان الخليلى) والخليج الذى كان يجف ثلاثة أشهر كل سنة فلا يكاد يوجد شارع كبير فى القاهرة إذ لم يكن فيها سوى أزقة وعطفات . وكانت المنازل تبنى بدون أن يراعى فى بنائها إنشاء مدينة ، فلم تكن هناك لائحة للتنظيم مثلا وكان كل انسان يبنى بيته حيث رغب وكما شاء ذوق مهندسه دون أن يكترث بخط الشارع أو استقامته ويظهر أن (دى تيفنو) حاول إحصاء عدد أحياء القاهرة فلم يستطع ولم يذكر سوى أن كل حى احتوى على عدة شوارع ويحرسه رجلان مربوط كل منهما بالآخر بسلسلة لكى لا يسير كل منهما فى جهة وكان الرجال الذين عهدت اليهم هذه المهمة يقدمون عليها عن طيب خاطر لأنهم كانوا يقبضون أجراً حسناً . وكانت السلاسل تقفل بأقفال تحفظ مفاتيحها عند وكيل حاكم الحى فيفتحها أو يقفلها بواسطة أتباعه . وكان بالقاهرة عدد كبير من الجوامع العظيمة الفخمة البناء ذات الأفنية والأبواب الجميلة والتى تعلوها المآذن العالية الممشوقة القد . وكانت منازل القاهرة مؤلفة من عدة أدوار ولها أسطح مسطحة منظرها من الخارج كان قبيحا لكن داخلها كان مزينا أجمل زينة بالألوان الذهبية والزرقاء لا سيما بيوت البكوات والكبراء إذ كانت دورهم تحتوى على مخادع بديعة وصالات كبيرة مرصوفة بالرخام ومزخرفة بالذهب لها حدائق تتدفق فيها المياه وتندفع نافوراتها إلى علو شاهق . وكانت جمع الأقفال والمفاتيح من الخشب حتى أقفال أبواب المدينة ومفاتيحها فيسهل فتحها بدون وجود المفاتيح . وكان من أجمل شوارع القاهرة شارع البازار الذى كان يقام فيه سوق كل أيام الاثنين والخميس وفى نهاية الشارع كان يوجد شارع قصير عريض اسمه خان الخليلى وهو يحوى على فناء واسع كان يباع فيه الأرقاء البيض رجالا ونساء . أما الأرقاء السود من

الجنسين فكانوا يباعون فى خان آخر على مقربة منه . وعلى مسافة غير بعيدة بعد خان الخليلى كان مستشفى المجاذيب أو المارستان وجامع متصل به من أكبر جوامع القاهرة . وفى هذه النواحى أيضا كانت مصانع السجاد وكان يشتغل فيها عدد عظيم من الناس بينهم كثيرون من الأولاد وكانوا يصنعون سجاجيد جميلة ترسل إلى الآستانة وأوربا ، وكانت مصر القديمة الواقعة على بعد نحو كيلومترين من القاهرة على شاطيء النيل فى حالة خراب على أنه كان لا يزال باقيا فيها كثير من الأبنية الجميلة من أهمها كنيسة أبو سرجيس ودير مار جرجس . وكانت فى مصر القديمة مجرى المياه الذى كان ينقل فيه الماء من النيل للأمام فالقلعة . وفى أعلاه ثمانى سواقى تديرها الجواميس فترفع الماء وتصبه فى حوض كبير يجرى منه نحو القلعة

أسرة الشرايبى

ولم يكن الأمراء وحدهم هم الذين يمتلكون القصور الجميلة فى القاهرة فقد كان من بين قصور الأزبكية قصر التاجر الغنى الشيخ احمد الشرايبى الذى استطاعت أسرته أن تنجب أمراء وأن يكون لها مماليك وأن تشتهر بوفرة الغنى وسعة الثراء . وقد عرف أفرادها كيف يستخدمون أموالهم فيما يفيد . فأمهم أهل العلم والأدب وامتلأت خزائن كتبهم بالمخطوطات الثمينة النادرة وأشهر كتب المراجع . وكانوا يدفعون أى ثمن لأى كتاب يعرض فى الأسواق إذا لم يكن موجوداً فى مكتبتهم فاذا ازدانت به جعلوه تحت تصرف كل زائر يقصدهم . وكان الأديب المثقف اذا رغب فى كتاب قصدهم وهو لا يشك فى أن سيجده فى مكتبة الشيخ الشرايبى وكانت له الحرية بين استعارته أو امتلاكه إذا أراد من غير أن يسأله أحد أعادته الى مكانه . وكان أفراد هذه الأسرة الفاضلة من أشد المتمسكين بمذهب المالكية ويتزوجون من بين أفراد أسرتهم وكانوا غاية فى التحفظ لا تخرج بناتهم من بيوتهم إلا عند زواجهن فتقام لهن حينئذ حفلات حدث عن عظمتها ولا حرج . . اقرأ عنها فى (تاريخ الجبرتى)لتعرف عنها الشيء الكثير ، فقد كانوا على كثير من الحذر لا يظهرون بناتهم أمام الناس

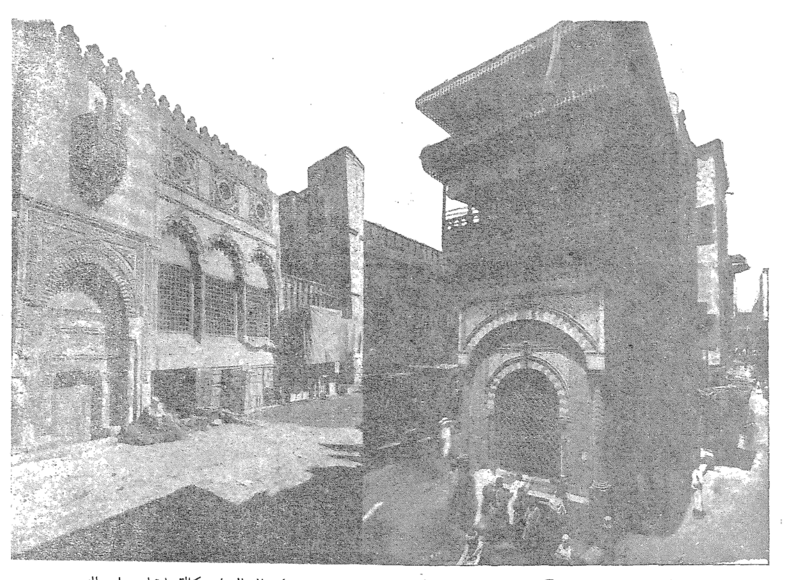
كانوا ينتهزون فرصة صلاة المدعوين فى جامع أزبك (الذى شيـــده الأمير المشهور أزبك طرطوش ومنه اتخذت الأزبكية اسمها وقد هـدم عام ١٨٦٩) المواجه لبيتهم فيأخذون العروس ويسرعون بها نحو زوجها السعيد الى بيتها العامر الجديد تحت حراسة أعوانهم من المماليك والعبيد ثم تطلق الصواريخ ويتقاذف الناس المشاعل بين التهليل والغناء

الحياة العقلية

وعناية هذه الأسرة باقتناء كتب العلوم والدين والآداب المختلفة تلقى ضوءاً ساطعاً نسترشد به عن حال التربية والتعليم فى تلك الأزمان . فلقـــد أنشأت المكتبات العديدة فى القاهرة فى أيام المماليك الأولى وأكثرهم كان منهوبا من مساجد الشام . ويستطاع تكوين فكرة تامة عن الحالة الذهنية خلال القرن السابع والثامن عشر عند ما تقرأ (عجائب الآثار فى التراجم والأخبار) للمؤرخ العلامة عبد الرحمن الجبرتى . فقد ذكر الكثيرين من الشعراء والأدباء والعلماء الذين عاشوا فى مصر

الرحالتان بوكوك ونوردن

وفى أثناء ولاية الأمير أخور مصطفى أغا (١١٥٠هـ — ١٧٣٧م) زار مصر الرحالة الانجليزى القس ريشارد بوكوك (Richard Pococke) وكتب مؤلفه النفيس رحلة للشرق وبلاد أخرى فى سفرين كبيرين. جاء هذا القس العـالم عن طريق الاسكندرية وقصد رشيد لزيارة البطريق (كوسماسى) وتعرف إلى كبار المسلمين ورجال الكنيسة الرومانية الكاثوليك من رهبان الفرنسيسكان وكانت بعوثهم الدينية تحت رعاية الانجـــليز وزار الرحالة مدينـــة المحلة الكبرى وقضى فيها أياما لدراسة أحوال أهلها وأسوارها وآثارها . وزار الفيوم وعاد منها إلى النيل فركب سفينة لمشاهدة بلاد الوجه القبلى وآثاره ـ وفى نفس العام ١٧٣٧م جاء مصر الرحالة (فردريك نوردن) من ضباط البحرية الدنمركية بأمر ملك الدنمارك وكتب عن رحلته كتابه (رحلة إلى مصر وبلاد النوبة) فى ثلاثة أجزاء ويعد مؤلفه من أهم ما كتب فى الرحلات وأدقها وأوفاها وله ملحق مصور فيه



الى اليمين سبيل عبد الرحمن كتخدا بباب الشعرية (١١٥٧ هـ — ١٧٤٤ م) والى اليسار وكالة قايتباى بباب النصر

بعض اللوحات لمدينة الاسكندرية والميناء الشرقية وقلعة قايتباى وقلعة أبى قير ورشيد والبحيرة ومصر القديمة وغير ذلك من بلاد مصر وأقاليمها الهامة — وفى عام ١١٥٦ هـ — ١٧٤٣ م شاهدت القاهرة والياً جديداً هو محمد اليادقجى وكان يريد القيام بحملة إصلاحية. فمنع التدخين وكان يرسل كبير ضباطه على رأس الجند لتصطف فى طرقات القاهرة لتفتيش المارة والقبض على المدخنين أو الذين يحملون الدخان ولا تزال أشد العقاب بمن يضبطونه متلبساً بالجريمة! لكن لم تطل مدة إقامة هذا الوالى واستدعى للأستانة وجاء من بعده راغب محمد ثم الوالى العالم أحمد باشا الوزير الكبير سنة ١٧٤٨م الذى ذكره المؤرخ الجليل الشيخ عبد الرحمن الجبرتى فى عدة مناسبات

قاهرة على بك الكبير (١٧٥٥ — ١٧٧٢ م)

كان قد قدر لقاهرة ذلك العصر الغريب أن ترى عجباً بعد عجب ! فلو أنك من أحياء ذلك العهد وأتيح لك أن تركب طائرة تحلق بك فى جو صعيد مصر إذن لرأيت فى أنحائه وميض نار تشتعل لهيبها وفتنا قد تفاقم شرها . فحكام القاهرة يريدون أن يسيطروا على الأرياف وحكام الأرياف يريدون أن يحتفظوا باستقلالهم الادارى يستمتعون بما جنوه من أموال وخيرات . وبين هؤلاء الحكام حروب لا يخمد لها لهيب والناس لا تعرف من الأمن إلا اسمه . فاذا ما سار التاجر بأسطوله النيلى المحمل بخيرات البلد من منطقة إلى أخرى وجب عليه دفع الأتاوة الى شيوخ قطاع الطرق وهم طائفة أخرى مستقلة عن كل الطوائف اتخذت السلب حرفة أتقنت أساليبها وحصلت منها على الثروات الطائلة وتفننت فيه وأثرت منه . وان لم يفعل أصاب أسطوله النهب والتحطيم . فى ذلك الجو الخانق ظهر على بك الكبير وكان كبقية أمراء هذا العصر مملوكا وكان واحد بين ألفى مملوك للأمير ابراهيم ، لكن كتب له أن يكون له شأن عظيم فى تاريخ مصر . عاش منذ نعومة أظفاره بين مؤامرات الخيانة تطيح برؤوس الأمراء . عاش مملوكا فترة طويلة من حياته تمثل فى سياسته أساليب القسوة والغدر لكنه كان مملوكا أكثر ذكاء وأشد صلابة وأكبر أطماعا من غيره . كان يحبه مولاه

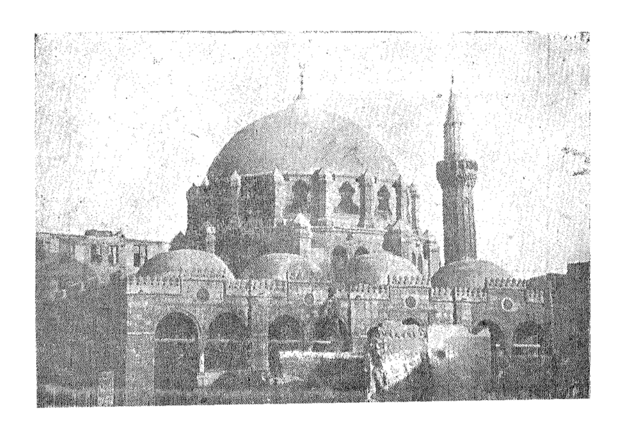
فجعله حامل سيفه وكان الحظ يريد دائما أن يطيعه فصحب سيده مع قافلته الى بلاد النبي وكان قد رقاه كاشفا فسار فى طليعة الركب . وبينما كانت القافلة تسير التقت بها عصابة من قطاع الطرق فقاومهم على بقلب ثابت ودحرهم فلما عاد الأمير ابراهيم إلى القاهرة عزم على مكافأة على برتبة (بك) لكن صغر سنه ودسيسة أحد رؤساء المماليك حالا دون ذلك . وأستمر القدر يخدم عليا حتى تسلم مشيخة البلد فى القاهرة (١١٧٧ هـ — ١٧٦٣ م) وتمثلت فيه صفات الملك فاستطاع أن يستخلص لنفسه حكم مصر كما سنرى وبدأ يتخلص تدريجيا من مزاحميه زعماء المماليك المشاغبين ورقى أتباعه المخلصين وكان أعزهم لديه واحدا منهم أسمه محمد قلده البكوية ثم لقب بأبى الذهب وسنرى أنه لم يكن مثلا حسنا لعرفان الجميل بل أن فضل سيده عليه لم يزده إلا كفرانا بنعمته . ويضيق بنا المقام لو أردنا أن نثبت هنا ماحدث فى أيام مصر أثناء سيادة على بك الكبير لكننا لا يسعنا إلا التنويه باعلانه استقلال البلاد عن الدولة العثمانية فقد انتهز فرصة انشغال الدولة العثمانية بحرب مع الروسيا (١٧٦٨م) وأعلن استقلالها وبدأ ينظم دولته الجديدة فى جميع مرافقها وعين على ماليتها مدير الجمرك القديم المعلم (رزق القبطى) ونظم التجارة الخارجية والمواصلات واستمتعت البلاد فى عهده بالأمن وبشىء من الطمأنينة لم تستمتع بهما فى عهد غيره ونمى فى البلاد نوع من الشعور الوطنى إذ رأت حاكمها العظيم يقطع صلته بالدولة العثمانية (١٧٦٩) ويجعل لمصر مركزاً ممتازاً بين الدول . وفى أيام على بك الكبير مر على القاهرة الرحالة الانجليزى جيمس بروس (James Bruce) فى طريقه إلى (أثيوبيـــا) وقد تقابل مع المعلم رزق الذى كان من المتبحرين فى علم الفلك . فاستفاد الرحالة من علمه كثيراً . ولما جاء إلى القاهرة أرسل اليه هدية منه وأعطى رسوله خطابا دعى فيه الرحالة إلى زيارته فى بيته والاستراحة من عناء رحلته لكى يقوم بها وهو فى أمان واطمئنان . وقد أشار عليه المعلم رزق بأن يقضى أيامه فى القاهرة ضيفا فى حى قلعة بابليون وأوصى البطريك بأن تهيء له بعض الغرف . وبعـــد أيام استأنف الرحالة رحلته النيلية إلى الأقصر ومنها أخذ طريقه إلى القصير فاثيوبيا

عن طريق البحر الأحمر . ولما عاد بعد انتهاء رحلته لم يجد على بك ـ فقد انتقل الحكم إلى مملوكه أبي الذهب كما سيجيء

أبو الذهب في القاهرة

ان قصة المعارك التي دارت بين على بك الكبير ومحمد بك أبي الذهب طويلة وليست من أبحاث هذا الكتاب لكنها تدل بوضوح على ما كانت عليه أخلاق أبي الذهب من نكران الجميل والمكر والدهاء . وقد تمادى على بك في ارسال التجريدات العسكرية للقضاء على منافسه في الشام والحدود . وأخيراً تحصن مع جيشه الباقي عند دير البساتين الذي استولى عليه من الأقباط وجعله حصنا حربياً . وبنى المعاقل والحصون والطوابي من نهاية ذلك الدير الكائن على شاطيء النيل حتى المقطم ووضع المدافع الكبيرة في ذلك الخط الحربي الطويل بين تلك الاستحكامات القوية . ومع كل تلك الاستعدادات الحربية فأن أبا الذهب جاء لمحاربته وتغلب عليه وهزم جيوشه التي خانه أغلبها وانضم إلى جيوش أبي الذهب . دخل أبو الذهب القاهرة دون أن يدير موقعة حربية لأن الأهالي وعدداً كبيراً من الأمراء والمماليك كانوا من أعوانه ولكن مع سنوح تلك الفرصة لأبي الذهب وامتلاكه البلاد بهذه السهولة فأن أول أعماله كانت سلب دير البساتين واضرام النار فيه ثم دخل القاهرة دخول الفاتح المنتصر . ولا شك أن على بك الكبير يعد من بين شخصيات أواخر القرن الثامن عشر لكن اشتغاله بالسياسة وبالحروب التي استلزمتها محاولته الاستقلال بمصر لم تجعله قادراً على تخليد اسمه بما يتركه العظماء عادة بعد وفاتهم من الآثار الجيدة . ولولا تجديده لقبة الامام الشافعي وتشييده سوراً عظيما في بولاق وبنائه سوقا كبيرة وترميمه بعض المساجد والمدارس والسبل والجسور لما ترك أي أثر في أبنية القاهرة وعمارتها . ولولا تلك المخلفات العظيمة التي شيدها أحد أمراء عصره وهو عبد الرحمن لتناسينا عهده وأهملناه من الناحية المعمارية . دخل أبو الذهب القاهرة منتصراً ولكنه لم ينعم طويلا بثمار نصره إذ توفى ودفن بجامعه الذي شيده أمام الأزهر . وكان خاتمة الجوامع العظيمة التي أنشئت في القاهرة في عهد حكم الباشوات

الأتراك . ولقد تمتعت مصر فى ايام أبى الذهب بالكثير من الرخاء والطمأنينة وترك له الباب العالى الأمور تجرى كما أراد . وفى أواخر عام (١١٨٧ هـ — ١٧٧٤ م) شرع أبو الذهب فى بناء مدرسة تجاه الجامع الأزهر . وكان محلها رباعا متخربة فاشتراها من أصحابها وهدمها وأمر ببنائها وهى على طراز جامع السنانية ببولاق ولما تم البناء فرشت جميعها بالحصر ومن فوقها الأبسطة حتى فرجات الشبابيك وقرر فيها التدريس على المذاهب الحنفية والمالكية والشافعية ورتب للمشايخ المرتبات والتعيينات المناسبة . وفى يوم افتتاح المسجد صلى الأمير الجمعة (شعبان ١١٨٨ هـ) ولما انقضت الصلاة أحضرت الخلع والفراوى فألبس الشيخ الصعيدى والشيخ الراشدى الخطيب والمفتيين الثلاثة فراوى سمور وباقى المدرسين فراوى بيضاء ووزع فى ذلك اليوم على الخدمة والمؤذنين الذهب والهدايا ومن آثار عهده أيضاً سبيل السلطان مصطفى بالسيدة زينب وجامع الهياتم وبيت الست حفيظة (سامى البارودى فيما بعد) بباب الخلق . ووكالة أبى الذهب



مسجد محمد أبى الذهب المقابل للأزهر خاتمة مساجد المماليك فى القاهرة (١١٨٧هـ — ١٧٧٣م)

بالصنادقية وسبيل محمد أبى الذهب بشارع التبليطة وسبيل الشيخ المطاهر بالخردجية وقصر المسافرخانة بقصر الشوق (١١٩٣ هـ)

قاهرة عبد الرحمن كتخدا

وليس من شك فى أن عبد الرحمن كتخدا يعتبر فى مقدمة الساعين فى تجميل وتعمير القاهرة . ورث عن أبيه عثمان كتخدا ميوله الفنية بل وبزه فيها أيضا فقد جمع فى أكثر مبانيه الجمال وروعة الفن . ويتجلى ذلك فى سبيله الواقع فى ملتق شارعى النحاسين والجمالية والمعروفة باسمه حتى اليوم . وأنشأ عند باب الفتوح مسجداً له منارة وصهريج وكتاب . وأنشأ بالقرب من قرافة الأزبكية سقاية وحوضا لسقى الدواب وكتابا . كما أنشأ وزاد فى مقصورة الجامع الازهر مقدار النصف طولا وعرضا . ويشتمل على خمسين عامودا من الرخام تحمل مثلها من البوائك المرتفعة المتسعة المشيدة من الحجر المنحوت . وبنى به محراباً جديداً وأقام له منبرا وأنشأ له بابا عظيما جهة حارة كتامة وبنى باعلاه مكتبا بقناطر معقودة على أعمدة من الرخام لتعليم الأيتام من أطفال المسلمين القرآن وبنى المدرسة الطيبرية وجعلها مع مدرسة الاقبغاوية المقابلة لهـا من داخل الباب الكبير من أحسن المبانى فخامة وعظمة . كما أنه بنى المشهد الحسينى وأنشأ عند باب البرقية المعروف بالغريب جامعا وصهريجاً وحوضا وسقاية ومكتبا . وشيد جامعاً بجهة الازبكية ومكتبا وحوضاً وميضأة وساقيـة ومنارة . وبنى مشهد السيدة زينب بقناطر السباع ومشهد السيدة سكينة والمشهد المعروف بالسيدة عائشة بالقرب من باب القرافة والسيدة فاطمة والسيدة رقية . وعمر المدرسة السيوفية وجدد الماريستان المنصورى وغير ذلك من المساجد والأسبلة والقناطر والجسور التى شيدها خارج القاهرة

ومن عمائر عبدالرحمن كتخدا دار سكنه بحارة عابدين وكانت من الدور العظيمة المحكمة الوضع والاتقان لم تماثلها دار بمصر فى حسنها وزخرفة مجالسها وبابها بالنقوش والرخام والقاشانى والذهب المموه وأنواع الأصباغ . وغرس بها بستاناً بديعاً بداخله قاعة متسعة مربعة الأركان بوسطها نافورة مفروشة

بالرخام وأركانها مركبة على أعمدة من الرخام الأبيض . وبلغ عدد المساجد التى أنشأها وجددها وأقيمت فيها الخطبة والجمعة والجماعة ثمانية عشر مسجداً خلاف الزوايا والأسبلة والسقايات والمكاتب والأحواض والقناطر . وكان له فى هندسة المبانى وحسن وضع العمائر ملكة يقتدر بها على مايروم من الوضع ولو لم يكن له من المآثر إلا ما أنشأه فى الجامع الأزهر من الزيادة والعمارة التى تقصر عنها همم الحكام لكفاه

عظم شأن عبدالرحمن حتى بدأ أمر « على بك الكبير » يستفحل فأخرجه منفيا الى الحجاز . وذلك فى أوائل ذى القعدة (١١٧٨ هـ) فأقام بالحجاز اثنتى عشر سنة حتى أحضره يوسف بك أمير الحج فى (١٧ صفر سنة ١١٩٠) بعد أن استولى عليه العى والهرم فدخل إلى بيته مريضاً وأقام فيه أحد عشر يوما ومات ودفن بالمدفن الذى أعده لنفسه بالأزهر عند بابه القبلى وسار فى جنازته العلماء والأساتذة والطلبة وجميع الذين استفادوا من خيراته ونعمه وإحساناته

ثقافة القاهرة فى العصر التركى

كان الأزهر المعهد الوحيد الذى تدرس فيه العلوم ولولاه لانطفأت آخر شعلة للعلم فى مصر ، ولقد ظلت الآداب العربية إلى عهد السلاطين البحرية والشراكسة حافظة مكانتها التى كانت لها من قبل . واليهم عاد الفضل فى إنقاذ اداب اللغة العربية من غزوات المغول . وكانت مصر ملجأ الناطقين بالضاد ممن فروا أمام التتار فى العراق وفارس والشام وخراسان . واستظلت العلوم والآداب برعاية الملوك والسلاطين فى مصر ونبغ فيها طائفة من الشعراء والأدباء والعلماء . واستضافت مصر فى ذلك العصر جماعة من أئمة العلم والفلسفة فى الشرق كالامام ابن تيمية وفيلسوف المؤرخين ابن خلدون

أما فى عهد الولاة العثمانيين والبكوات المماليك فقد اضمحلت الآداب وخمدت القرائح وأصبحت القاهرة بعد إن كانت مدينة خليفة المسلمين وعاصمة دولة مستقلة أصبحت عاصمة لولاية تابعة للأستانة . وصارت مخاطبات السلاطين والولاة باللغة التركية واندثرت المدارس التى كانت زاهرة فى عصور الفاطميين والأيوبيين

وخلفائهم السلاطين البحرية والشراكسة وتبددت خزانة الكتب التى أنشأها الفاطميون ولم يبق منها إلا بعض المكتبات الملحقة بالمساجد . وآلت بعض المدارس الفخمة والمبانى العظيمة إلى زوايا صغيرة تغلق فى أغلب الأيام كما أن بعضها قد زال وصار زرائب أو أحواشا

القاهرة خلال الحكم التركى

دخل الأتراك مصر فوجدوا مدينة منشأة تزدحم بالقصور والعمائر والمساجد والوكالات والمدارس والقلاع فكان من المنتظر أن يزيدوا وينشئوا فيها لكى تصبح جوهرة إمبراطوريتهم لكنهم أهملوها بعد إن كانت لها هيبة مجيدة

فمن الشمال وراء السور القاهرى شيد فقراء المماليك طائفة كبيرة من البيوت التى التصقت بالسور فاختفت معالمه فى تلك الجهة . وتكون بالتدريج حى الحسينية وما كاد ينمو حتى وصل الأتراك إلى مصر فخربوه تقريبا ولكن بعد مضى زمن عمر الحى مدة أخرى . ومما ساعد على النهوض إشرافه على الخليج من جانبه الغربى وكثرة البساتين التى أنشئت على بركة الرطلى . ولم يبق جامع الظاهر خارجا عن حدود المدينة فقد إمتدت إليه العمارات وبدا على ذلك الحى طابع ارستقراطى

هذا التوسع كان فى غربى الحسينية . أما فى شرقيها فكانت لاتزال المساكن الوضيعة باقية بالقرب من مدافن باب النصر وبجانبها تلال القاذورات المتراكمة منذ أجيال

ولم يصب قلب القاهرة تطور أو تغيير فقد ظل على ما هو عليه حتى أواسط القرن التاسع عشر ولم يعكر صفو ساكنيه سوى معارك الجند والمماليك بين الفينة والفينة . والظاهر أن حى باب اللوق لم يصبه ما أصاب الأحياء الأخرى من التخريب والدمار ـ كانت تحيط به من شماله جملة برك وفى جنوبه مدافن وفى شرقه مجموعة من المروج وبركة الفرايين ، وأشتمل هذا الحى فى وسطه على ميدان واسع يطل على قصر الأمير يشبك ومدرسته التى عرفت باسمه كما شيدت بعض المراقص وبيوت اللهو وأماكن يجتمع فيها أهل الشعوذة . وكان حى باب اللوق يشبه جزيرة مستطيلة معزولة عن المناطق المتعددة القريبة منها .

أما جنوبى حى بولاق فكان المار فيه يسير بين المقابر والمزارع وعلى يساره امتداد المدينة محاذيا للخليج الكبير مارا بين بركتى السقايين وأبى شمعة . فاذا اجتاز قناطر السباع رأى الخليج التف نحو الغرب متخذا مجراه الى الحقول التى لا تبعد كثيرا عن قصر العينى . وفى القرنين السابع عشر والثامن عشر ازدحم حى السيدة زينب بالسكان وكان يحده الخليج من الغرب وبركة الفيل من الشرق وأطلال الأتربة والأنقاض من الجنوب

واستجدت منطقة بين بركة الفيل والقلعة .. حى ابن طولون ، مركزها جامع ابن طولون القائم على جبل يشكر . وكانت تعلو أكماته كلما ازدادت الأنقاض وألقيت بقايا الخرائب . وبالنسبة لأهمية أكمات جبل يشكر من الناحية العسكرية فى ذلك الوقت أصبحت ملتقى الطوائف السياسية ووكرا لاجتماعاتهم . وبالاختصار فان هذا الحى فى مجموعه لم يتغير إلا قليلا عن حاله التى كانت عليه منذ القرون الوسطى إذا استثنينا بعض الجهات القريبة من القلعة وجامع السلطان حسن . فقد اختفى سكانها الأغنياء بعد أن أفزعتهم حركات المشاغبين . وفى ذلك الحى بميدان الرميلة وحول جامع السلطان حسن وقره ميدان قامت الحوانيت الفقيرة تستند على جدران القلعة أو جامع السلطان حسن . وبتوالى الأيام تحولت منازل الأغنياء الى أحواش سكنها الرعاع أما أغنياء الحى فقد هجروه الى منطقتى بركة الفيل أو الأزبكية اللتين اصبحتا المقرين المفضلين لدى الأمراء والخاصة

وفى ذلك الزمن كانت القلعة دائما مدينة قائمة بذاتها تتمتع بعزلة مستقلة لها مساجدها وميادينها وبيوتها وحماماتها ومقابرها . فيها بيت المال ومسكن الباشوات وفرقة العزب ورجال الانكشارية . هذه القلعة المنيفة التى بلغت ما بلغت من المجد فى أثناء حكم سلاطين المماليك ثم بدأت تفقد بالتدريج مكانتها الأولى . نتيجة لأهمال حكامها من الولاة الأتراك الذين كانوا لا يستقرون بالبلاد مدة حتى تصلهم أوامر الباب العالى بالعودة أو بتقلد ولاية أخرى فى ولايات آل عثمان فلم يكد ينتهى القرن الخامس عشر حتى آلت أكثر منشئات قلعة الجبل إلى الخراب

فقدت القاهرة فى خلال القرن الخامس عشر أهم عنصرين لهامكانتها الحقيقية وسكانها ، فقد أذعنت مضطرة للأستانة وتنازلت عن أهميتها الروحية كمقر لخليفة المسلمين . وفقدت أهميتها التجارية وأصبحت إحدى مدن ولاية كبيرة وكانت عاصمة سلطنة ذات سيادة . فصارت ضئيلة فى أعين الشرق والغرب كما أنها لم تعد أكثر من مدينة قديمة ذات آثار نفيسة وذكريات عزيزة . وحلت على أرضها الأوبئة وأصبحت فريسة لقطاع الطرق واللصوص ولم ينتشلها من فئة الطغاة غير المصلح العظيم محمد على باشا

ومن ناحية أخرى كثر فى العصر العثمانى بنايا تكايا الدراويش والأسواق والوكالات وشيد أغنياء القرن الثامن عشر كثيرا من البيوت والقصور الأنيقة وجواسق النزهة على شاطىء النيل أوعلى الخليج المصرى . وكانت بركة الأزبكية وبركة الفيل تحيط بها القصور الفخمة تلك التى لا تعرفها قاهرة اليوم . ولقد وصف الجبرتى فى تاريخه المشهور تلك البيوت وزخرفتها ورسومها ومجالسها . كما أن قصور المماليك التى كانت لا تزال قائمة فى أيام العثمانيين جذبت أنظار الرحالة الذين شاهدوها (١)

ولا تزال بقايا تلك القصور السامية قائمة فى القاهرة لليوم . ففى حى الجمالية وباب الشعرية بيت الشيخ احمد موسى وبيت الشيخ محمد أمين السحيمى بالدرب الأصفر عام (١٦٤٨م) وبيت البكرى بالخرنفش (١٢٦٥هـ — ١٨٤٨م) الذى أعيد تشييده فى عهد والى مصر عباس باشا الأول . وقصر المسافرخانة الذى ولد فيه الخديو اسماعيل (١٧٧٩ — ١٧٨٩ م) بدرب المسمط

وفى حى الدرب الأحمر نجد بيت جمال الدين الذهبى بحارة خوش قدم (١٠٤٧ هـ — ١٦٣٧ م) وبيت زينب خاتون بعطفة الأزهرى . ولا تزال واجهة بيت رضوان بك بالخيامية باقية كما كانت عليه فى القرن السابع عشر كذلك ومقره بالخيامية . ونذكر أيضا بيت حسن عبداللطيف بشارع الغندور الذى يعد بين مبانى القرن الثامن عشر وبيت الشيخ مصطفى شابى سنان بسوق السلاح

(١) راجع مقال « الدار الاسلامية فى مصر » للمؤلف — نشرها فى مجلة المقتطف — المجلد التاسع والتسعين بالعدد الثانى — يوليو ١٩٤١

أما فى خط الخليفة والسيدة زينب فنجد من هذه المنازل بيت على افندى لبيب بدرب اللبان وقد بنى فى القرن الثامن عشر . وقصر يشبك أو قصر بردق بشارع المضفر وبقايا قصر الأميرطاز بالسيوفية وبيت وسبيل الست الجردلية الملاصق لجامع ابن طولون (١٠٤١ هـ — ١٦٣١ م) وبيت السادات الوفائية بشارع السادات وبيت ابراهيم كتخدا السنارى بحارة مونج بالسيدة زينب

وفى شارع غيط العدة بالقرب من باب الخلق لا تزال سراى سامى باشا البارودى (بيت الست حفيظة) قائمة وهى من مخلفات أواخر القرن الثامن عشر (١٢٠٦ هـ — ١٧٩١ م) وهى تحفظ جانباً من رونقها القديم

تذكرنا هذه القصور الشامخة برجالات القاهرة فى مختلف أيامها فتعيد إلى مخيلتنا صورة شرقية لعاصمة وادى النيل

نابليون بونابرت فى القـــاهرة

ونريد الآن أن نعرض صورة للقاهرة حين قدم إلى مصر نابليون بونابرت على رأس جيش الشرق . فقد كانت تمتد حدودها الشمالية بين حى الحسينية وباب الحديد وجنوباً بين القلعة إلى باب عرب اليسار إلى باب السيدة عائشة إلى جامع السيدة نفيسة فباب طولون فباب البغالة فباب السيدة زينب . وشرقا من القلعة فباب الوزير فالغريب فباب الحسينية . وغرباً من الحدود إلى الأزبكية فباب اللوق فباب الشيخ ريحان فالناصرية فباب السيدة زينب . وكان موقع القاهرة يبعد أكثر من ألف متر عن شاطىء النيل وبينها وبينه مزارع . وكانت بولاق تعد من ضواحى العاصمة كما كانت مصر القديمة . وكانت الطريق بين الناصرية ومصر القديمة مقفرة من المساكن ليس بها إلا مزارع وحدائق . وقد قامت على شاطىء النيل بعض مبان قديمة كقصر ابراهيم بك (قصر العينى) تجاه الروضة وبجواره بيت لمحمد كاشف الأرناؤوطى وعلى شماله بيت لمصطفى بك وكان جامع الظاهر خارج مبانى القاهرة

واتفق أكثر الرحالة الذين جاءوا إلى مصر فى تلك الآونة على أن شوارع القاهرة كانت ضيقة كثيرة التعـــاريج وكان أطولها الشارع الموصل بين باب

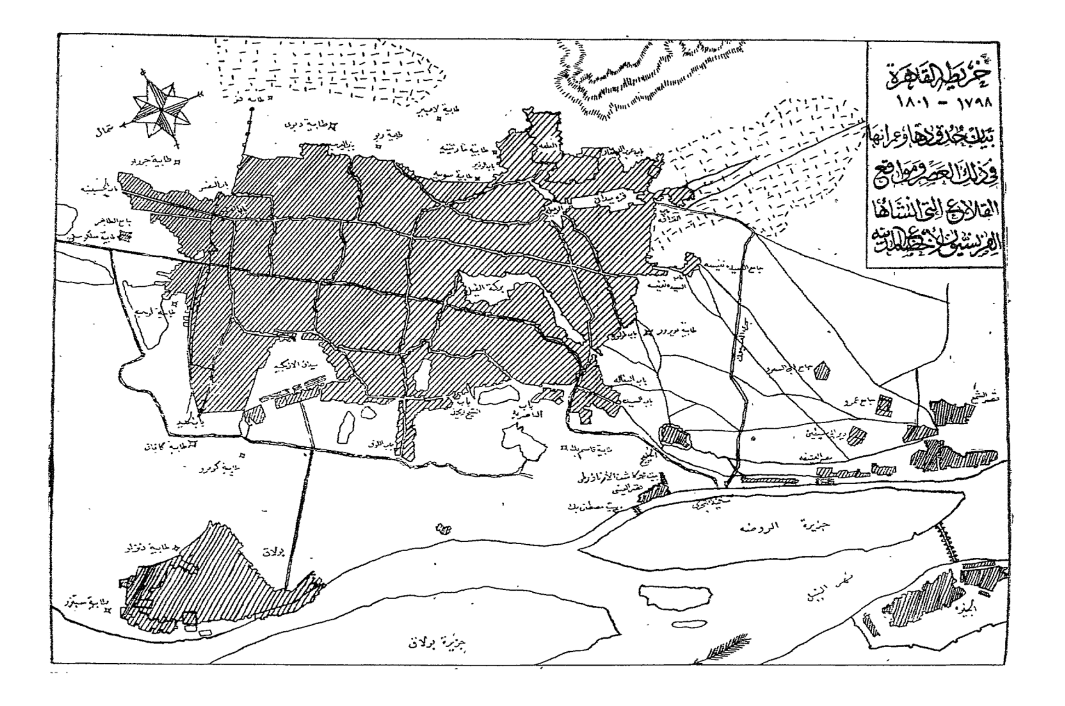
الحسينية إلى باب السيدة نفيسة وطوله أربعة آلاف وستمائة وأربعة عشر مترا.
ولم يكن بالقاهرة سوى أربعة ميادين هى : ميدان قره ميدان تحت القلعة وميدان الرميلة المجاور لقره ميدان يفصلهما باب اسمه باب قره ميدان وميدان بركة الفيل وميدان الأزبكية ويسمى بركة الأزبكية

وبوصول الحملة الفرنسية كانت البيوت الشاهقة قد تقلص عددها وانحطت هندستها وبدت على عمارتها مظاهر الفاقة وصعبت طرق مواصلاتها وطغت مؤامرات الاستبداد فأهملت مرافق البلاد الاقتصادية وفقدت القاهرة حيويتها وأصبحت احياء باب الخلق والأزهر والخنفى والموسكى والسيدة زينب مقرا لمظاهر البؤس البشع مما أثر فى نفوس الرحالين «تيفنو» و«سونينى» و«فولنى» وأما من الناحية الفنية فان عصر الازدهـــار التى نعمت به فى عهد السلاطين المماليك كان قد ولى وعفى أثره ولم يكن الفن قد اندثر تماما إنما كانت لاتزال بقاياه موجودة فى تلك المبانى التى خلفها بعض الأتراك كسبيل خسرو باشا وبيت جمال الدين وبعض المساجـــد التى تدل على ذوق فنى

وكان ميدان الأزبكية أو بركة الأزبكية كما كانوا يسمونها أجمل الميادين الأربعة تحيط بها القصور البديعة يسكنها الأمراء والأعيان. وفى أيام الفيضان تمتلىء بمياه النيل فتصير لجة من الماء يتنزه فيها الناس بالزوارق فى النهار والمساء والليل. وتوقد المصابيح فى البيوت المطلة عليها فيكون منظر البركة من أبهج المناظر ولا سيما فى الليـــالى القمرية

دخل نابليون القاهرة يوم ٢٤ يوليو ١٧٩٨ فمكث فيها حتى رحل الى سوريا فى اليوم العاشر من فبراير ١٧٩٩. وفى تلك الفترة لم يغب عن القـاهرة سوى مرتين : المرة الأولى فى أثناء مطاردته لابراهيم بك والمرة الثانية لما قصد سيناء مع بعثة من رجاله العسكريين والعلماء لاستكشافها وجعل نابليون سكنه ومقر رئاسة الجيش العامة فى قصر محمد بك الألفى من زعماء المماليك

وكان هذا القصر بخط الساكت الذى لم يكد يتم تشييده وتأثيثه حتى فوجئت مصر بحملة نابليون. فكأن الألفى قد بناه لامبراطور فرنسا. وكان يتألف من ثلاثة مربعات كبيرة من المبانى الجميلة تفصل كل منها عن الآخر الحدائق الغناء.


خريطة القاهرة
١٧٩٨ - ١٨٠١
تبين حدودها وعمرانها
في ذلك العصر ومواقع
القلاع التي أنشأها
الفرنسيون لإخضاع المدينة
شمال
جزيرة الروضة
جزيرة بولاق
بولاق
بحر النيل
الجيزة
بركة الفيل
بركة الأزبكية
القلعة
قره ميدان
باب الحديد
باب اللوق
جامع عمرو
قصر الشمع
مصر العتيقة
طابية كومرو
طابية قاسم بك
طابية دزو
طابية سوبه

وكانت واجهة القصر الرئيسية تشرف على النيل . ويظهر أن نابليون لم يشأ فى بادىء الأمر أن يعدل كثيراً فى بناء هذا القصر لكى يصير مطابقا لحاجته . لكنه طلب أخيراً فى فبراير ١٧٩٨ من الجنرال «كافاريللى» كبير مهندسيه العسكريين أن يدرس تشييد سلم قليل الكلفة لايتجاوز نفقات إقامته ألف وخمسمائة فرنك . وكان الدور الأول من القصر يشتمل على بهو فاخر جداً أقام فيه نابليون الاحتفال بعيد الجمهورية الفرنسية حيث أعد وليمة دعا إليها مائة وخمسين مدعواً . وفى نهاية هذا البهو كان يوجد الديوان المستطيل ، وكانت جدرانه عارية من الزخرفة والنقش على الطريقة التركية ولكنها زينت فيما بعد باللوحات الفنية الأنيقة التى أبدع فيها النقاشون والرسامون الفرنسيون فكنت ترى صور مشاهير المشايخ يعمل على إخراجها «دوترتر» وريجو وغيرهم من مشاهير الفنيين

وقد تغالى الفرنسيون فى بدء الاحتلال فى الاعتداء على الممتلكات ومن فيها من القاطنين الهادئين . فقد وضعوا أيديهم على قصر الأمير حسن كاشف جركس بالناصرية ونهب الغوغاء قصرى الأميرين ابراهيم بك ومراد بك بخط قوصون وأحرقوا أجزاء منهما . ووزع نابليون قصور أمراء المماليك وكبار الأعيان على كبار قواد جيشه فسكن الجنرال «ديبوى» قصر ابراهيم بك فى بركة الفيل وسكن الجنرال «كافاريللى» وزميله الجنرال «ديترى» فى بادىء الأمر بيتا مطلا على الأزبكية . ولم يتسع ذلك البيت لحاجتهما فغادراه الى بيت رحب كان يمتلكه الأمير رضوان وسكن العالم الكيماوى «برتوليه» بيت يحي كاشف الكبير بحارة عابدين

وبعد أن انهزم الفرنسيون فى معركة أبى قير أمروا باقصاء كثيرين من أصحاب البيوت عن بيوتهم بحجة حاجتهم اليها كما هدموا كثيرا من المبانى والآثار والمساجد لتحصين القاهرة

أصبحت المدينة مسرحا للمعارك الدموية والفوضى والهياج . فهنا فصيلة من الجند ثائرة لأنها لم تتسلم مرتباتها . وهناك فرقة أخرى هجمت على بيوت

الأغنياء والخاصة للخطف والنهب . ولا تكاد الأسواق تفتح أبواب حوانيتها لعرض متاجرها حتى تفاجأ بشرذمة من مماليك بعض البكوات الذين ينتقمون لأمير آخر فيسلبون وينهبون. وفى ناحية أخرى من المدينة كانت الأمراض والأوبئة تسرى بنشاط فتلق بضحاياها المساكين فى الطرقات وعلى أسطح البيوت والأطلال وتبعثر جثث القتلى فى كل مكان .

وشاهد السائحون الذين وفدوا على البلاد فى تلك الآونة ومنهم « كلارك » « وهنيكر » « وويتمان » — تلك المصائب التى فتتت الأكباد ودونوا مشاهداتهم فى كتب رحلاتهم . وقد بقيت الأزبكية وبركة الفيل عشرات السنين أكواما من الأنقاض واتخذها الفقراء ملاجىء أقاموا بين أنقاضها بعد أن كانت قصور اللعظمة والجاه. كذلك كانت الجيزة والروضة ومصر القديمة (١)

القاهرة والاعتبارات العسكرية

ساور سكان القاهرة قلق شديد عندما رأوا الضباط المهندسين يتولون الهدم ولما كانت شوارع القاهرة وأحياؤها مفصولة بعدد كبير من الأبواب الكبيرة راى القائد العام أن تلك الأبواب الثقيلة تعطل انتقال الجنود فى أحوال الفتنة والثورات فأمر بهدمها وبدء بهدم جزء كبير من خط الحسينية وخارج بابى الفتوح والنصر . وقرب مسجد الجنبلاطية المجاور للباب المذكور . ورمم الفرنسيون سور المدينة وأوصلوا بعضه ببعض البناء ورفعوا بعض أجزائه وزادوا فى تحصين أبراجه كما أقاموا المتاريس والأسلاك الشائكة وسدوا باب الفتوح بالبناء وكذلك باب البرقية والباب المحروق وأقاموا المعاقل فى أهم طرقات القاهرة وأصلحوا قلعة الجبل وزادوها مناعة . وهدموا مسجد المقسى والكزرونى بالروضة وآخر بامبابة وجامعا كان بجوار قنطرة الدكة فضلا عن سلسلة القلاع التى أحاطوا بها القاهرة وأهمها طابية « ديبوى » التى أقيمت على رابية القلعة للاشراف على حى الأزهر وقد عرفت باسم قلعة الغريب وطابية «سلكوفسكى» التى أنشأوها فى جامع الظاهر واتخذوا مأذنته مرصدا للاستكشاف ، وطابية « كامان » بالقرب من قنطرة الليمون وطابية « مويرور » فى حى طولون وطابية

---

(١) راجع كتابنا « القاهرة » الجزء الثانى — فصل قاهرة نابليون بونابرت ص ٩٢—١١٧

الناصرية فوق تل العقارب قريبا من دار المجمع العلمى وعرفت باسم طابية قاسم بك وقد بلغ عدد القلاع التى أنشأها الفرنسيون فى خلال الاحتلال الفرنسى تسع عشرة قلعة وحصن نابليون جزيرة الروضة فوضع بطاريات من المدفعية فى كلا طرفيها وجعل من المقياس شبه قلعة . وحصن شاطىء النيل مقابل الجزيرة لحماية الملاحة النيلية وجعل فم المجراه طابية حصينة سميت طابية المجراة (أو السبع السواقى) وجعل قصر ابراهيم بك (قصر العينى) مستشفى عسكريا حصينا يسع الف مريض وجريح وألحق البيت الذى كان بجواره وقد عرف وقتئذ ببيت محمد الكاشف الأرناءوطى وجعله مخزنا ومصنعا لفرقة الهندسة

بين الاصلاح والتحصين

ولما هدأت الحال بدأ بونابرت فى تنفيذ برنامجه الاصلاحى فى القاهرة . فأنتهز فرصة الهدوء التى خيمت على المدينة وأمر فردمت بعض الجهات المحيطة ببركة الأزبكية والأماكن المقابلة لمسكنه فجعلوها رحبة متسعة وهدموا الدور المقابلة لها من الجهة الأخرى وماخلفها من الحدائق فقطعوا أشجارها وأستقرت أنقاضها فصارت طريقا معبدا الى قنطرة المغربى التى جددها الفرنسيون . وبنوا جسرا ممتدا من الأزبكية إلى بوق وحفروا إلى جانبى ذلك الجسر من مبدئه إلى نهايته خندقين وغرسوا بجانبه أشجارا وسيسبانا كما أحدثوا طريقا أخرى فيما بين باب الحديد وباب العدوى عند المكان المعروف بالشيخ شعيب

ومن الشوارع التى أصلحها الفرنسيون شارع الفجالة الذى كان يصعب السير فيه وقد أصبح ممتدا من باب الحديد إلى باب العدوى ومهدوا طريقا مستقيما غرسوا على جانبيه الأشجار من الأزبكية إلى بولاق يبلغ طوله ١٢٠٠ مترا يبدأ من قنطرة المغربى ويتجه إلى بولاق رأساً ويتفرع بقرب بولاق إلى فرعين الأول إلى طريق أبى العلاء والثانى إلى التبانة وساحل النيل

وأقام الفرنسيون مسرحا لتمثيل الروايات تم انشاؤه فى عهد الجنرال « مينو » وهو الذى سماه الجبرتى « كمرى » والمقصود « كوميدى »

وكان من أهم أعمال الفرنسيين فى القاهرة أنهم أقاموا جسراً من السفن

يصل بين قصر العيني والروضة وجسراً آخر بين الروضة والجيزة وقد أعجبوا بجمال جزيرة الروضة وحسن موقعها حتى فكر نابليون فى جعلها مقراً للجالية الفرنسية ولكن مشروعه لم ينفذ

وقد حدثت عدة حوادث فى القاهرة بعد سفر بونابرت الى الشام وعاد العثمانيون إلى القاهرة بقيادة نصوح باشا ولكن الجنرال كليبر انتصر عليه بسهولة وانسحب من حيث أتى ثم شبت نيران الثورة فى القاهرة بزعامة السيد عمر مكرم نقيب الأشراف والسيد احمد المحروقى كبير التجار والشيخ الجوهرى واستمرت عدة أيام . حتى اذا كان اليوم الرابع عشر من شهر ابريل عام ١٨٠٠ أنذر الجنرال كليبر العاصمة بالتسليم . ولما لم يعبأ الثوار بالانذار هجم الجنود الفرنسيون صبيحة اليوم الخامس عشر على حي بولاق وأمطروا حصون الثائرين وابلا من القنابل فثغرت فيها ثغرات كبيرة اندفع فيها الجنود إلى شوارع الحى وأضرموا النار فى كل البيوت فاشتعلت فيها وامتدت الى مبانى الحى من مخازن ووكالات فالتهمتها ودمرت ذلك الحى الكبير الذى كان ميناء القاهرة . وهدمت الدور على سكانها فأبيدت أسرات كاملة تحت الانقاض وكانت مأساة محزنة . وانتقم الفرنسيون من أهالى بولاق انتقاما مروعا بعد ما استبسلوا فى الدفاع عن حيهم بشجاعة نادرة وكانت الدماء تسيل أنهارا فى الشوارع وتحولت القاهرة الى خرائب وأطلال وظلت النار تلتهمها ثمانية أيام

وفى نهاية الأمر طلب الأهالى التسليم لكن الفرنسيين لم يكتفوا بما حل ببولاق ففرضوا على أهلها ومتاجرها غرامة جسيمة قيمتها ٥٠٠ ألف ريال . وفرضوا أيضا تسليم المدافع والذخائر الموجودة فى ترسانة بولاق وما فى المخازن من أخشاب وغلال وشعير وأرز وعدس وأن يسلموا أربعمائة بندقية ومائتى طبنجة . وقبض الفرنسيون على الحاج مصطفى البشتيلى قائد الثوار وطلبوا من أتباعه أن يقتلوه لأنه السبب فيما حل بهم فضرب بالعصى حتى مات

واستمر الفرنسيون يسرفون فى ارتكاب الفظائع لأخماد بقايا الثورة واتبعوا وسيلة إضرام النار فى الأحياء الآهلة بالسكان فأحدثت الحرائق تخريبا فظيعا فى القاهرة واحترقت أحياء برمتها والتهمت النار خط الأزبكية وخط

الساكت والفوالة والرويعى وبولاق وبركة الرطلى وماجاورهـــاوباب البحر والخروبى والعدوى الى باب الشعرية فأصبح منظر القاهرة بعد ما حل بهـا مفزعا يملأ القلوب حزناً وأسى

وبالرغم عن ابرام معاهدة التسليم استمر الفرنسيون فى سياسة الهدم والتخريب لاغراضهم الحربية . فقد أخذوا يتممون بناء القلاع التى كان الجنرال كليبر قد شرع فى إنشائها وهدموا كثيرا من البيوت والعارات لأخذ أخشابها وأدوات البناء منها واستخدامها فى بناء القلاع والحصون لكشف الجهات التى شرعوا فى إقامة الحصون فيهـــا كما هدموا بيوتاً أخرى لبيع أخشابها أو اتخاذها وقودا . فدمرت خطط بأكملها كالحســـينية والخروبى (بمصر القديمة) وبركة جناق (بباب الشعرية) وبركة الفيـــل . وكشفوا سـور القـاهرة القديم من باب النصر الى باب الحديد وحصنوا أبوابه وأقاموا حولها الاسلاك الشائكة وسدوا باب الفتوح بالبنـاء وكـذلك باب البرقية وباب المحروق

ومن المبانى التى هدموها جامع الجنبلاطية بباب النصر وعدة مبان بالحطابة وباب الوزير وهدموا أعالى المدرسة النظامية والجامع المعروف بالسبع سلاطين وجامع الجركسى وجامع خوند بركة خارج باب البرقية وكذلك أبنية باب القرافة ومدارسها ومســـاجدها والقبـاب والميـادين . وجعـــلوا من جامع الرويعى حانة يحتسون فيها الخمر كما هدموا جزءاً من جامع عثمان كتخدا القزوغلى وجامع خير بكر حديد بالقرب من بركة الفيـــل وجامع البنهاوى والطرطوشى والعدوى وجامع عبدالرحمن كتخدا المقابل لباب الفتوح

وهدموا مصـــاطب الحوانيت واقتلعوا أحجارها وعللوا ذلك برغبتهم فى توسيع الطرقات والأزقة لمرور العربات وغرضهم الحقيقى منع الناس من اتخاذها متاريس فى حالة قيام الثورة فهدموا تلك المصـــاطب فى أحياء كاملة كالصليبة وقناطر السباع ودرب الجماميز ودرب سعادة وباب الخلق فما يليه الى باب الشعرية . فاشتد الضيق بأصحاب الحوانيت لأنهم اضطروا بعد هدم مصاطبهم أن ينزووا داخل حوانيتهم فصارت أشبه بالسجون ولو طال بهم الحال لهدموا مصـــاطب

العقادين والغورية والصاغة والنحاسين إلى آخر باب النصر وباب الفتوح. وهدموا القباب والمدافن الكائنة بالقرافة المجاورة للقلعة خوفاً من تحصين المقاتلين بها وأزالوا جانباً كبيراً من جبل المقطم بالبارود من الجهة المحاذية للقلعة خوفاً من أن يتمكن الأهالى من الرمى منها على القلعة

وفى تلك السنة زاد النيل زيادة مفرطة لم يعرف لها مثيل من قبل فغرقت الأرض وحوصرت البلاد وتعطلت الطرق فصارت الأرض كلها لجة ماء فتهدمت الدور المقامة على الشواطىء. وجرف الماء المدينة من جهة الناصرية وطفح من بركة الفيل إلى درب الشمسى وطريق قنطرة عمر شاه

تطورت الحوادث العسكرية بانتصار الانجليز على الفرنسيين فى معركة كانوب (الاسكندرية) فى ٢١ مارس عام ١٨٠١ ثم بتقدمهم نحو القاهرة مع الجيش التركى. وكان موقف الجيش الفرنسى فى القاهرة لا يحسد عليه. وبدأت المفاوضات بين الطرفين وقد انتهت بجلاء الجيش الفرنسى عن القاهرة وقلاعها وقلاع بولاق والجيزة وعن جميع الجهات التى تحتلها الجيوش الفرنسية فى مصر. وحدد للجلاء عن القاهرة وبولاق اثنا عشر يوما وأن يتم الجلاء فى أقرب وقت ممكن بحيث لا يزيد عن خمسين يوما من يوم التصديق على الاتفاق

وبجلاء الفرنسيين عن مصر بعد احتلال ثلاثة أعوام وشهرين طويت صحيفة الاحتلال الفرنسى وبدأت ثلاث قوات تتصارع على السلطة فى مصر: الأتراك والانجليز والمماليك وظهرت قوة رابعة على مسرح النضال السياسى وهى قوة الشعب المصرى

ولا نذكر أثناء إقامة الفرنسيين إلا شيئا واحدا استفادت منه البلاد. هذا هو المجمع العلمى المصرى الذى أسسه نابليون بعد دخوله القاهرة وكان عضوا فيه ومعه أوائل العلماء الأدباء وكبار القادة والضباط ممن لهم باع فى العلوم والآداب. أنشأ نابليون هذا المجمع عقب وصول نبأ كارثة الأسطول الفرنسى فى أبى قير وعهد إلى سبعة من العلماء اختيار أعضائه وهؤلاء السبعة هم العلماء: مونج وبرتوليه وجوفروا وسان هيلير وكوستاز والطبيب ديجينت والجنرالين كافاريللى وأندريوسى

أصدر أمره بانشاء المجمع فى ٢٢ أغسطس سنة ١٧٩٧. وقد تألف من

ستة وثلاثين عضوا موزعين على أربعة أقسام هى : الرياضيات والطبيعيات والاقتصاد السياسى والآداب والفنون . وأختار العالمان مونج وبرتوليه والجنرال كافاريللى قصر حسن كاشف شركسى بالناصرية ليكون مقرا لهيئة المجمع وألحقوا به القصور المجاورة له التى شيدها المماليك وخصصت لسكن الأعضاء وبعثة العلوم والفنون كقصر قاسم بك وبيت كتخدا السنارى وبيت أمير الحج . وكانت سراى حسن كاشف من أجمل قصور المماليك فى القاهرة

وقد بذل أعضاء المجمع جهوداً كبيرة فى خدمة العلم والفن وكانوا دائمى النشاط مجدين مثابرين . ويكفيهم فخراً أنهم أخرجوا الكتاب النفيس الذى يعتبر إلى اليوم فى مقدمة المراجع الثمينة فى الشئون المصرية وهو كتاب وصف مصر

القاهرة بعد نزوح الفرنسيين

كانت القاهرة فى أوائل القرن التاسع عشر قد بدأت تفقد طابعها الذى امتازت به وبدأت تتقلص عمارتها الجميلة التى ازدانت بها أيام المماليك البحرية والشراكسة ولم يكن لظاهر البيوت رونق بل اتجهت العناية الى تزيينها من الداخل

لم تعرف القاهرة خلال تلك الأيام تنظيما معينا لشوارعها . فكنت تجد بعض البيوت خارجا عن حدود الطريق العام وترى الآخر داخلا كما ترى بيوتا لها مشربيات قريبة من مستوى الطريق وأخرى لا ترى لها منافذ. ولم يكن للحكومة اعتناء بأمر النظافة أو الصحة فكانت تلقى القاذورات أمام المنازل وعلى مداخل الأزقة وما تبق من انقاض الهدم من الأتربة والأحجار يلق به بالقرب من أبواب المدينة فتصير تلالا حتى إذا حملها الرياح تكونت منها فوق البلد سحابة تراب كريهة الرائحة تنقل معها شتى العلل والأمراض . وكانت مقابر الموتى فى وسط المدينة كمقبرة السيدة زينب . وكان كثيرون من الناس يدفنون موتاهم داخل بيوتهم وفى المساجد والمدارس

وإذا رغبت الوقوف على صورة للقاهرة فى تلك الآونة فلا ترى إلا أبنية

خربة وأسوارا وأبوابا متهدمة . وإذاقادتك قدماك إلى الحسينية فلا تشاهد غير تلال وكيمان وأطلال ـ وتلمح الشقاء فى كل مكان وميدان حتى امتد إلى عابدين والداودية والقربيـــة والخليفة . أما جهات المدابغ وباب اللوق فلا تسل عما احتوت عليه من المياه الآسنة والروائح الكريهة

وخلاصة القول أن القاهرة وصلت الى أتعس حال فى العمارة والتجارة والصناعة فأصبحت المدارس خاوية ولجأ الفقراء إلى سكنى المساجد

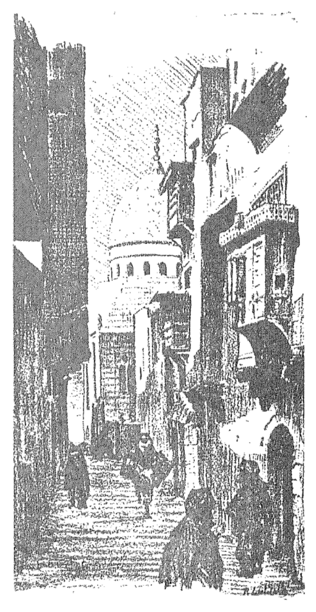
هذه كانت القاهرة . . حتى قيض الله لها المرحوم محمد على باشا محي مصر الحديثة فأخذ يرفع مستواها لكى تكون عاصمة جديرة بملكه العظيم

عادت الى القاهرة مصائبها الأولى . . من كوارث القتل والخطف والنهب . وعاد المماليك إلى رذائلهم ومفاسـدهم ونهب الرعاع الأحياء وأقيمت المتاريس عند رأس الوراقين والعقادين والمشهد الحسينى . ووزع الجنود بجامع أزبك وبيت الدفتر دار وبيت محمد على وكوم الشيخ ســـلامه . ونشبت الحرب بين العثمانيين والألبان بالقاهرة وبولاق وقصر العينى

وتحركت المنافسات بين الوالى وزعماء المماليك ورؤساء الجند وعلماء الدين وكان « محمد على » قد وصل إلى مصر على رأس قوة من الجند وسطع سلطانه بين هذه القوى وبالغ إذ ذاك فى التودد إلى المماليك وسلمهم قلعة القاهرة واتفق مع زعمائهم على التخلص من الأتراك

ولكن ما لبث أن غير سياسته نحو المماليك بعد قيام شعب القاهرة بالثورة فبادر إلى « كشف » المماليك أمام الشعب وجعلهم وحدهم هدفا لغضبه وجاهر بانضمامه إلى العلماء والمشايخ . ونزل الى الطرقات واختلط بالجماهير وقابل علماء الأزهر وتعهد لهم بأن يبذل نفوذه لرفع الضريبة التى فرضوها وأوصى جنوده بأن يحترموا الشعب . فاختلطوا هم أيضـــا بالناس وأعلنوا عدم رضائهم عن الضريبة وجاهروا بأنهم يطالبون برواتبهم من الحكومة لا من الأهالى

كسب محمد على بهذه الســـياسة عطف الشعب وثقة زعمائه وبدأ الناس ينظرون إليه كرجل عادل يحب الخير للشعب . بل بدأ محمد على يأخذ مظهر رجل الساعة المنتظر لتخليص البلاد من الفوضى



احدى حارات القاهرة

قابل عثمان البرديسى تلك الثورة بالغطرسة ونقم على المصريين الذين لم يمتثلوا لأوامر المماليك بينما انتهز محمد على فرصة غضب الشعب على المماليك وثورته عليهم وتوزيع جنود المماليك فى الأقاليم فأمر جنوده بمهاجمة المماليك الموجودين فى القاهرة وحاصروا بيت ابراهيم بك ببركة الفيل وبيت عثمان البرديسى بالناصرية وبيوت باقى المماليك فى أنحاء العاصمة واستمر الحصار إلى اليوم التالى

رأى المماليك أنفسهم حيال قوتين : ثورة الأهالى من جهة وجنود محمد على من جهة أخرى فلم يجدوا سبيلا للنجاة سوى الفرار من القاهرة. ففر البرديسى بك ولحقه ابراهيم بك . ولما علم جنود المماليك الذين احتلوا القلعة ذلك أخلوها ونزلوا من باب الجبل ولحقوا برجالهم . فاستلم جنود محمد على القلعة

وقصد محمد على القلعة لمقابلة خسرو باشا الوالى وكان سجينا منذ ثمانية أشهر ليعيده إلى ولايته فنزل به إلى المدينة معلنا أنه صاحب الولاية فى البلاد. فازداد الشعب تعلقاً بمحمد على لما رأى فيه من عدم الرغبة فى تولى الحكم . لكنه لم يبق طويلا وعزل وعين من بعده خورشيد باشا . وبدأ هذا يدبر الوسائل للتخلص من محمد على فاستصدر من الأستانة فرمانا بعودة محمد على وجنوده الى بلادهم . فلما وصل الفرمان الى القاهرة أدرك محمد على سر تلك المكيدة وتظاهر بالاذعان وأعد

عدته للرحيل ولكن العلماء حين عرفوا ذلك طلبوا اليه البقاء بمصر لما عهدوه فيه من العدل والاستقامة

اهتزت القاهرة لنبأ هذا الرحيل وأقفلت الأسواق وكاد حبل الأمن يضطرب وأخيراً قبل محمد على طلب العلماء وأعلن بقاءه ارضاء للرأى العام . فلما تحقق خورشيد من عدول محمد على عن السفر أدرك أن مكيدته قد أخفقت واضطر للاذعان مؤقتا للأمر الواقع . فأصدر أمره إلى محمد على بمحاربة المماليك فى الصعيد ليتخلص منه وأرسل إلى الحكومة العثمانية يطلب أن تمده بامدادات قوية فأوفدت اليه جيشاً من الدلاة . فلما وصل الى محمد على نبأ هذه القوة عجل بالعودة الى القاهرة قبل أن ترسخ قدم الدلاة فى البلاد

واشتد هياج الناس ضد خورشيد (مايو ١٨٠٤) واستمرت الفوضى ضاربة أطنابها فى البلاد واعتدى الجنود الدلاة على أهالى مصر القديمة وأخرجوهم من منازلهم ونهبوها وقتلوا بعض الأهالى الآمنين . فاشتد الهياج وحضر جميع سكانها رجالا ونساء الى جهة الجامع الأزهر وانتشر خبر الاعتداء بسرعة البرق فى المدينة كلها وعمت الثورة احياء القاهرة واجتمع العلماء بالأزهر وأضربوا عن إلقاء الدروس وأقفلت الحوانيت واحتشدت الجماهير فى الميادين والطرق

أدرك خورشيد خطر الحالة وأرسل وكيله صحبة محافظ القاهرة الى الأزهر لمقابلة علمائه ومفاوضتهم لكبح الهياج. فلم يجدهم ـ فذهب الى بيت الشيخ الشرقاوى وهناك حضر السيد عمر مكرم وزملاؤه فاغلظوا له فى الحديث وانصرف على غير جدوى وقصد القلعة . لكن الجماهير لم تتركه يدخل اليها دون أن ترجمه بالأحجار ورفض العلماء أن يتدخلوا لايقاف الهياج وصمموا على طلب جلاء الدلاة عن القاهرة

وفى تلك الفترة ورد فرمان سلطانى بتقليد محمد على ولاية جدة . أدرك هذا ما فى أمر التعيين من الدسيسة وخشى الغدر به اذا صعد الى القلعة . فأرسل ينبىء خورشيد بأنه مستعد لتلقى أمر التعيين فى المدينة فى أى منزل يختاره

واتفق خورشيد ومشايخ القاهرة ومحمد على — على المكان . ولما انتهى

الاجتماع خرج خورشيد عائداً إلى القلعة وقابلته الجنود الألبانية والشعب بالهتافات «محمد على لا يذهب إلى جدة . لن يغادر القاهرة — نريده هنا لاعادة الأمن واستتباب النظام . يجب أن يكون محافظا للقاهرة ووالى مصر . وليذهب خورشيد الى جدة »

وانتهت الفترة التى حددها العلماء لجلاء الدلاة عن القاهرة . وعلم زعماء الشعب ان بقيتهم ممتنعة عن الجلاء حتى تدفع لهم مؤخرات مرتباتهم ولا سبيل لدفعها وخزينة الحكومة خالية

فى صباح يوم ١٢ مايو ١٨٠٥ اجتمع الزعماء وقاضى مصر والعلماء وفرقة الوجاقلية والمشايخ أمام دار المحكمة الشرعية الكبرى (بيت القاضى) لأصدار قرارهم وكانوا غير مسلحين الا بالايمان . وهناك وافاهم وكلاء الوالى بعد أن طلبهم قاضى المحكمة . فحضروا وانعقد المجلس ثم عرض الزعماء مطالبهم وسلموا صورتها الى القاضى وقام وكلاء الوالى يبلغونها إلى خورشيد باشا بالقلعة

فلما اطلع عليها رأى أن الحركة خطيرة فأرسل الى محمد على يستدعيه ومعه السيد عمر مكرم نقيب الأشراف والعلماء الى القلعة للتشاور معهم . ولكن فطن السيد عمر الى مقاصد الوالى وخشى غدره فأشار برفض الذهاب اليه

فلما لم يذهبوا عد امتناعهم عن الذهاب اليه تمردا ورفض إجابة مطالبهم
وفى اليوم التالى اجتمع وكلاء الشعب ورؤساء الصناع بدار المحكمة واحتشدت الجماهير فى فناء المحكمة وحولها يؤيدون وكلاءهم .واتفقت كلمتهم على عزل خورشيد وتعيين محمد على والياً مكانه .وقاموا فى عصر اليوم الى دار محمد على لتنفيذ قرارهم قائلين له

« اننا لا نريد هذا الباشا والياً علينا ولا بد من عزله عن الولاية»

ثم نادى السيد عمر مكرم بالنيابة عنهم قائلا :

أننا خلعناه عن الولاية

فسأله محمد على « ومن تريدونه والياً »؟

فأجاب الجميع بصوت واحد : لا نرضى الا بك . نريدك والياً بشروطنا لما نتوسمه فيك من العدالة وحب الخير »

فتردد محمد على فى بادىء الأمر لكى لا يقال عنه أنه المحرض للثورة فألح وكلاء الشعب عليه وقالوا جميعا « اننا اخترناك برأى الجميع وإجماع الكافة »

فقبل محمد على الولاية . وقام السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوى وألبساه خلعة الولاية

ولما أبلغ زعماء الشعب قرارهم الى خورشيد رفض الأذعان لمطالبهم وأخذ يستعد لاخماد الثورة

وبدأ الزعماء بدورهم يعدون الوسائل لحصار القلعة لأجبار الوالى على التسليم احتشد الثائرون فى ميدان الأزبكية وعبثا حاول الزعماء إقناع الوالى بعدالة مطالبهم . فأخذ السيد عمر يحرض الناس على الاجتماع والاستعداد للقتال بما وصلت إليه أيديهم من العصى والأسلحة. فأقاموا المتاريس والاستحكامات بالقرب من القلعة وبلغ عدد الثوار أربعين ألفا . وكان الفقراء يبيعون ملابسهم أو يستدينون لشراء الأسلحة

استمر القتال بين الشعب والوالى إلى أوائل شهر يوليو عام ١٨٠٥ حتى أرسل محمد على باشا إلى السيد عمر مكرم مشيرا عليه بارسال بعض رجاله لنقل مدفع كبير من قلعة قنطرة الليمون وتركيبه على إحدى قمم المقطم التى تشرف على القلعة لتهديد الوالى وقوته العسكرية فيها ، فجمع السيد عمر رجاله وجلب الأبقار لجر المدفع فأخرجوه من باب البرقية فباب الوزير حتى تم تركيبه فى المكان الذى أشار به محمد على . وأخذ الثوار يضربون القلعة واستمر الضرب متبادلا بين الفريقين وبهذه الفكرة أنقذ محمد على القاهرة من أذى شديد كاد يلحق بها

يوم مصر

فى تلك الآونة وصل « صالح بك » من كبار ضباط الباب العالى يحمل فرمان بولاية مصر لمحمد على وبعزل خورشيد

كان هذا اليوم — هو ١١ ربيع الثانى ١٢٢٠ هـ الموافق ليوم ٩ يوليو ١٨٠٥ م

وفى اليوم التالى بدأت القاهرة تتنفس الصعداء بزوال نظام بائد واستقبلت حكم أسرة محمد على

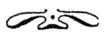
أذعن خورشيد وسلم القلعة يوم الاثنين ٥ أغسطس ١٨٠٥ وغادرها فى اليوم التالى من باب الجبل إلى باب النصر فجهة الخرونى فبولاق . وقد ودعه محمد على باشا وأقلعت السفينة التى أقلته إلى الاسكندرية

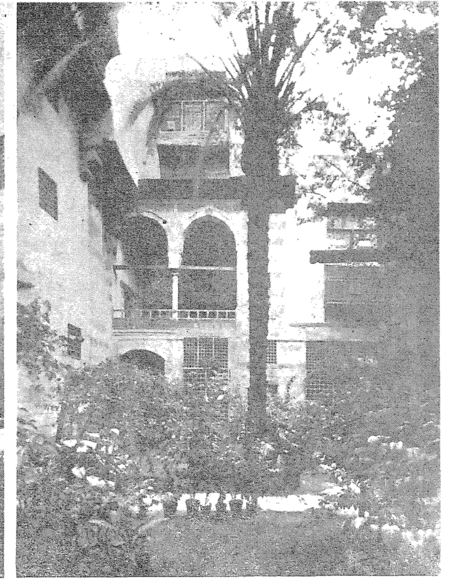
ومنذ ذلك اليوم أصبح محمد على باشا سيد القاهرة وسيد مصر على الاطلاق وبدأ فى تنفيذ مشروعاته العظيمة . ويحقق آماله الكبيرة لاعادة مجد مصر وتأسيس ملكه الخالد

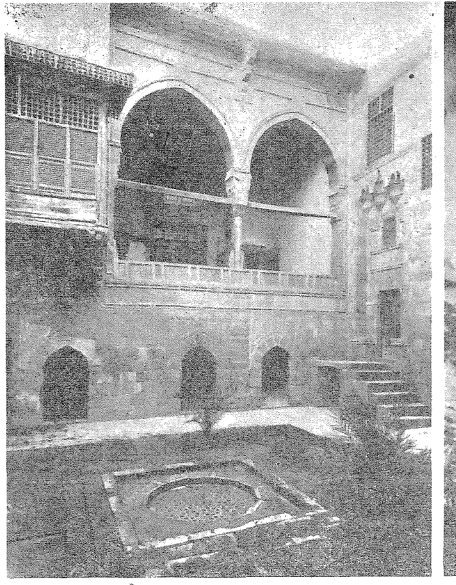
تلك كانت القاهرة كما عاصرها وشاهدها صاحب « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » الشيخ عبدالرحمن بن حسن بن برهان الدين الجبرتى الذى ولد فى القاهرة (١١٦٨ هـ — ١٧٥٦ م) ورأى بعينه تلك الحوادث التى وقعت بمصر . ولا سيما فى القاهرة بين عامى (١٧٥٧ و ١٨٢١)

ولا شك فى أن « عجائب الآثار » تعتبر وثيقة وحيدة يعول عليها لمعرفة تاريخ مصر السياسى وحوادثها وتراجم رجالها وحالتها الاجتماعية فى القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر . ويعتبر كتاب الجبرتى مرجعا نفيسا لمن يريد الكتابة فى خطط القاهرة فى العصر المذكور . فنحن نستطيع بسهولة أن نتصور معالم القاهرة فى أيام الجبرتى ونعرف ما أقيم فيها خلال عصره من مساجد ومعاهد وقصور وبساتين . وما استجد فى بعض أحياء القاهرة فى اثناء حكم الفرنسيين أو ما دمروه وأزالوه أو شوهوه

واننا لنستمد من تاريخ الجبرتى أصدق الصور عن خطط قاهرة زمانه. وهى الصورة الفاصلة بين قاهرة المماليك أثناء العصور الوسطى وقاهرة المغفور له الخديو اسماعيل فى منتصف القرن التاسع عشر

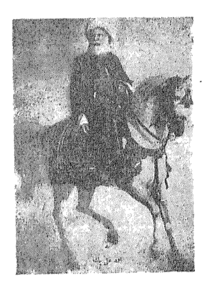






إلى اليمين منزل السحيمى من آثار القرن الحادى عشر الهجرى معروف بمشربياته الجميلة وقاعاته العلوية التى لاتزال محتفظة برونقها بما اشتملت عليه من قاشانى بديع وتجارة متقنة وهو بالدرب الأصفر — وإلى اليسار بيت جمال الدين الذهبي بحوش قدم بالغورية (١٠٤٧ هـ — ١٦٣٧ م)

قاهرة محمد على باشا



محمد على باشا الكبير

يعتبر عصر الأسرة العلوية فاتحة عصر جديد فى تاريخ القاهرة تقلبت عليها ضروب شتى من الشقاء والرخاء والدل والذل

ولقد طبعت القاهرة فى عهد هذه الأسرة بطابع خاص مع احتفاظها بجلال القدم وروعة الماضى . وأفاضت عليها مآثر هذا البيت الكريم حللا رائعة التقى فى أثنائها الماضى بالحاضر والقديم بالحديث والشرق بالغرب . فبدت القاهرة بلداً شرقياً جميلا يخلب اللب ويلفت النظر . وتهادى اليها العلماء وأهل الفنون والرحالون يمتعون النظر بمحاسن جمالها أو يسرحون الطرف فى رباعها المملوءة بروعة التاريخ وقدسية الماضى . ويجدون فى آثارها القائمة وأعلامها الباقية ومعابدها وهياكلها مجالا للدرس وميدانا للبحث ومرادا للهو

تولى محمد على حكم مصر من أيدى المماليك . فكانت القاهرة إذ ذاك مدينة مخربة دمرها الفرنسيون بمدافعهم وأهملها القاهريون أنفسهم فبدت عليها آثار الكآبة والحزن . وأدرك هذا العاهل العبقرى كيف يجعل من القاهرة عاصمة جديرة بملكه الواسع . ولم يكن ذلك بالشىء الهين . إنما كان كل شىء يهون أمام محمد على . . أليس هذا الذى جعل مصر امبراطورية كبيرة بعد ان كانت ولاية عثمانية ؟

جاء محمد على فأدخل كل جديد الى القاهرة . عمارة أوربية — شوارع واسعة تخترق أحياءها حدائق غناء . قصور باذخة — ميادين كبيرة للنزهة . مما جعلها مدينة عظيمة تتقدم مثيلاتها من عواصم البلدان

أصدر أوامره لأقلام الهندسة لعمل لائحة التنظيم فعملت ونفذت فعلا — وبدأ تطور القاهرة تدريجيا . فاتسعت الحارات وسهل المرور بالمتاجر واتبع الناس فى بنائهم الطرز المعمارية الحديثة

رأى محمد على أن كل مدينة كبيرة لا تخلو من هيئة من الرجال المسئولين أمامه فكلف محافظ القاهرة « الكخيا » بتأدية الأعمال التى يقوم بها الآن وزير الداخلية و « الباش أغا » للقيام بأعمال حكمدار البوليس فى مراقبة الأمن العام وتنظيم العسس ومراقبة المحال العمومية ـ والمحتسب لملاحظة تنفيذ أوامر الباشا وعين لكل « ثمن » شيخا يقوم بأعمال قاضى الصلح و « قوميسير البوليس » . ثم أصدر أوامره بتنظيف الأحياء . فصارت تكنس وترش بالمياه وتضاء بمصابيح الغاز

وانتعشت الحالة الصحية فى القاهرة . وألف الأهالى الحياة النظيفة وبدت على الطرقات والميادين مسحة النظافة . ونظم البيمارستان وأنشأ المستشفيات على النظام الحديث . فقد كان بالقاهرة حتى أيام الحملة الفرنسية مستشفى واحد هو البيمارستان المذكور . فأنشأ محمد على فى ميدان الأزبكية مستشفى جميلا يحتوى على سبعمائة سرير نصفها للرجال والنصف الآخر للنساء ، وكان يتبع هذا مستشفى للولادة ومستشفى للأمراض العقلية . هذا غير المستشفى العسكرى الفخم المعروف بمستشفى قصر العينى الذى احتوى على ألفين وثمانمائة سرير . وكان القادم ولا سيما من جهة الغرب يرتد نظره عند وقوعه على أطلال الأتربة وأكوام الأنقاض . ويود لو أن فى الاستطاعة إزالتها لكنه لا يلبث أن يسلم باستحالة الأمر بعدما يتأمل جسامة الآكام . ويقدر الهمة الواجبة للأقدام على ذلك العمل الشاق حتى جادت الأيام لمصر بابراهيم الهمام

آكام القاهرة

كانت أنقاض البيوت المخربة منذ القدم تلقى حول القاهرة خارج سورها القديم فتجمع منها على مر الأيام تلال عالية وصل ارتفاعها إلى الخمسين أو الستين متراً ألقيت وراء باب السيدة زينب وابن طولون وباب الوزير والدراسة

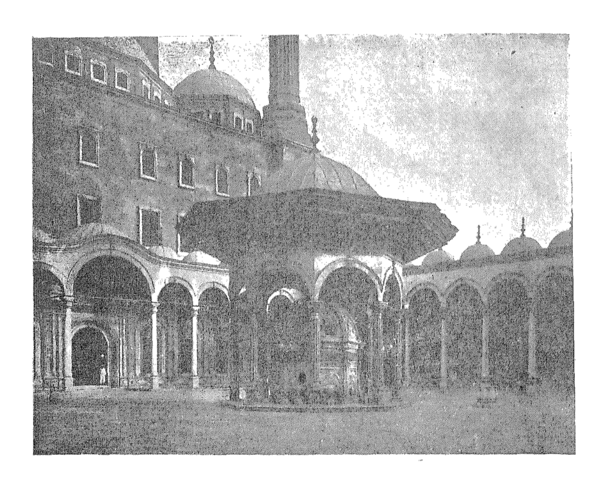
وبالقرب من باب النصر وحى الحسينية . عدا الأطلال التى كانت داخل المدينة وما آلت اليه أحياء بولاق ومصر القديمة (الفسطاط)

كانت القاهرة محاطة من معظم جوانبها بتلك الأكوام التى تعكر جوها وتملأفضاءها بالرياح المحملة بالأتربة وجراثيم الأمراض . ولم تكن تلك الآكام وحدها هى التى اشتملت عليها القاهرة . بل كنت تراها تمتد بين باب الحسينية الى الفجالة حتى باب الحديد . ومن قنطرة الليمون تتجه إلى موقع محطة السكة الحديدية وتتفرع نحو طريق السبتية حتى تخترق طريق أبى العلاء وتستمر لباب اللوق إلى أن تصل لمصر القديمة مارة بالقصر العالى وقصر العينى

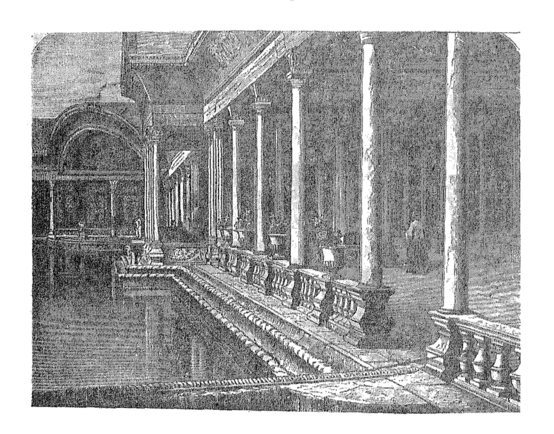
وقد حاول السلطان سليم بعد فتحه مصر أن يزيل بعض تلك الأطلال لكنه شغل عنها بتثبيت دعائم ملكه الجديد فلم يعمل شيئا . وظلت تتزايد يوما بعد يوم حتى تولى شئون مصر المغفور له ابراهيم باشا . فأمر المسيو « بونفور » مهندسه بأزالة الآكام الواقعة بين النيل وبولاق ومصر القاهرة والفسطاط . وطلب اليه إنشاء متنزهات خاصة مكانها ووضع تحت تصرفه ما شاء من الأموال والرجال

ولقد أقدم المسيو « بونفور » بهمة على تنفيذ ما أمر به ولم تمض ثمانى سنوات حتى أتم ثلث المهمة وتجلت الرياض الفيحاء تزينها الأشجار الباسقة ولا سيما الجميز واللبخ حيث كانت تعلو الأكوام التى ترد البصر كليلا

ولما عاد إبراهيم منتصراً من فتوحاته بالشام نفخ من روحه فى تلك الأعمال الاصلاحية فسارت سيراً حثيثاً . وأكمل « بونفور » إزالة الأكوام كلها من باب الحديد الى مصر القديمة غربى القاهرة بأسرها . فاختفى التل الكبير الذى كانت تقع عليه طابية المعهد الفرنسى فى بركة قاسم بك . كما أزيل ما كان منها فى الجهة الشمالية الا مابين بابى الفتوح والنصر من جهة العباسية والظاهر والفجالة حتى باب الحديد من الجهة الأخرى . ولم يكن فى استطاعة أحد غير فاتح عكاء إتمام ذلك العمل الجبار فأقبلت الأيدى بتأثير إرادته القوية وهمته الشماء تعمل بجد ونشاط . واستمرت معاول القطع والجرف فى تلك الدمن المكدسة تنتزعها



صحن جامع محمد على بالقلعة



المظلة الرخامية بقصر شبرا

وتطرحها فى البرك المجاورة لا سيما بركتى الرطلى وطبالة المستنصر حتى تخلصت منها القاهرة وحلت محلها المزارع والبساتين . وجففت أيضا أكثر البرك التى كان الفيضان وعدم الاعتناء يحولانها الى مستنقعات تتولد فيها جراثيم الأمراض وبينا كان هذا العمل العظيم قائما امتدت يد الموت العاتية الى تلك القوة الجبارة فاجتثت شجرة حياة ابراهيم فأوقف العمل

الميادين والشوارع

وأراد محمد على الكبير فى عام ١٨٣٧ بعد أن عادت جيوشه من حملاته المظفرة أن يحول ميدان الأزبكية الى بستان كبير منسق على أسلوب الحدائق الأوربية . وكان هذا الميدان إلى وصول الحملة الفرنسية أرضا تغمرها مياه الفيضان كل عام وتتحول الى أرض زراعية على مثال بركة الفيل وبركة عابدين والفرابين وبها باب اللوق والناصرية والرطلى

فأمر برهان بك رئيس ادارة الأشغال العمومية وأحد تلامذة البعثة المصرية الأولى الى باريس بان يضع مشروعا لتحويل هذه البركة الى بستان عام. ولما انتهى هذا من عمل تصميمه قدمه الى الباشا فوافق عليه وبدأ العمل على تنفيذه . وكانت أراضى ميدان الأزبكية وقفا لأسرة الشيخ البكرى وهى أربعون فدانا فأضيفت الى المنافع العامة وأعطيت لهم عشرة أمثالها من الأراضى الزراعية الخصبة من بهتيم

خط برهان بك ثلاثة شوارع كبيرة فى الميدان لمرور الناس والمركبات وغرس على جوانب تلك الشوارع الأشجار الظليلة وردم جزءاً كبيرا من البركة وأحاط الميدان بقناة مرتفعة القاع لتسمح برى جميع البستان عرضها عشرة أمتار وزرع الأراضى التى تحيط بهذه القناة من الخارج بعد أن رفع مستواها لكى يعلو به عن مستوى الميدان المتوسط وحفر جدولا فى وسط الميدان لتخزن فيه مياه القناة الخارجية حتى توزع على البساتين . وكانت المياه تجرى فى كل فصول السنة . وأقام قنطرتين جميلتين على الشارع الرئيسى المؤدى الى بولاق وممرات ضيقة ومعابر كثيرة لتسهيل المرور بين نواحى الميدان

ولم تمض أربعة أعوام حتى كمل إنشاء الميدان على ذلك النسق الجميل — وبدت البساتين النضرة والطرقات المنمقة وأقام القوم المقاهى. وقصده سكان الأحياء المجاورة للجلوس والتريض

ولكى يصل بين القاهرة وقصر شبرا الجديد مد شارعا من باب الحديد غرس على جانبيه أشجار الجميز واللبخ. فكان هذا الشارع ملتقى الطبقات الراقية من القاهريين يقصدونه فى عرباتهم التى كان يسبقها عادة السواس بملابسهم المزركشة

وكان لا بد من شارع يخترق ناحيتى القاهرة من شرقها الى غربها لتتحمل المدينة توزيع النشاط والحركة التى استجدت فى داخلها. فكان شارع الموسكى وليد التصميم الجديد ثم شارع السكة الجديدة الذى امتد الى جهة الغريب فى أيام المغفور له الخديو اسماعيل

كذلك أنشأ محمد على طريقا بين القاهرة وضاحيتها بولاق

فى قلعتى صلاح الدين ومحمد على

سكن محمد على فى قلعة صلاح الدين. فأعاد اليها الحياة ودبت فيها روح النشاط بعد ما احتملته على أيدى ولاة الترك من ظلم واهمال. وأزال ما فيها من الأنقاض وأصلح أسوارها ورمم أبراجها وأبوابها. وشيد «قصر الجوهرة» وأقام لله مسجداً وبنى ثكنات الجند وديوانا للنظار وبيتاً لضرب المال ومصانع للذخيرة. واشتهرت القلعة بترسانتها التى اتسعت أرجاؤها لا سيما بعد عام ١٨٢٧ فصارت معاملها تمتد من قصر صلاح الدين الى باب الانكشارية المطل على ميدان الرميلة. وكان أهم مصانع الترسانة وأكثرها عملا معمل صب المدافع تصنع فيه كل شهر ثلاثة مدافع أو أربعة من عيار أربعة وثمانية أرطال وصنعت فيه مدافع الهاون ذات الثمانى بوصات ومدافع قطرها ٢٤ بوصة

ولما زار الماريشال «مارمون» ترسانة القلعة سنة ١٨٣٤ أعجب بنظامها وأعمالها وقال عنها «ان معمل القلعة يضارع أحسن معامل الأسلحة فى فرنسا من حيث الاحكام والجودة والتدبير». وكان يشرف على ادارة هذه الترسانة

العظيمة أحد الضباط الأكفاء الذين نهضوا بالمدفعيـــة المصرية هو اللواء ابراهيم باشا أدهم

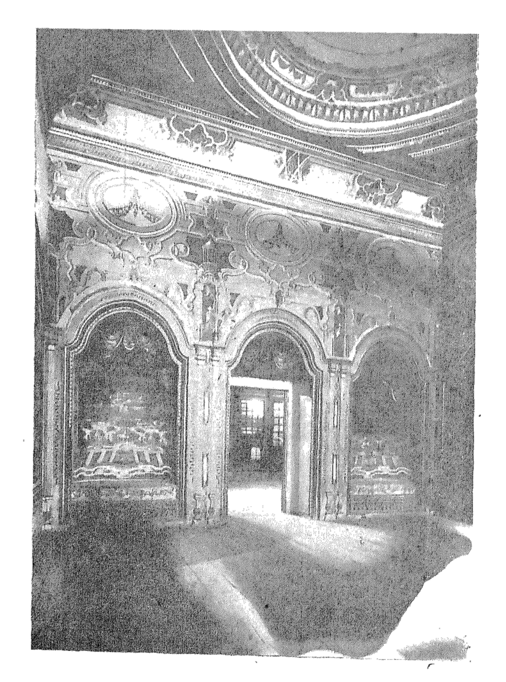
وبعد أن استقر محمد على فى القلعة عدة سنين انتقل الى قصره بشبرا كما كان يقضى بعض أيام فى قصر مراد بك فى الروضة بعد أن اطمأن الى استتباب ملكه وأمن الى رجاله المخلصين الذين أقاموا فى القلعة بالنيابة عنه للاشراف على أعمال دولته الناشئة

وأنشأ محمد على بجوار القلعة الدفترخانة لتحفظ بها وثائق الحكومة ودفاترها وسجلاتها وكانت من أجل منشئاته ولا تزال قائمة فى محلها اليوم

وقد رأى محمد على بثاقب فكره أهمية الموقع العـــالى الذى يخلف قلعة صلاح الدين وتسلطه عليها وعلى القاهرة فأمر ببناء قلعة حصينة على ذروة الجبل وأن يتخذ بها صهريج لخزن الماء العذب . فشيدت القلعة وأقام بها الجند. ولما زار الماريشال « مارمون » مصر وصف حالة القلعة فى مذكراته

قصور القاهرة

أما قصور القاهرة فكانت كثيرة منها القديم ومنها الحديث . فكان يحيط بالأزبكية من جهاتها الثلاث قصور فخمة مشيدة على النسق الشرقى وقف التاريخ فى بعضها مفكراً انى يجرى مجاريه . فمنها القصر الذى شاده محمد الألفى بك. ومنها القصر الذى كان لخسرو باشا عدو « محمد على » والذى أراد اغتياله مرة تحت ستار الليل ولم يفلح . والقصر الذى كان لمحمد على يوم كان لا يزال يرتقى درجات سلم طالعه العجيب وحمل فيه زعماء جنده على أن يقسموا له يمين الطاعة العمياء فى كل ما يأمرهم به . وأما الجهة الرابعة فكان يشغلها صف بيوت خشبية عالية وغريبة الشكل يملكها ويسكن فيها جماعة من الأقباط . وقد شيد محمد على لابنته زينب هانم قصر الأزبكية وكذلك شيد قصراً لابنته نازلى هانم على ساحل النيل هدمه المرحوم سعيد باشا وبنى محله ثكنة قصر النيل . وشيد الفاتح ابراهيم باشا قصر القبة فى طريق الخانقاه حيث كانت قبة الغورى . وبنى فى جزيرة الروضة والمقياس قصرا عرف بقصر المنارة . وشيد المرحوم عباس باشا قصره



احدى غرف قصر الجوهرة بالقلعة

بالخرنفش وبنى أحمد باشا يكن دارا عظيمة بعطفة عبدالله بك بالمغربلين وجعلهما قصرين عظيمين أحدهما للرجال والآخر للحريم . وبنى ابراهيم باشا يكن دارا فى سويقة اللاله مثل دار أخيه كما بنى احمد باشا طاهر بالأزبكية قصره المشهور باسم « ثلاثة ولية » وبنى خورشيد باشا السنارى داره فى عابدين . وشيد المرحوم شريف باشا الكبير قصره على بركة أبى الشوارب وبنى سامى باشا

المرهلى قصره بدرب الجماميز الذى تقوم فيه الآن مخازن لوزارة المعارف

هذا الى قصر محمد على الرسمى الذى أنشأه بالقلعة ليشرف على مصر والقاهرة والصحراء وجبل المقطم . والذى يطلق عليه خطأ اسم قصر الجوهرة وكان موضعه أبنية قديمة للملك الأشرف قايتباى والسلطان الغورى . وكذلك قصر الحرم بداخل القلعة وقد أمر محمد على بانشائة سنة ١٨٢٧ م ويتكون من أجنحة ثلاثة كبيرة (١)

وهناك فى شبرا شيد قصره الخلاب وقد نسق على أبدع نظام . وكأن محمد على قد أراد أن يجعل منه قصرا من قصور الجنان بجانب تلك المظال الرخامية المتتابعة صفوفها على شكل باقة أزهار تجلت الدقة فى صنعته وتكوينه

مياه القاهرة

وكانت القاهرة حتى أيام محمد على تستقى رأساً من مياه النيل على أيدى سقائين ففكر فى بادىء الأمر فى تعميق قاع الخليج المصرى بحيث يصبح ترعة صيفية تستمد مياهها لرى الأطيان الواقعة شمالى العاصمة فوق انتفاع أهل القاهرة بها للشرب . لكن عقبات كثيرة حالت دون ذلك أهمها أن أسس جدران معظم المبانى القائمة على ضفة الخليج لا تستطيع مقاومة التعميق المطلوب . ففكر فى طرق أخرى كايجاد آلات رافعة عند فم الخليج أو حفر ترعة يكون فمها على بعد كاف فوق القاهرة بحيث اذا صبت مياهها فى الخليج كفته ماء طول السنة . ولكن المصاعب التى قامت دون تحقيق كل ذلك أدت الى الاحجام عن المشروع بتاتا . الى أن نفذته مشيئة اسماعيل

وفى أيام محمد على أنشىء سبيلان أولها بالعقادين (١٨٢٠) وثانيهما بالنحاسين (١٨٢٨ م)

احياء القاهرة

نظر محمد على بثاقب بصره فعمل على أن يكون للقاهرة حى للصناعات المهمة فأمر باقامته بين شبرا وبولاق فى المكان المعروف اليوم بالسبتية

---

(١) راجع فصل العمارة فى عصر محمد على باشا فى مجلة العمارة — عام ١٩٤١ للاستاذ حسن عبد الوهاب

أقام فى بولاق مسبكا للحديد فى بناء مشيد تشييدا فخما تكلف نحو ستين ألفاً من الجنيهات ووضع تصميمه المهندس الانجليزى « مستر جالويه » الذى أشرف على العمل فيه بمساعدة خمسة من العمال الانجليز تحت اشراف القائمقام ابراهيم بك أدهم (باشا فيما بعد) . وكان يصب فى هذا المسبك حوالى خمسون قنطارا من الحديد كل يوم . وأنشأ مصنعاً آخر سمى مصنع مالطه عهد بادارته للمسيو « جوميل » وأعده لغزل القطن ونسجه الى أقمشة مختلفة . وكان بالقرب من هذا المصنع مصنعان آخران لغزل القطن عرف أحدهما بمصنع ابراهيم أغا والآخر بمصنع السبتية

وأنشأ فيما بين بولاق وشبرا على شاطىء النيل عمارات ومنازل خلوية وحظيرة واسعة أطلق عليها اسم « المبيضة » وفيها كانت تبيض الأقمشة . وأنشأ مصنعا للجوخ على شاطىء النيل امتاز بجودته . وقامت فى بولاق الورش والمصانع والمسابك والمخازن ومساكن المهندسين

وعاد العمران إلى جزيرة الروضة فبنى أمراء الدولة فيها قصورهم وأقاموا بساتينهم العامرة بالأشجار والأزهار . ففى جهتها القبلية أقيمت سراى حسن باشا المناسترلى بالقرب من المقياس . وفى الجهة البحرية أقيم البستان الكبير الذى أعده ابراهيم باشا للنزهة . وكان الناس يترددون على ذلك البستان فى أيام شم النسيم وكان يحتوى على الأشجار المتنوعة الغريبة وعلى أصناف الحيوان والطيور . وعلى الحد الشرقى للجزيرة كانت قصور الأمراء وبساتينهم كقصر سليم باشا الجزائرلى وبستان المندورة وأرض الست البارودية وبها جامع وضريح سيدى ابن يزيد البسطامى ثم أرض حسن باشا يكن وبستان شاكر بك وبستان وقصر على باشا شريف وبستان وقصر ذى الفقار باشا ثم سراى وبستان الخديو اسماعيل

والحد الغربى للجزيرة المقابل لمدينة الجيزة يليه من الجهة القبلية قصر أمين باشا ثم تليه أرض حسين باشا يكن ثم أرض على شريف باشا ثم أرض للخديو اسماعيل ثم أرض احمد باشا المنيكلى (ناظر الجهادية) ومنزل وبستان خليل بك وأقيم معمل للبارود فى المقياس بطرف الجزيرة وكان بناؤه فسيحا وبعيدا

عن المساكن وتولى إدارته فرنسي اسمه « مسيو مارتل » وتولى العمل تحت إدارته تسعون عاملا موزعين على أقسام العمل المختلفة

ثم أمر محمد علي بردم بركة الفيل فجيء لها باتربة التلال القريبة والأنقاض المجاورة وغرس على حافتها الأشجار وزرع البساتين وشيد بالقرب منها قصرين عظيمين عرفا بقصر الحلمية ودرب الجماميز . وبنى أتباعه البيوت الكبيرة وانتشرت أملاك رجاله . فأصبح سكان ذلك الحي من الخاصة

مساجد القاهرة

لم تقتصر عناية المغفور له محمد على باشا على ترقية مصر علميا وعسكريا وفنيا. بل عنى بها من الناحية الدينية أيضا . فقد حرص على أن يقوم الموظفون والعمال باداء الشعائر الدينية . ولذلك ألحق بالمصانع زوايا لاداء الفرائض كما أنشأ المساجد ملحقة بالمدارس والمعسكرات ليؤدى رجال جيشه صلاتهم

ولعل أول مسجد تحمل نفقات إنشائه ذلك المسجد الذى أنشاه على النيل ببولاق الأمير صالح أغاقوج حوالى سنة (١٢٢٢ هـ — ١٨٠٧ م) . فقد أثبت مؤرخو عصره أن محمد على فى سنة (١٢٢٧ هـ — ١٨١٢ م) أعطى إلى صالح أغاكل ماطلبه وأدعاه . حتى أنه كان أنشأ مسجداً بساحل بولاق بجوار داره وبنى له منارة واشترى له عقارا وأمكنة وقفها عليه فدفع له الباشا جميع ماصرفه عليه وثمن العقار وغيره (١) . وقد تخرب هذا المسجد ولم يبق منه سوى بقايا منارته القائمة حتى الآن تجاه كوبرى فؤاد الأول

وأنشأ محمد على فى الخانقاه مسجدا بقاياه مازالت موجودة . لكى يؤمه للصلاة جنود المدينة العسكرية التى أقامها هناك . وكانت تشتمل على معسكر كبير ومدرسة للمشاة على أحدث نظام ومدرسة لأركان الحرب ومدرسة للموسيقى العسكرية ... الخ

وعنى محمد على باشا باصلاح مسجد عمرو بن العاص. وقد كتب « أورلبار »

---

(١) راجع مقال الأستاذ حسن عبد الوهاب بمجلة العمارة (عام ١٩٤١) عن العمارة فى عصر محمد على باشا

سنة ١٨٤٥ يقول « والأعمال جارية فى عمارة المسجد وترميمه وإصلاحه إصلاحا شاملا بأمر الباشا الحالى » وقد اهتم أيضا بتجديد مسجد السيدة زينب وإصلاح ماتهدم من أجزائه وتسقيفه وزخرفت جدرانه بالنقوش وصليت به صلاة يوم الجمعة فى ١٤ ربيع الثانى عام ١٢١٧ هـ وقد حضرها محمد على باشا والدفتر دار وبعد انتهاء الصلاة أهدى الباشا خلعة إلى الشيخ محمد الأمير المالكى .

ومن مؤسسات المرحوم محمد على باشا بالقاهرة جامعه العظيم فى القلعة . فقد بدأ عمارته سنة (١٢٤٦ هـ — ١٨٣١) . وقد تم رسم المسجد طبق مسجد نور عثمان بالآستانة وجامع سيدى ساريا بالقلعة وعمل له أربعة أبواب من الجهة البحرية بابان أحدهما للصحن والثانى للقبة ومن الجهة القبلية بابان أيضا وقد زينت جدرانه بالمرمر المصرى . وانتقل المرحوم محمد على باشا الى رحمة الله قبل تمام بناء المسجد فدفن فى مقبرة أمر بعملها له نقرا فى الجبل وباشر عملها بنفسه قبل موته . ولما تولى الأمر المرحوم عباس باشا فى سنة ١٢٦٥ هـ أمر باتمام هذا المسجد فأحضر أرباب الصناعات ونقشوا الأكتاف بعد بياضها وطلائها بلون الرخام وبلطت أرضية المسجد وطليت قبابه ونقشت الآيات القرآنية على قبابه ومحرابه بالخط الثلث المحلى بماء الذهب — ثم أمر عباس باشا بعمل مقصورة من النحاس الأصفر فعملت حول المقبرة ووضع بداخل المقصورة سبعة شمعدانات من الفضة ارتفاع كل واحد متران ووضع بها عدة مصاحف محلاة بالذهب

المطبعة الأميرية ودور الكتب

وكان من أعظم مآثر محمد على فى مصر والقاهرة خاصة انشاؤه المطبعة الأميرية ببولاق حيث طبعت مئات الكتب والرسالات فى شتى العلوم والفنون الحديثة

ولم يكن فى القاهرة دور عامة للكتب ولكن كان فى كل مسجد مكتبة مخاصة تحت اشراف شيخ المسجد . فمكتبة الأزهر اشتملت على عدة آلاف ن الكتب الدينية كما كان الحال فى مكتبات مساجد أبى الذهب وأزبك وشيخو

وكانت أكبر المكتبات الخصوصية فى مصر مكتبة الأمير القائد ابراهيم باشا فقد احتوت على ثمانية آلاف مجلد . وقيل أنه لما عاد من فتح المورة جلب معه ما لا يقل عن ١٥٠٠ كتاب كانت فى مساجدها وأودعها القلعة . وكان يمتلك « حبيب افندى » محافظ القاهرة مكتبة عظيمة اشتملت على خمسة آلاف كتاب أو أكثر

مشاهد القاهرة وحفلاتها

ولقد شهدت القاهرة فى أيام محمد على كثيرا من الحوادث العظيمة المتصلة بتاريخ مصر فقد خرجت الجيوش المصرية تحت قيادة الفاتح ابراهيم إلى بلاد العرب وفلسطين والشام والأناضول والسودان

وتنبهت القاهرة بعد نوم عميق دام ثلاثة قرون لم تر فيها لها جيشا مصريا حتى ولى أمورها محمد على باشا فوجدت هذا العاهل قد أسس الجيش المصرى الحديث وأصدر أوامره بخروج المجندين إلى ميادين التعليم خارج باب النصر حيث قبة العزب فخرجوا فى ثلث الليل الأخير وابتدءوا فى التمرين على الرماية وضرب النار ثم عادوا إلى المدينة فى احتفال عظيم فزحموا الطرقات بخيولهم واستقبلتهم الجماهير بالاعجاب والحماسة لأنهم لم يروا قبل ذلك اليوم جنودا من أبناء جلدتهم يزاولون الحرب

وفى اليوم التالى خرج محمد على قاصداً بولاق وجمع جنود ابنه اسماعيل باشا ونظمهم على الطريقة التى عرفت بالنظام الجديد . وشاهد تدريبهم على أيدى الممرنين الأوربيين . فلما أتم عدته وجهز جيوشه شاهدت القاهرة الجيوش المصرية تخرج منها وتعود اليها تحمل ألوية النصر

وفى عام واحد (١٢٢٩ هـ — ١٨١٣ م) شهدت القاهرة حفلتى زواج الأمير اسماعيل نجل محمد على باشا بابنة عارف بك — وزواج الدفتردار من ابنة زينب هانم — فى حفلة الزواج الأولى كلف كتخدا بك (محافظ القاهرة) السيد محمد المحروقى كبير تجار القاهرة بتنظيم الأفراح واتفق على أن تكون مهرجاناتها ببركة الأزبكية تجاه بيت حريم محمد على باشا وطاهر باشا على أن



شاعر ينشد فى مقهى

يجتمع المدعوون فى بيت الأخير وتدار المطابخ فى خرائب بيت الصابونجى. وأقيمت فى وسط البركة عدة صوارى لتركيب القناديل والمصابيح ونصب حبل لبهلوان امتد من بيت الباشا الى رأس مأذنة كانت بجهة حارة الفوالة . واجتمعت طوائف اللاعبين والموسيقيين والحواة والرقاصين .واستمر اللهو عدة أيام لبست القاهرة اثناءها حلل الزينة والابتهاج

وفى اليوم المعين لزواج الأميرة زينب هانم حضر حريم الباشا من بولاق الى الأزبكية فى عربات مقفلة فدوت المدافع لهن ، وأقيمت الولائم وأعدت العربات الفخمة لنقل المدعوين ، وفى يوم الزفاف سارت العربات من ناحية باب الهواء (؟) فقصد قنطرة الموسكى فباب الخلق ثم درب الجماميز ، وعطف من الصليبة على المظفر فالسروجية فقصبة رضوان بك فباب زويلة فشارع الغورية فالجمالية الى سوق مرجوش فبين السورين فالأزبكية حيث كان منزل العروسين

وقد أطبق الغيم على الجو لما توسط الموكب المدينة وأمطرت السماء فتوحلت الأرض وابتل السائرون والمتفرجون واختل نظام الاحتفال ، ولم تصل العروس الى دارها الا قبيل دنو الشمس من غروبها ، ثم انجلى الجو

وفى نفس العام خرجت زوجة الباشا للحج فمرت تحت باب النصر فى محفة عظيمة وحضر لوداعها ابنها ابراهيم باشا من الصعيد مع أخيه اسماعيل باشا ، وفى صحبتها الدفتردار وطاهر باشا وصـــالح بك السلحدار وغيرهم من أفراد الأسرة العلوية .

رحالة ومستشرقون

وبين الشخصيات الفذة من الأجانب الذين أقاموا فى القاهرة فى أيام حكم محمد على — المستر إدوارد ويليام لين — وكلوت بك ، قام الأول وحده بما لم تسبقه فيه غيره من علماء الأوربيين فقدم آداب المصريين وعوائدهم وأخلاقهم وبيوتهم لأوربا ، وأدخل الثانى الى مصر الطب الحديث كما عرفته أوربا فى ذلك الحين — عاش الاثنان فى القــاهرة معيشة المصريين وامتزجا بهم وابتعدا عن أبناء جنسيتهما وقضيا فى بيتهما حياة دراسية

ولا ننسى الكبتن سيف - سليمان باشا الفرنساوى فيما بعد - الذى أخذ على عاتقه ترقية الجيش المصرى وجعله الأداة الرئيسية التى حقق بها محمد على باشا ملكه العظيم

وزار مصر الأديب الفرنسى الكبير - شاتوبريان - فقابله ابراهيم باشا لغياب أبيه عن القاهرة - وزار جزيرة الروضة وشاهد الأهرام

وفى أواخر عام ١٨١٧ زار مصر الكونت دى فوربان - وقد وصف فى كتابه مدينة القاهرة وصفا سريعاً بعد زيارته مساجدها وحماماتها وكالتها وأسواق الرقيق . وبعد رحلته فى أنحاء مصر قصد الأسكندرية وقابل محمد على باشا فى قصر رأس التين وتحدث إليه عن مشروعاته التى أعدها للبلاد والصعاب التى

يقاومها وصرح له بعزمه على تحقيق رغائبه ولا سيما تحصين السواحل بالقلاع والحصون

وفى عام ١٨٢٠ جاء مصر « الكونت ماركيلوس » الفرنسى وتعرف بالكبتن سيف وكان بيته مجمعا لأهل العلم والفن من الفرنسيين منهم «جول بلانا» « وهوارس فيرنيه » — ومارمون — وجسكيه وآمبير وفلوبر .. وغيرهم

وقابل « ماركيلوس « قبل رحيله من مصر — محمد على باشا — فى قصره بالأسكندرية فبالغ فى الترحيب به وتحدث إليه عن حملته إلى سيوة — وفى المقابلة الختامية خلع عليه الباشا هدية ثمينة

وجاءت بعده نخبة من الرسامين المشهورين ورجال الآثار وجماعة « سينت سيمون» الذين قاموا فى مصر بعدة ابحاث منها طليعتها قناة السويس والقناطر الخيرية

وفى ١٢ أكتوبر عام ١٨٣٤ وصل ماريشال فرنسا «مارمون» إلى مصر فاستقبل استقبالا رسميا . وقابله الباشا أمام قصره وسار بجانبه حتى دخل قاعة الاستقبالات وأجلسه إلى جانبه

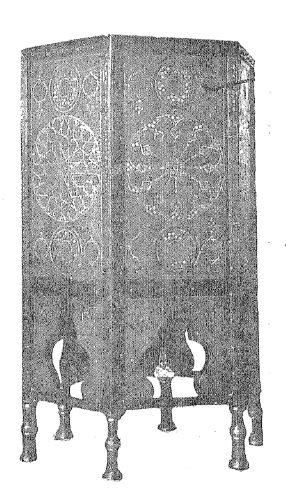
وقدزارمارمون أنحاءمصر وجميع المنشئات العسكرية ومناطق الآثار ثم عاد إلى الى القاهرة بعد ستة أسابيع ، وكانت عودته فى شهر رمضان فكان يرى ذاهبا عقب العشاء الى قصر الجوهرة بالقلعة حيث يجلس مع الوالى للتحادث فى مختلف الشئون الدولية والعسكرية والبحرية — ويدخنان النرجيلة ويشربان القهوة فى فناجين الذهب

وقد احتفل بتوديعه رسميا أمام قصر سليمان باشا على النيل بمصر القديمة وركب فرقاطة عسكرية عائدا الى فرنسا

وآخر طائفة العلماء الذين وفدوا على القاهرة فى أيام محمد على باشا مغامر فرنسى إدعى الاسلام ، وهو « بريس دافين » ، وكان فى عام١٧٢٩ مهندساللرى ثم مدرسا للطبوغرافية فى مدرسة أركان الحرب بالخانقاه ومشرفا على تربيةأبناء

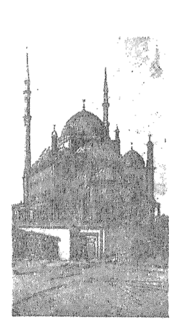
ابراهيم باشا ، وفى ذلك الحين قدم هذا الشاب عدة مقترحات فى مقدمتها مشروع تجفيف بحيرات شمال الدلتا للانتفاع بأراضيها الشاسعة وبناء قنطرة على النيل بين الروضة وبساتين ابراهيم باشا ، وأجاد العربية ودرس اللغة المصرية القديمة وشغف ببحث الآثار وأخيرا طلق منصبه الحكومى ليغذى مواهبه بالتعمق فى فى دراسة العاديات فارتدى عباءة وعاش عيشة الفلاحين وبدأ تنقلاته بين بلاد الوجهين البحرى والقبلى وبلاد النـوبة — وألف كتابه « نزهة نيلية فى الجزء الشرقى من الوجه البحرى » واشترك مع عالم انجليزى فى حفريات طيبة بين عامى ١٨٣٩ و ١٨٤٣ وأخرجا سويا للعالم ماكان مستوراً خلال الأجيال الطويلة

وكان « بريس » فنانا مبدعا فى الآثار العربية ، وكتابه النفيس فى العمارة العربية لايزال مرجعاً يعود إليه محبو الفن الاسلامى



من مخلفات الفن الاسلامى بدار الآثار العربية

قاهرة الخديو اسماعيل



جامع محمد على الكبير

شاءت همة اسماعيل العظيم عندما ولى أمر مصر الا أن تنهض بعاصمة ملكه . وعزم على ادخال الاصلاحين الاجتماعى والصحى على قاهرة المعز لدين الله مع بقائها على ما هى عليه من ذاتية القرون الوسطى . ورأى فى الوقت نفسه أن ينشىء قاهرة أخرى غير الموجودة يدعوها العصران الحاضر والمستقبل «قاهرة اسماعيل» تمتاز بشوارعها الفسيحة وميادينها الواسعة ذات القصور الأنيقة والنافورات الجميلة والبساتين الزاهية والأحياء الممتعة .

فامر بازالة ما بقى شمال القاهرة من أكوام الأنقاض وردم ما لم يطمر من المستنقعات والبرك وتنظيف ما بين بابى الفتوح والنصر وقلعة الكبش والسيدة زينب من شوارع وأزقة ودروب وأسواق بتعميم الكنس والرش . وخط ما بين الظاهر وباب الحديد الشارع المسمى الآن بشارع الفجالة وخط أيضا بين باب الحديد والأزبكية الشارع الذى أطلق عليه اسم كلوت بك لا لتكريم الطبيب الفرنسى فحسب لكن للدلالة على ان الاصلاح الصحى سيسير من شمالى المدينة الى جنوبها ويتناول بذراعيه شرقها وغربها - ثم خط جنوبى الأزبكية بشرق إلى القلعة الطريق الفخم الذى أطلق عليه اسم جده العظيم فأصبح السبيل الى القلعة سهلا أمينا بعد أن كان الوصول اليه عن الطريق التى يتبعها المحمل سنويا منه إلى الحسينية وعرا كثير التعرجات

والمنعطفات . وفى أيام اسماعيل العظيم تم امتداد شارع السكة الجديدة الى جهة الغريب وكان قد بدأه محمد على باشا سنة ١٢٦٢ هـ . كذلك خط شارع عابدين الذى ابتدأ من منزل راغب باشا إلى شارع غيط العدة وهدم فى سبيله الكثير من المنازل والزوايا الصغيرة

الازبكية والاسماعيلية

ولما عاد اسماعيل عام ١٨٦٧ من باريس أقدم على الأزبكية يريد تحويلها على شاكلة حدائق تلك العاصمة فخرج إلى الوجود بستان من أبهج المتنزهات ومكان بديع تنيره الأنوار الغازية وتزينه النافورات والمنائر الصناعية وتتلوى فيه البحيرات الصافية تبلغ مساحته ثمانية عشر فدانا وأحاطه بسور جميل له أربعة أبواب كبيرة ما زلنا نراها اليوم وجىء لهذا البستان بأشجار من الصين والهند والسودان والمناطق الاستوائية .وغرست فيه الأحراش الغزيرة والأنواع المختلفة من الحشائش والأزهار ووضعت فى بركه أنواع عديدة من الطيور المائية والأسماك ـ وفى عام ١٨٧٢ احتفل بافتتاح البستان رسميا وحضر الاحتفال سمو الخديو وكبار رجال حاشيته وأعيان القاهرة . وأطلق على هذا البستان حديقة الأزبكية

ثم أقبل على الحى المحيط بهذا المتنزه ينتزع ملكية منازله الخشبية التى كانت للاقباط مقابل تعويضات دفعها اليهم وأزال تلك المساكن . ووهب الأرض التى كانت قائمة عليها هبة إلى من شاء التعهد باقامة مبان فخمة عليها تتفق مع عظمة القاهرة الاسماعيلية التى رغب إنشاءها . وجعل ميدان الأزبكية مركزاً للاحياء الجديدة التى وضع تصميمها . فأوصله بالموسكى شرقا واتجه الى غربيه فأزال ما كان يعرف بباب الجنينة وهو باب كان قائما على مدخل حى باسمه فى منتهى الطريق الواصلة ما بينه وبين بولاق . وخط الى جنوبه بميل نحو جهة الغرب الأحياء البديعة المعروفة إلى اليوم بأحياء التوفيقية وعابدين والاسماعيلية بعد أن أقام فى طرف الأزبكيـــة الجنوبى المسرحين الفخمين وهما المسرح الجديد والأوبرا

واختط فى تلك الأحياء الطرق العريضة الظليلة الواصلة بين جهاتها المختلفة – تلك الطرق التى بالرغم عن كل ما استحدث بعدها لا تزال من أفخر مسالك القاهرة وأكبر شرايين مواصلاتها وأهمها شارع عبد العزيز . والشارع الذى أقام نوبار باشا فيه قصره الفخم فسمى باسمه من ناحيته الشمالية (شارع ابراهيم باشا) وشارع كوبرى قصر النيل وشارع سراى الاسماعيلية غربا وغيرها مما امتازت به القاهرة الاسماعيلية

أما جنوبا فخطت طرق جديدة وفتحت دروب وأزقة كثيرة فاتصلت أحياء السيدة زينب بحى عابدين وأقام ذلك الميدان الفسيح الأرجاء أمام قصره الذى أنشأه بعابدين ليكون مقرا للملك بدل قصر الجوهرة بالقلعة

ومن الأحياء الزاهرة حى الاسماعيلية وأرضها كانت تغطى أرض اللوق وميدانى الصالح نجم الدين والناصر محمد بن قلاون وبستان الفاضل وكانت الى قبيل أيام اسماعيل قد تحولت الى كثبان أتربة وبرك مياه وأراضى سبخة حتى قيض الله لمصر اسماعيل . فأبدل وحشتها أنسا ونظمها وصارت كما قال العلامة على باشا مبارك «من أبهج اخطاط القاهرة وأعمرها» . وأنشئت فيها الشوارع والحارات على خطوط مستقيمة وأغلبها متقاطع على زوايا قائمة ودكت شوارعها وحاراتها بالحجر ونظمت على جوانبها الأفاريز ومدت فى أرضها أنابيب المياه وأقيمت عليها أعمدة المصابيح الغازية . وسكن الاسماعيلية الأمراء والأعيان . ومنهم حسين باشا الدرمللى واحمد باشا خيرى ومحمود باشا الفلكى وعمر باشا لطفى وغيرهم

حديقة الأورمان

وأنشأ الخديو اسماعيل بستان الأورمان وجلب أشجاره من جزائر الروم بعد ما ردمت أرضه بطمى النيل على ارتفاع مترين وردم أيضا الأراضى المجاورة له على يد مقاولين أوربيين اشترط معهم أن تكون تكاليف المتر المكعب فرنكا ونصف فرنك على أن يقوم اسماعيل باشا نفسه بنفقات السكة الحديدية التى أنشئت لهذا العمل . وعهد برسم البساتين للمهندس « باريل بك » المشهور فى

تنظيم الحدائق . وهو الذى نظم حديقة الأزبكية فنوع فى رسوم حديقة الأورمان — وجعل بها مناظر مختلفة وتلالا عليها جسور تمر فوق وديان . وكان نحو خمسمائة عامل يشتغلون فى تلك البساتين . فصارت بساتين الجيزة والجزيرة فريدة فى نوعها . وبلغت مساحة الأراضى المشغولة بتلك الحدائق أربعمائة وخمسة وستين فدانا

شوارع القاهرة

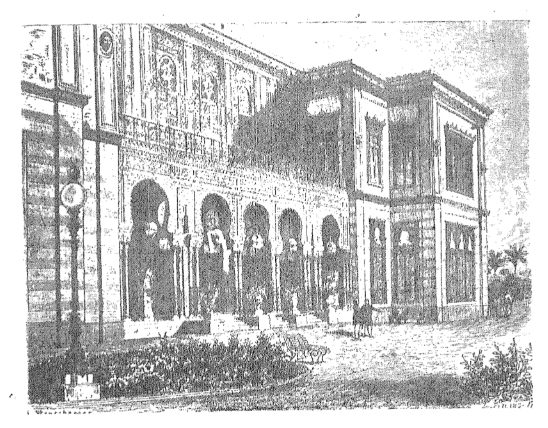
وكان شارع محمد على أطول شوارع القاهرة.كانت بأوله المقبرة المعروفة «بترب المناصرة» ولما شرعت حكومة إسماعيل فى إنشاء هذا الشارع جاء مروره فى وسطها تقريبا فصدرت الأوامر للمحافظة بمشترى الأملاك الداخلة فيه وهدمت المقابر ونقل منها بعض العظام إلى قرافة الامام الشافعى . وأودع البعض الآخر فى صهريج بنى عليه المسجد المعروف بمسجد العظام فى شارع عبد العزيز . وقد أزيلت مبان كثيرة منها جامع أزبك وأقيم فى محله تمثال ابراهيم باشا قبل نقله إلى محله الحالى فى ميدان ابراهيم باشا . وأزيل أيضاً جامع اسكندر باشا . كما أزيلت مجموعة من البيوت القديمة والحارات . وأصبحت الأحياء التى يمر بها ذات طابع خاص وارتفع ايجارها ورغب السكن فيها وبنيت على ضفتيه عمارات كبيرة كالتى أنشأها الحاج محمد أبى جبل من التجار المشهورين . وقصر الأمير حسن باشا الشريعى وقصر نعمانى باشا وسراى الأمير رستم باشا وغيرها

وكانت جهة شبرا بمزارعها النضرة المكان المطروق للتنزه والرياضة. وكان يقصدها المرتاضون مشاة وركبانا ، وكان المار يرى الدواب المطهمة تغدو وتروح أو واقفة فى انتظار سيدها . ويرى العربات الفخمة تجرها الجياد المجرية المطهمة تحمل أفراد الأسرة الخديويه والسراة والأعيان يتقدم تلك العربات القمشجية (السواس) لافساح الطريق وإتماما لمظاهر الأبهة — وكانت شبرا مقر الكثيرين من الأسر الكبيرة فيها قصر زينب هانم بنت محمد على باشا. وقصر أينجوا هانم أرملة سعيد باشا وقصر شيكولانى البديع الحافل بالتماثيل النادرة وقصر النزهة الذى كان يقصده إسماعيل باشا للراحة وغيرها من البيوت الأنيقة التى تحيط بها الحدائق الغناء

وكانت أرض الطبالة أرضا غير معبدة فحولها الفرنسيون إلى شارع منظم يمتد من قنطرة باب الحديد إلى قنطرة العدوى. وكان السالك فى ذلك الشارع يجد عن يمينه من جهة باب الشعرية القرية التى عرفت بقرية كوم الريش. وقد صارت تـــلالا عالية حتى أمر بأزالتها الخديو إسماعيل. وبدأ هذا الحى ينمو وينتظم — وعرف بحى الفجالة ابتداء من ترعة الاسماعيلية إلى سور القاهرة عرضا. ومن جامع أولاد عنـــان إلى بوابة الحسينية طولا. وبنيت الأرض المملوكة للحكومة. وبنى فيها كما شيد على غيرها من أراضى الأهالى مبان عظيمة وقصور فاخرة تحيط بها الحدائق. وأصبحت هذه المنطقة نزهة للطلاب وارتفعت أثمان أراضيها حتى بيع المتر المسطح بنحو الثمانين قرشا بعد أن كان لايثمن بأكثر من قرش واحـــد

قصور القاهرة

وفى زمن الخديو اسماعيل إزدهرت القاهرة بتلك القصور البـــديعة التى أنشئت فى جهتى الجزيرة والجيزة. فقد شيد قصران كانا من أعظم المبانى الفخمة. وامتازا بما كان فى بستانيهما من الأشجار والأزهار والقنوات والبرك والقناطر فهنا قصر الجزيرة ببستانه الزاهر يشغل ستين فدانا قد اشتمل على قصر للحريم وسلاملكين أحدهما كبير والآخر صغير. وكانا من تصميم فرانز باشا (FranzPacha) النمسوى رسمها على الطراز العربى القديم. وأحاط البستان بسور من الحديد جعل فيه محلات للحيوانات المتنوعة كالفيلة والسباع والقردة وأنواع الطيور المختلفة الألوان. وفرش مساريه بالرمل والزلط. ووزع فيه المصابيح. فكان بديعاً أن تراه ليلا — وهناك قصر الجيزة الذى بناه المرحوم سعيد باشا. وكان يتألف من قصر صغير وحمام. وبعد وفاته اشتراه الخديو اسماعيل باشا. وما يتبعهما من الأرض ومساحته نحو ثلاثين فدانا من ابنه المرحوم طوسون باشا وهدمهما وبناهما وفرشهما — وبعد قليل أخذ فى توسيع القصر من ناحية النيل وزاد فى المبانى واستدعى من الأستانة أحد المهندسين لرسم المبانى الجديدة كما استدعى له مشاهير الصناع ورجال الحدائق. فنظموا بستانها وفرشوا طرقاته بالزلط



قصر الجزيرة كما تبدو واجهته من الخارج

الملون المجلوب من رودس وجعلوا فيه جبلايات وبحيرات متسعة وغدرانا عليها قناطر واكشاكا للجلوس وأقفاصا واسعة للطيور . وأوصل له المياه النيلية المرفوعة بطولمبة خاصة وأنير بمصابيح الغاز وأقام فيه سلاملكا شيده من الحجر المنحوت

ثم شيد قصر عابدين . وقد تفنن أهل الفن فى تنسيقه وتزيينه بالأثاث . وقصر الاسماعيلية الصغير . وقصر بولاق التكرور . وسراى فاطمة هانم والقصر العالى وقصر الزعفرانى بالعباسية للوالدة . كما شيد قصرا كبيرا بالعباسية احترق فيما بعد — واتخذ جانب منه مستشفى للأمراض العقلية . وكانت جميع جدران هذه القصور محلاة من الداخل وسقوفها مكسوة بالأقمشة المتنوعة . وبلغت تكاليفها وما صرف عليها من صناع ومفروشات ونقوش مليونا وثلثمائة وثلاثة وتسعين ألفا وثلثمائة وأربعة وسبعين جنيها . وعلى قصر عابدين ستمائة وخمسة وستين ألفا وخمسمائة وسبعين جنيها . وقصر الجزيرة ٨٩٨ر٦٩١ جنيها . وقصر الاسماعيلية الصغير ٢٨٦ر٢٠١ جنيها ... الخ

وفى أيام اسماعيل باشا شيد الأمراء وكبار رجال دولته كثيرا من المبانى الكبيرة ولا سيما فى أحياء الاسماعيلية والفجالة وشبرا ، وبلغ تعدادها مئات وامتدت العمارة الى طريق السبتية بين محطة السكة الحديدية وبولاق ، ونتج عن هذه الأعمال اختفاء التلال والبرك الآسنة التى كانت بأراضى الاسماعيلية . وبجانبى طريق بولاق وطريق السبتية والفجالة . وصارت تلك الجهات من أجمل أحياء القاهرة عمارة وتخطيطا وتنسيقا

ومن هذه المنشئات قصر وزير الدولة رياض باشا وقصر ناظر المعارف على مبارك باشا وسراى شريف باشا والمناسترلى والفرنساوى . . وغيرهم

النيل واسماعيل

وفى أيام اسماعيل تعدت عمارة القاهرة الى شاطئ النيل الغربى .فشيد قصر الجيزة والجزيرة وحديقة الأورمان — ورأى بثاقب بصره أنه لم يعد يحسن ابقاء العبور من شاطىء الى شاطىء على قنطرة من القوارب المصفوفة بعضها بجانب بعض والممدودة عليها ألواح الخشب أو فى معديات صغيرة ، فأمر باقامة كوبرى قصر النيل وكانت فى ذلك الحين من أجمل قناطر العالم من حيث هندستها وجمالها ، وقامت بصنعها شركة « فيف ليل » الفرنسية التى بدأت العمل عام ١٨٦٩ وأتمته فى خلال سنة ونصف . ثم سلمت القنطرة للحكومة فى منتصف عام ١٨٧١ . وبلغت نفقات انشائها مائة وثمانية آلاف من الجنيهات

ولما استحضر الخديو اسماعيل المثالين اللذين صنعا تماثيل محمد على باشا وابراهيم باشا وسليمان باشا الفرنساوى كلف أحدهما بعمل أربعة تماثيل لأربعة من السباع الضخمة فصنعاها أجمل صنع من معدن البرونز . ثم أقيم كل اثنين منها على طرفى القنطرة من جهتيها المتقابلتين فزادت هذه التماثيل الفخمة فى أبهة القنطرة ورونقها وجعلت لها منظرا رائعا

رأى اسماعيل فيما بعد حاجة القاهرة الى ربط الجزيرة بالجيزة . فكلف شركة انجليزية لتصل بينهما فانجزت قنطرة أخرى عام ١٨٧١ . وهى القنطرة التى تعرف اليوم باسم « كوبرى الانجليز » . وبلغت نفقاتها نيفا وأربعين ألف جنيه

وكان الخديو اسماعيل أول من شرع فى إقامة تماثيل العظماء فى الميادين العامة تخليدا لذكراهم . فأمر بصنع التمثالين الكبيرين اللذين يزينان أهم ميادين القاهرة والاسكندرية الأول لمحمد على وقد أقيم فى الاسكندرية . والثانى لابراهيم باشا وقد نصب فى القاهرة عام ١٨٧٢ بميدان العتبة الخضراء - ثم نقل فيما بعد إلى ميدان الأوبرا (ابراهيم باشا)

مساجد القاهرة واسماعيل

وأمر اسماعيل بتجديد مسجد سيدنا الحسين . فندب المرحوم على مبارك باشا لعمل رسم واف فوسع المسجد عن قبل . وكلف راتب باشا الكبير وهو يومئذ على نظارة الأوقاف المصرية باجراء العمارة على أســـــاس ذلك الرسم . وشرع فى هدم البناء القديم ما عدا القبة والضريح وبدأ فى البناء فى (١٥ المحرم سنة ١٢٨٢ هـ) وبعد ثمانية أعوام تم العمل فيه ما عدا المأذنة فقد انتهت بعد خمس سنوات . وفى عهد اسماعيل بنيت الأبواب الثلاثة الرخامية للمسجد إلى جهة خان الخليلى

وأنشأ الخديو اسماعيل فى الجهة القبلية لقصر عابدين جامعا له بابان عظيمان مرتفعان بدرج فى واجهته وكان يصلى فيه صلاة الجمعة

وبأمره بنى سبيل الشيخ صالح (١٢٨٤ هـ — ١٨٦٧ م) فى السنة التى أنشىء فيها مسجد الشيخ صالح تجاهه

وبنى سبيل أم عباس بشارع الصليبية وقدأنشأته المرحومة والدةعباس باشا ابن عم اسماعيل باشا فى (سنة ١٢٨٤ هـ — ١٨٦٧ م) وله واجهة كبيرة حافلة بالزخارف والكتابات الجميلة الذهبية

الآثار العربية والفرعونية

ولم ينس اسماعيل باشا قلعة صلاح الدين . فجدد أسوارها . وللمرة الأولى منذ الاحتلال العثمانى كتبت باللغة العربية على جدرانها العبارة الآتية :

« انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم »

أمر بانشاء وتجديد هذا السور المبارك خديو مصر حالا اسماعيل بن الحاج

ابراهيم ابن الحاج محمد على فى تاريخ شهر رجب سنة (١٢٨٥ هـ — ١٨٦٨ م).
وأصلح اسماعيل ميدان الرميلة ووسعه وغرس به الأشجار وأوصله بشارع محمد على فصار من أفسح ميادين القاهرة

وكان محمد على باشا قد أنشأ داراً للآثار المصرية بجهة الأزبكية بمنزل الدفتردار وأمر بمنع خروج التحف القديمة من مصر. وفى أيام سعيد نقل ماتجمع منها الى مخازن أعدت لها فى بولاق

ولما توفى سعيد باشا لقى « ماريت » الأثرى الفرنسى تعضيدا عظيما فأمره الخديو باصلاح تلك المخازن وتوسيعها وافتتحها رسميا يوم ١٨ اكتوبر سنة ١٨٦٣ ثم نقل المتحف الى الجيزة عام ١٨٩١ وأخيراً إلى مكانه الحالى بجوار قنطرة اسماعيل سنة ١٩٠٢

وفى أيامه أيضا أصدر أمراً بانشاء دار الآثار العربية سنة ١٨٦٩ وعهد بانفاذ المشروع الى فرانز بك كبير مهندسى الأوقاف ليجمع فيها ما كان مبعثراً فى المساجد من الآثار الاسلامية. وان هذه الفكرة وان لم تحقق فى أيام اسماعيل فقد حققها ابنه توفيق باشا. فاختار « فرانز بك » الأيوان الشرقى من جامع الحاكم لكنها لم تتسع اتساعا كبيراً الا فى عام ١٨٨١ بصدور أمر عال قضى بتشكيل لجنة حفظ الآثار العربية. وفى عام ١٨٨٣ بنى لها مكان خاص فى صحن جامع الحاكم لضيق الأيوان الشرقى. وفى ٢٨ ديسمبر عام ١٩٠٣ افتتحت دار الآثار العربية الحالية وعرضت بها المجموعات الأثرية التى رتبها مديرها فى ذلك الحين هرتس باشا

ومن أهم مؤسسات اسماعيل — الجمعية الجغرافية الخديوية — التى أسسها عام ١٨٧٥ وكان رئيسها العالم الألمانى الدكتور « شوينفرث » — ووكيلاه العلامة محمود باشا الفلكى والجنرال « ستون باشا » رئيس أركان حرب الجيش المصرى

وفى القاهرة الاسماعيلية أسست أول جمعية علمية ظهرت فى مصر الحديثة مهمتها نشر الثقافة بواسطة التأليف والطباعة والنشر — وكان اسمها جمعية المعارف

أسست هذه الجمعية سنة ١٨٦٨ وجعلت تحت رعاية الأمـــير محمد توفيق باشا ورئاسة محمد عارف باشا واقتنت مطبعة لطبع الكتب التى تولت نشرها عدا ما كانت تطبعه فى دار الطباعة الأميرية

ورأى اسماعيل أن ينشىء مكتبة عامة تجمع الكتب المتفرقة فى مخـازن الحكومة ومكاتب الأوقاف وفى المساجد ونحوها فأمر على باشا مبارك عام ١٨٧٠ بتحقيق فكرته فجعل مقرها فى الدور الأسفل من قصر الأمير مصطفى باشا فاضل بدرب الجماميز بجوار معظم المدارس وجمع فيها ما تشتت من الكتب . وأضاف اليها اسماعيل نحو ألفى مجلد من المخطوطات العربية والفارسية ابتاعها من تركة حسن باشا المناسترلى . كما اشترى مجموعة الكتب القيمة التى تركها أخوه الأمير مصطفى فاضل بعد وفاته وأهداها إلى دار الكتب . وفى عام ١٨٨٩ تقرر نقلها الى السلاملك الذى كان به ديوان وزارة المعارف العمومية فى نفس سراى الأمير المشار اليه . ولما انتهى بناء الدار التى خصصت لها ولدار الآثار العربية بميدان باب الخلق عام ١٩٠٤ نقلت اليها

وأنشأ اسماعيل دار الرصد بالعباسية وعهد برئاستها الى اسماعيل بك الفلكى (باشا فيما بعد) والعالم المشهور . وأنشأ أيضا مصلحة للاحصاء تولاها المسيو « دى رينى » بك ثم المسيو « أميشى بك »

مدارس القاهرة

أيقظ اسماعيل الروح العلمية فى البلاد بما أسسه فيها من المدارس العالية والثانوية والخصوصية والصناعية والزراعية والابتدائية .. الخ ، فأنشأ بالعباسية عام ١٧٦٦ مدرسة الرى والعمارة (المهندسخانة) بسراى الزعفرانى ثم نقلت عام ١٨٦٨ الى سراى درب الجماميز . وأسس مدرسة الادارة والألسن وكان مقرها بجوار قصر محمد على الذى سكنه مدة طويلة قبل انتقاله الى قصر الجوهرة . ولما أغلقت تحولت الى فندق عرف فيما بعد باسم « فندق شبرد » وأسس أيضا مدرسة دار العلوم (١٨٧٢ م) ومدرسة الطب والولادة ومدرسة الفنون والصناعات ومدرسة المحاسبة والمساحة ومدرسة اللسان المصرى القديم (١٨٦٩) ومدرسة

الزراعة ومن أهم المدارس الثانوية كانت المدرسة التجهيزية بالعباسية (١٨٦٣) ونمت المدارس الابتدائية فى القاهرة فقد بلغت ١٥ مدرسة موزعة على أحيائها

وبدأ فى عهد اسماعيل باشا انشاء مدارس البنات . فى سنة ١٨٧٣ أسست مدرسة السيوفية للبنات انشأتها السيدة « جشم آفت هانم » ثالث زوجات الخديو اسماعيل وكان بها حين افتتاحها نحو مائتى تلميذة . وبعد عام واحد بلغ عددهن أربعمائة تلميذة يتعلمن مجانا . وأنشئت أيضا عدة مدارس أو أربعة كان اسماعيل باشا يهبها الهبات الكبيرة تشجيعا لها

وبدأت تتمشى روح الاصلاح والتقدم فى الأزهر منذ ولى مشيخته الشيخ محمد العباسى المهدى عام ١٨٧١ . وفى تلك السنة جاء السيد جمال الدين الأفغانى الى مصر ففتح فى الأزهر روح النهضة التى حمل لواءها الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده

وكان نصيب القاهرة فى المؤسسات العسكرية الحديثة كبيراً . فقد وحد المعاهد الحربية فى مناطق القاهرة بعد أن كانت مبعثرة فى ضواحيها بالخانقاه وأبى زعبل والقناطر الخيرية وطره وجعلها فى العباسية وقصر النيل

أمر بنقل المدرسة الحربية التى كانت بالقناطر الخيرية الى قصر النيل ثم الى العباسية وأنشأ بهذه الجهة التى أحياها عباس باشا الأول عدة مدارس حربية وجعل مقرها فى القصر الفخم الذى أنشأه الأمير المذكور ووحد ادارة المدارس الحربية لتشمل المعاهد الآتية :

مدرسة المشاة ومدرسة الخيالة ومدرسة المدفعية والهندسة العسكرية ومدرسة أركان الحرب بالعباسية ومدرسة الخطرية بالقلعة لتخريج ضباط الصف ومدرسة الطب البيطرى وألحقت فيما بعد بمدرسة الخيالة ، وأنشأ اسماعيل باشا ميدانا للرمى المدافع وآخر للبنادق والتمرينات العسكرية أسماه البوليجون « بالعباسية » وشيد بطره معملا لصنع الأسلحة . وآخر لصب المدافع ومثله للبنادق عدا مصانع الذخيرة الصغيرة والقنابل

حفلات القاهرة

وفى أيام الخديو اسماعيل زار السلطان عبد العزيز مصر (٧ ابريل ١٨٦٣)



نزهة الخديو اسماعيل فى عربته تحف به فرسان الجيش والمماليك

فاستقبله الخديو على يخته بميناء الاسكندرية ، وفى اليوم التالى انتقل السلطان الى القاهرة وكان قد أعد له قصر الجوهرة وصلى صلاة الجمعة بجامع محمد على وزار ضريحه . ثم قدم له الخديو كبار رجال دولته والأعيان . وفى اليوم الحادى عشر عرض مهرجان المحمـل النبوى بميدان الرميلة ، وكان الخديو قد أعد له برنامجا لمشاهدة أحياء القاهرة ، وفى عصر ذلك اليوم زار السلطان أنجال اسماعيل باشا فى قصر النيل بالروضة وعاد قبل المغرب الى قصر الجوهرة فشاهد فى اثناء عودته أقواس النصر والثريات والأنوار التى أقامها أصحـاب المحال التجارية على بيوتهم وحوانيتهم

وفى أثناء إقامة السلطان بالقاهرة زار متحف الآثار القـديمة فى بولاق والمصانع الكبيرة وزار أهرام الجيزة وهناك تناول الخليفة طعام الغذاء

وفى اليوم الأخير من الزيارة السلطانية (١٦ إبريل) غادر الخليفة القلعة فى الساعة العاشرة فدوت المدافع مؤذنة بالرحيل وأخذ الموكب طريقه إلى قصر النيل ثم أقله القطار الخاص إلى الأسكندرية التى ودعته فى اليوم التالى باحتفال عظيم

وشهدت القاهرة فى عام ١٨٧٣ حفلة زواج الأمراء الثلاثة توفيق وحسين وحسن أنجال الخديو وكانت من أفخم حفلات الزواج فى تاريخ مصر الحديثة دامت أربعين يوما كاملة زينت فيها الشوارع المؤدية الى القصر العالى مقر والدة اسماعيل والى قصر الجزيرة والى قصر القبه مقر الأمير ولى العهد .وكانت أمام القصر العالى رحبة فسيحة هى التى يشغلها اليوم حى المنيرة بفضلها عنه شارع القصر العينى . الآن وقد نصبت فيها السرادقات الفخمة لاستقبال المدعوين ليتناولوا صنوف الطعام فى بعضها ويتمتعوا بمشاهدة الألعاب وسماع الأغانى فى البعض الآخر وكان فى طليعة الفرق الغنائية تخت عبده الحمولى

وفى أول يوم من هذه الحفلات الرائعات بدأ خروج الهدايا المقدمة من سمو الأميرة والدة اسماعيل باشا وزوجاته الى عرائس الأمراء من القصر العالى وشوارهن . وكانت الهدايا موضوعة فى سلال مكشوفة فوق عربات مكسوة بالقصب على مخدات من القطيفة المزركشة بالذهب والألماس يغطيها شاش فاخر أمسك بكل طرف من أطرافه الأربعة جنود يتبعهم ضابطان فى ملابسها الرسمية . واجتاز الموكب شوارع العاصمة المزينة بين تصفيق الشعب المبتهج وهتاف الجماهير وفرق الجند

وفى قصر الجزيرة أقيم مرقص ودعا اليه سمو الخديو مايزيد عن سبعة الآف من كبار المصريين والأجانب . ولم تكن حفلات الرقص واللعب والغناء المقامة فى المدينة قاصرة على ذلك بل أن ما أقيم منها فى داخل القصر العالى وفى دور الحريم كان أعظم وأبهى . فهنا أشهر الراقصات يرقصن وهناك « ألمظ » على التخت تشجى بصوتها العذب آل القصر

وفى عاشر أيام الاحتفالات بعد ظهر يوم الخميس انتظم موكب زفاف عروس ولى العهد وخرجت بصحبة سمو الوالدة باشا من قصر الحلمية قاصدتين العريس ولى العهد فى قصر القبة وتقدم الموكب الموسيقى السوارى وفرقة من المشاة وأخرى من السوارى وتبع ذلك عربات مقفله فيها الأميرات قريبات العروس ثم أقبلت عربة العروس يجرها ثمانية من جياد الخيل وكان حوذيتها يلبسون الملابس الحمراء المزدانة بشراريب القصب تتدلى على جانبيهم وجوارب

من الحرير الأبيض ويضعون على رؤسهم شعوراً بيضاء مستعارة مسترسلة على أكتافهم . ووقف فى مؤخرة العربة إثنان من الفرنسيين بزيهم المخصوص الأبيض القصير الملاصق لأجسامهم وصداراتهم ذات الأزرار الذهبية وقبعاتهم الصغيرة وحف بالعربة صفان من الأغوات على جيادهم وهم يرتدون الشيلان المهداة لهم ثم جاءت العربات المقفلة للكبيرات المدعوات لمرافقة العروس . ولما وصلت إلى سراى ولى العهد كان فى استقبالها الأمير توفيق . فنحرت الذبائح وزفت داخل الحرم والعروس فى أبهى حلل العروس البيضاء مسدلا على وجها الدواك الذهبى الرفيع

فى تلك الأيام سرت روح النهضة والتجديد إلى الموسيقى والغناء بظهور الفنى المشهور عبده الحمولى . فألهمته عبقريته الموسيقية إصلاح الأساليب القديمة وبلغت شهرته الخديو اسماعيل فاجتذبه والحقه بمعيته . وأغدق عليه الهبات والعطايا واصطحبه فى رحلاته إلى الاستانة وغيرها . واشتهرت فى عصره بعض المغنيات منهن « ألمظ » التى تزوج بها عبده الحمولى

وفى أيام اسماعيل أنشىء « الكوميدى فرانسيز » وكان موقعه مكان دار البريد الحالية . وقد شرع فى بنائه فى نوفمبر عام ١٨٦٧ واحتفل بافتتاحه فى ٤ يناير سنة ١٨٦٨ . ثم أمر بتشييد دار الأوبرا التى فتحت عام ١٨٦٩ وبلغت تكاليفها ١٦٠ ألفا من الجنيهات ومثلت فيها مساء ٢٩ نوفمبر عام ١٨٦٩ أول رواية أوبرا اسمها « ريجوليتو » وقد حضرت الحفلة الامبراطورة « أوجينى » عقيلة « نابليون الثالث » . وعهد اسماعيل الى الموسيقى الايطالى « فردى » أن يضع أول أوبرا مصرية لتمثل بدار الأوبرا فوضع العلامة الفرنسى « ماريت باشا » موضوع رواية « عائدة » ولحنها الموسيقى المشهور فردى ومثلت فى الأوبرا للمرة الأولى فى ١٤ ديسمبر سنة ١٨٧١ فنالت نجاحا عظيما

أدباء فى ضيافة القاهرة

زار القاهرة فى عهد اسماعيل عدد كبير من الأجانب والفنانين المشهورين وعلماء الآثار . فقد جاءه « جيرار دى نرفال » ـ وفلوبير ـ وماكسيم دوكام ـ

وماريلا ـ وكرابيليه ـ وجيروم المصور ـ وبيرشير ـ وبيدا ـ وثيوفيل جوتييه الذى شاهد أعياد القاهرة وأفراح الاسماعيلية وحفلات استقبال اسماعيل للملوك والملكات والأمراء الذين جاءوا مصر لمشاهدة مهرجان قناة السويس

وزار القاهرة الأثرى « سولس » والعالم رينان والصحافى شارل إدمون والقاضى يوجين بواتو والشاعر شارل ديديه والسواح فيليكى تينار وهنرى كاماس واندرى ليففر وأميل جيميه والممثلة راشيل ، وزار القاهرة أيضا الكاتب الفرنسى إدمون أبوت وكتب مؤلفه « أحمد الفلاح »

رجالات القاهرة

لقد ازدهرت القاهرة فى عصر اسماعيل بأعلام مشهورين رفعوا المستوى الفكرى فى مصر فمن أعلام الأدب رفاعة بك الطهطاوى والسيد جمال الدين الأفغانى والشيخ حسين المرصفى ومحمود باشا سامى البارودى والشيخ محمد عبده وابراهيم المويلحى ومحمد عثمان جلال وعائشة عصمت تيمور وعبد الله فكرى والشيخ عبد الهادى الابيارى والسيد عبدالله نديم وأديب أسحق والشيخ على الليثى والسيد صالح مجدى وأحمد عبيد وغيرهم — ومن علماء الهندسة والرياضيات على مبارك ومصطفى بهجت ومحمد مظهر وأحمد فايد وحسن فهمى المعمار وحسين حسنى ، ونذكر العالم الفلكى محمود الفلكى الذى تولى رئاسة الجمعية الجغرافية الى أن توفى فى ١٩ يوليو سنة ١٨٨٥ ، كذلك نذكر اسماعيل الفلكى باشا مصلح مقياس النيل فى أسوان — وسلامة باشا ابراهيم الذى اشترك مع مصطفى بهجت باشا فى انشاء الترعة الابراهيمية ومحمد ثاقب باشا واسماعيل باشا محمد واحمد بك نجيب وعامر بك سعد ... الخ

ومن علماء الطب والجراحة محمد على البقلى باشا وأحمد حسن الرشيدى بك ومحمد الشافعى وحسين عوف باشا ومحمد درى باشا وحسن بك عبد الرحمن وسالم باشا سالم ومحمد بك بدر وأحمد حمدى باشا وحسن باشا محمود وابراهيم باشا حسنى وعيسى باشا حمدى

وكان من علماء القانون والتشريع محمد قدرى باشا والشيخ محمد العباسى

المهدى والشيخ محمدعليش . ومن علماء الفنون الحربية اللواء محمود باشا فهمى ، واللواء محمدمختار باشا وشحاته عيسى بك واللواء محمد صادق باشا والقبطان سليمان قبودان حلاوة وعبدالله فوزى باشا ومحمد نادى باشا وغيرهم

* * *

ونختتم هذا الفصل قائلين . أن هذا التقدم فى عمران القاهرة أدى بطبيعته الى زيادة عدد سكانها ففى اثناء الاحتلال الفرنسى لمصر بلغ تعداد سكان القاهرة ٢٦٠ر٠٠٠ ثم وصل هـذا العدد قبيل وفاة محمد على الى ٣٠٠ر٠٠٠ حتى إذا أجرى آخر إحصاء رسمى عام ١٨٧٢ ارتفع عدد سكانها الى ٣٥٠ر٠٠٠ نفس

ولقد زادت مساحة القاهرة فى مدة الأسرة المحمدية العلوية إلى قبيل القرن العشرين نحو ألف فدان وجميع ذلك إلا القليل منه حدث فى زمن حكم الخديو اسماعيل . والأمر الذى كمل به نظام القاهرة وضواحيها هو شيئان مد الطرق وتوزيع المياه والغاز فيها . وكان المرحوم محمد على باشا قصد أن يحفر ترعة فمها من شرق إطفيح وتصب فى الخليج المصرى ليجرى الماء صيفاً وشتاء داخل القاهرة فلم يتم له ذلك . ثم قصد المرحوم عباس الأول إتمام المشروع باستعمال آلات رافعة للمياه وتوزيعها بأنابيب . وشرع المهندسون فى الأعمال الهندسية ثم عرض عليه مبلغ التكليف وهو مائة وثلاثون ألف جنيه فاستكثره وأعرض عن ذلك . فلما آل الأمر إلى الخديو اسماعيل كلف به شركة مساهمة فأخذت فى إجراء العمل وأتمته ووزعت الماء والغاز فى القاهرة وضواحيها

لقد كان الخديو اسماعيل يود تنظيم ما بقى من القاهرة على أسلوب تنظيم حى الاسماعلية وصدرت أوامره للأشغال وعملت رسوم طبق رغبته . فكان من أهم أغراضه جعل قصر عابدين مركزا يتفرعّ منه عدة شوارع إلى الاسماعلية وإلى الأزبكية وإلى ميدان السيدة زينب وآخر من قبلى قصر عابدين إلى أن يلتقى بشارع محمد على . ثم رغب فى إنشاء شوارع مركزها جامع السيدة زينب وتمتد فى جهاتها وتقطع حارات المدينة مع عطفها وأزقتها لتجديد الهواء . وآخر يكون من ميدان السيدة زينب إلى بركة الفيل إلى شارع محمد على . الخ وقد أتمه خلفاؤه لأن أمنيتهم كانت واحدة — وهى أن يجعلوا القاهرة عروس الشرق

قاهرة توفيق ومن بعده

فى اليوم السادس والعشرين من شهر يونيو عام ١٨٧٩ وردت أوامر الباب العالى بتولية صاحب الدولة محمد توفيق باشا منصب الخديوية . وفى ضحى اليوم التالى كان الطريق من قصر عابدين الى القلعة يموج بجموع الاهالى واصطف الجند على جانبى الطريق . ولما خرج سمو الخديو من القصر أطلقت المدافع مائة مرة ومرة وهتف الجميع بحياته وسارت عربته وراء كوكبة من الفرسان وعلى يساره شقيقه الأمير حسين باشا كامل وأمامه أخوه الأصغر حسن باشا وبجانبه رئيس النظار محمد شريف باشا

ولما بلغ الموكب القلعة دخل سموه القاعة الكبرى فى قصر الجوهرة وجلس على يساره الأميران والنظار . واستقبل فيها من توافد عليه من العلماء وفى مقدمتهم السيد على البكرى نقيب الأشراف وشيخ مشايخ الطرق الصوفية وقاضى القضاة وشيخ الجامع الأزهر ثم قناصل الدول وقدم أكبرهم سنا التهانى لسموه فرد عليهم شاكرا ثم استقبل الاعيان والتجار وكبار الموظفين

وبانتهاء المراسيم المعتادة أطلقت المدافع مرة أخرى وعاد سموه الى عابدين . ثم أرسل برقية شكر لجلالة السلطان على ثقته به

وفى اليوم الثلاثين من يونيو غادر الخديو اسماعيل القاهرة الى الاسكندرية قاصدا « نابولى » بايطاليا ، وكان موكب وداعه حافلا من قصر عابدين إلى محطة القاهرة يحفه الفرسان والجماهير المتدفقة . وقد جلس الى يساره فى العربة الخديو توفيق باشا

تولى الخديو الجديد البلاد والمصاعب تحيط بها من كل جانب — وقد استمرت خلال الأعوام الأربعة الأولى من حكمه . والآن سنرى ما لحق القاهرة فى أواخر القرن التاسع عشر

أقسام القاهرة

قسمت القاهرة إلى ثمانية أقسام أو « أثمان » . وانقسم كل ثمن إلى شياخات . وكان لكل ثمن شيخ يعرف بشيخ الثمن كان يصرف له من محافظة القاهرة مائة قرش . ولكل شياخة شيخ عرف بشيخ الحارة كما هو متبع الآن ليس له مرتب ثابت انما ينال مكسبه من النقود التى يأخذها من أصحاب الحاجات من سكان الأملاك التى فى شياخته

وكانت أهم أقسام القاهرة حتى أواخر القرن التاسع عشر تتألف من أثمان الموسكى والأزبكية وباب الشعرية والجمالية والدرب الأحمر والخليفة وعابدين والسيدة زينب ومصر القديمة وبولاق . وكان فى الأثمان المذكورة ثمانية وأربعون قره قولا موزعة داخل القاهرة وخارجها لاقامة رجال البوليس فيها . ولكن بطل أكثرها ثم نشأ فى كل ثمن مركز الصحة به طبيب وطبيبة وكاتب وممرض

ميادين جديدة

واستجدت بالقاهرة ميادين باب الحديد والخازندار تجاه فندق أوربا والبوستة . وميدان العتبة الخضراء وميدان التياترو وعابدين وميدان باب اللوق تجاه منزل المرحوم على بك راغب ومنزل محمد افندى الناغى — وميدان الكوبرى أمام كوبرى قصر النيل وسراى الاسماعيلية وميدان الدواوين تجاه سراى المالية والداخلية والحقانية وميدان الأزهار تجاه منزل المرحوم محمود باشا الفلكى ومنزل على باشا صادق

الخليج المصرى

كان الخليج المصرى الذى أعاد حفره عمرو بن العاص بأمر الخليفة عمر ابن الخطاب لتسهيل نقل المؤن عليه إلى الحجاز — يبدأ بالقرب من شمالى مصر القديمة وجنوبى قصر العينى وبحرى السواقى السبع التى كانت تصل المياه من النيل للقلعة بالمجراة المشهورة السلطانية التى كانت فيما قبل حدود مصر القاهرة من الجهة الجنوبية . وكان الخليج يسير نحو الشمال الشرقى وقبل أن يصل إلى

وزارة المالية ينعطف نحو الشرق الجنوبى حتى جامع السيدة زينب، فيعود إلى سيره نحو الشمال الشرقى مارا بجانب بركة الفيل ثم سراى درب الجماميز (مدرسة الخديوية) فتكية الحبانية ثم يقطع السكة الجديدة قرب اتصالها بشارع الموسكى فيمر تاركا كنيسة اللاتين وكنيسة السوريان إلى يساره وكنيسة الأرمن وكنيسة الأقباط الى يمينه حتى يصل إلى بداية سكة مرجوش فيتركها الى يمينه ثم يخترق سور القاهرة عند باب الشعرية ويسير خارج القاهرة إلى شارع الظاهر فيمر تاركا جامع الظاهر إلى يمينه حتى يلتقى بترعة الاسماعلية عند مصرف الشبين القديم وكانت على الخليج المصرى عدة قناطر معقودة تتقاطع مع الشوارع التى يمر بينها عددها عشرون قنطرة وهى :

قناطر الفم والسد وقصر العينى وقنطرة السباع التى أمام مسجد السيدة زينب وقنطرة عمر شاه بك ودرب الجماميز وسنقر وقنطرة الذى كفر وقنطرة باب الخلق المار عليها الشارع الموصل من العتبة الخضراء إلى جامع السلطان حسن وقنطرة ثابت باشا وقنطرة الأمير حسين وقنطرة الشيخ المفتى وقنطرة الخنفى . وقنطرة الموسكى وبين السورين فيما بن الموسكى والشعراوى وقنطرة الشعراوى وباب الشعرية والعدوى وقنطرة الظاهر المار عليها شارع الفجالة الموصل للعباسية وكانت كل هذه القناطر ذات عين واحدة ماعدا قنطرة السد فانها كانت بعينين

وكانت فائدة هذا الخليج قاصرة على رى القاهرة وبعض ضواحيها وكانوا يحتفلون بفتحه سنويا عند وفاء النيل . فلما توزعت المياه فى القاهرة بالأنابيب إلى المنازل فى أيام حكم إسماعيل لم تبق له فائدة

ولقد تغنى الشعراء والأدباء بجمال هذا الخليج وبديع مناظره وحسن مجالسه ويا ليت أصحاب البيوت المطلة على جانبيه حافظوا على العناية به بل كانوا يلقون فضلات الطعام فيه كما سلطوا أنابيب المياه والمطابخ عليه فكانت منشأ الأمراض المعدية وانتشرت الحميات المختلفة التى كانت تختطف من كل أسرة شخصا أو اثنين . فرأت الحكومة أن تردمه لتخلص العاصمة من أضراره الفتاكة . فلما علم الأعيان بذلك قدموا عريضة طلبوا فيها العدول عن هذا العمل لما فيه من

ضرر ورفعها إلى سمو الخديو . فنظر فى الأمر وتأخر الردم نحو عشرين سنة
وأخيرا فى عام ١٨٩٦ تعاونت الحكومة المصرية مع شركة ترام القاهرة على ردم الخليج لتسير خطوطها فى أنحائه وربط أجزاء العاصمة القبلية بالبحرية ولقدتم ذلك . ونحن نرى اليوم شارع الخليج المصرى يصل بين الوايلى والعباسية وباب الشعرية والحلمية والسيدة زينب ومصر القديمة واتسع الشارع فى بعض أنحائه من جهة غمرة . وغرست فى وسطه الأشجار الباسقة. وقامت على جانبيه العمارات الفخمة وسارت فيه خطوط الترام والسيارات

مساجد القاهرة

وفى هذا العهد استمر تجديد المساجد القديمة ، وأهمها مساجد السيدة زينب والسيدة نفيسة والسيدة سكينة والامام الشافعى ... الخ وبتولى توفيق باشا الحكم أمر بتجديد جدران مسجد الامام الشافعى بعد أن ظهر فيها بعض الخلل وبتوسيعه وشراء بعض الأماكن المجاورة للمسجد وشرع فى هدم المسجد القديم فى آخر عام ١٣٠٣ هـ . ثم حضر الخديو بنفسه حفلة وضع الحجر الأساسى له مع أعيان القاهرة وتليت القصائد وكتب مضمون حوادث اليوم على ورق متين ووضع مع صرة من النقود فى إناء من البللور حفظ فى صندوق من الرصاص ، وهذا أودع فى حجر كبير محفور بقدر الصندوق ثم وضع ذلك الحجر فى أساس البناء بيد الخديو

ويعد مسجد الرفاعى مفخرة فنية للأسرة المحمدية العلوية . بدء العمل فيه عام (١٢٨٦ هـ — ١٨٦٩) بأمر والدة المغفور له الخديو اسماعيل ، واستمر العمل قائما مدة طويلة الى أن توفيت مؤسسة الجامع عام ١٣٠٣ هـ فوقفت العمارة فيه خمسة وعشرين عاما . ثم استأنف البناء سمو الخديو السابق عباس الثانى فأمر باكمال البناء بعد أن عمل له تصميم آخر بمعرفة كبير مهندسى الآثار العربية وقتئذ « هرتز باشا » فجلب له الرخام من بنى سويف والمرمر من اليونان وتركيا والمرمر الأسود من إيطاليا والبلجيك والصوان من ألمانيا ... وباشر تكملته المرحوم أحمد خيرى باشا ناظر الخاصة فتم تشييده فى أول المحرم عام ١٣٣٣ (٢٣ ديسمبر

١٩١١) وبلغ ماصرف عليه ٥٠٠ و ٥٧٠ جنيه وافتتح رسميا لاقامة الشعائر الدينية فيه يوم الجمعة غرة المحرم سنة ١٣٣٠ ه

والى جانب مسجد الرفاعى مدافن الأسرة العلوية الكريمة . فى الحجرة البحرية الشرقية ثلاثة قبور لنجل وكريمتى المغفور له اسماعيل باشا . وفى الحجرة الغربية قبران احدهما مدفونة فيه المغفور لها السيدة خوشيار هانم والدة الخديو اسماعيل مؤسسة الجامع . والثانى يرقد فيه المغفور له اسماعيل باشا المتوفى عام (١٣١٣ ه — ٦ مارس ١٨٩٥) . وفى الحجرة ثلاثة قبور للسيدات الثلاث زوجات المغفور لهاسماعيل ، وفى الجهة الغربية حجرة أخرى فيها قبر المغفور له السلطان حسين كامل (١) . وفى الجانب الغربى القبلى حجرتان إحداهما وهى الشرقية بها مدافن للأسرة أنشئت عام ١٣٣٩ ه والأخرى وهى الغربية فيها مدفنان أحدهما مدفونة به المغفور لها السيدة والدة المغفور له جلالة الملك فؤاد . والآخر وكان قد اعده جلالته لنفسه فدفن فيه

كنائس القاهرة

ويجب علينا أن لا نغفل ما لحق كنائس القاهرة وضواحيها من عوامل العمارة والتجديد . فقد شيدت كنائس كثيرة لجميع الطوائف المسيحية وجدد القديم منها. ونذكر بين أهم تلك — كنائس الحصن الرومانى (قصر الشمع) بشارع مارجرجس بمصر القديمة وهى :

كنائس المعلقة وأبى سرجة والست بربارة ودير مار جرجس للبنات وقاعة العرسان — وقصر الريحان

وكنائس دير أبى السيفين بشارع جامع عمرو بمصر القديمة وهى تشتمل على كنيسة أبى السيفين والأنبا شنودة والعذراء

وكنيسة فم الخليج (مارمينا) وكنيسة العذراء وكنيسة مارجرجس بحارة الروم بالغورية . وكنيسة العذراء بحارة زويلة بشارع بين السورين

وكنائس ساحل أثر النبى وهى العذراء وأبو قير ويوحنا والأمير تادرس

---

(١) تولى عرش السلطنة المصرية يوم ١٩ ديسمبر سنة ١٩١٤

والملاك القبلى وقد تجددت هذه الكنائس الأربع فى أوائل القرن الثامن عشر (١)

مشاهير القاهرة

لما نمت الأزبكية فى أيام اسماعيل اجتذبت قهاوى الرقص والغناء وغيرها من أماكن اللهو جمهورا كبيرا من رواد القهاوى البلدية . وظهرت طائفة من المضحكين الفكهيين فى أمثال « أحمد الفار » و « السيد قشطة » وكانوا يحيون ليالى الأسبوع كلها فى أحياء مختلفة ، وكان الجمهور يقبل عليهم ويتجشم مشاق السير على الأقدام مسـافات طويلة ليستمتع بفكاهاتهم . ولقد ابتدع عبده الحمولى فى ذلك الحين « الضمم » ثم اشتهر من بعده من المغنيين « أحمد صابر » والشيخ الصفتى ومحمد سالم العجوز ومحمد عثمان ويوسف المنيلاوى وعبدالحى حلمى ثم زعيم المجددين فى أوائل القرن العشرين الشيخ سلامة حجازى

لقد اختفى هذا المجتمع من حياة القاهرة واختفت معه « الدكة العالية » التى يجلس عليها « الشـاعر » او « المحدث » بنايه أو ربابه . وقامت آلة الراديو تذيع ما يحب وما لايحب

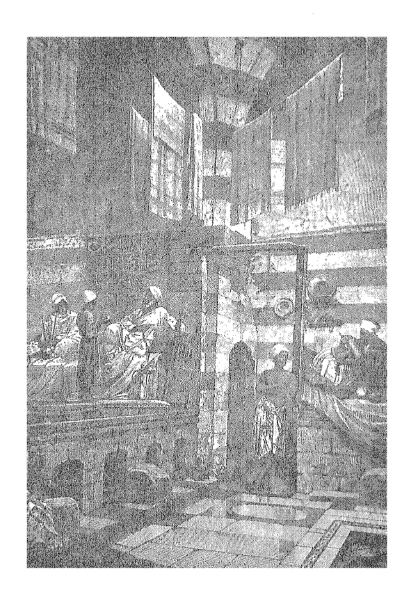
وكان فى كل بيت من بيوت الطبقة الوسطى منظرة يجتمع فى احداها أصدقاء الحارة فيسمرون فيها السمر اللطيف أو يحيون بعض الليالى فى سماع القرآن أو حفلة طرب ، ولم تكن المقاهى قد انتشر وباؤها فى كل مكان

وكان الموسرون من أهل الحرف والصناعات يتبارون فى اقتناء انواع الحمير الحصاوية أو القبرصية ويعنون ببرادعها ورشماتها وينفقون عليها بسخاء ، وكان من عادتهم أن يمتطوا حميرهم أو جيادهم فى أيام الخميس والجمعة والأحد لزيارة الامام الشافعى أولزيارة المحمدى أو للتبريك بضريح السيدة نفيسة

وكان يتلهى القاهريون فى المقاهى بسماع قصص الأمير حمزة والظاهر بيبرس وعنترة بن شداد والأمير سيف ذى يزن وكانت هذه القصص تلقى بنفس الأسلوب

---

(١) راجع دليل المتحف القبطى وأهم الكنائس والأديرة الأثرية بقلم العلامة المؤرخ سعادة مرقس سميكة باشا مؤسس المتحف القبطى وأمينه ورئيس مجلس دار الآثار العربية — طبعة مارس ١٩٣٢



فى داخل حمام قاهرى

واللغة والوزن الذى تسمع به لليوم فى بعض قهاوى أحياء باب الشعرية والحسينية وسيدنا الحسين . وكانت أروج هذه القصص هى قصة عنتر الشاعر البطل الحربى الذى لا يقهر وصورة للعاشق الذى ينتصر حبه على كل شىء . ولقد كان جمهور السامعين يحتفلون بزفاف عنتر على عبلة . فتضاء القهوة بالشموع وتفرش أرضها بالرمل وتزدان بالاعلام ويصف فوقها البطيخ الأحمر والأخضر ويقام سرادق فسيح . فاذا وصل «المحدث» الى وصف ليلة الزفاف هنأ الحاضرون بعضهم بعضا

إحصائيات قاهرية

لايخلو بحث للقاهرة من ذكر بعض إحصائيات . ولنبدأ بسكان القاهرة فقد بلغ عددهم حسب الاحصاء الذى تم فى ٣ مايو ١٨٨٢ (٨٣٨ و ٣٧٤) منهم ٤٢٢ و ٢٢ أجنبيا كان أكثرهم من اليونانيين والفرنسيين . وقد كان عدد سكانها فى الاحصاء السابق الذى تم فى عام ١٨٧٢ (٨٨٣ و ٣٤٩) بزيادة خمس وعشرين ألف نفس أى بمعدل ٥٠٠و٢ نفس يزيدون كل عام . وقد كان عدد سكان القاهرة فى سنة ١٧٩٨ (٠٠٠و٢٦٠) فكأن الزيادة التى حدثت فى اثناء خمس وثمانين سنة كانت ٠٠٠و١٥ نفس

وقدأورد المرحوم على باشا مبارك صاحب الخطط التوفيقية عدد الطوائف فى القاهرة من أصحاب الحرف والصنائع المتعددة وقدبلغ ١٩٨ طائفة وعدد الصناع فى تلك الحرف بلغ ٤٨٧ و ٩٤ شخصا من هؤلاء :

٦٦١٠ بناء — ٦٨٩ نحات حجر — ٥٨٩ مبيضا — ٢٣٠ مرخما — ١٦١٥ نجارا دقيا — ١٨١ نجار سفن — ٥٠ نجار طواحين — ١٢٧ من الكتبية والمجلدين — ٢٧ صانع سيوف وأسلحة — ١٠٥٣ جزارا ومن يتبعهم — ١٥٧٩ زياتا — ١٥٠ دقاق بن وعطور — ١٠٢٥ تاجر فاكهة — ٢٢٩ فطاطريا — ٨٣٦ حلاقا — ٤٩١ منجدا — ١٢٣١ خياطا — ٤٤٤ عقادا — ١٧٢ صانع أحذية — ٧٨٢ خبازا — ١٢٦ موسيقيا . . الخ وغيرهم من أصحاب الحرف الأخرى كالمناخلية والصدفجية والسمكرية

وقال على باشا مبارك إنه كان بالقاهرة فى عام ١٨٧٦ المحال الآتية : ٢٦٥٦٣ من المنازل المملوكة لأربابها — ١٢٣٩٠ من الحوانيت المملوكة لأربابها — ٥٢٨ من الرباع المملوكة لأربابها — ٤٤١ مصبغة — ٣٨٤ طاحونة — ٦٦٣ حوشا — ١٥٩ فرنا للخبز — ٢٩٣ وكالة — ٨٣ قاعة لنسيج الحرير — ١٠٠ زريبة للحيوان — ١٠٢ مغلق للأخشاب — ١٦ فندقا للسائحين وغير ذلك من الورش ومحال طفى الجير واسطبلات الخيل

وكثر عدد المقاهي فى القاهرة فبلغ ١٠٦٧ قهوة منها فى قسم الأزبكية

فقط ٢٥٢ وفى قسم بولاق ١٦٠ وفى قسم الجمالية ١٤٢ — كذلك نما عدد حانات الخمور فقد كان منها فى العاصمة ٤٨٦ حانة فى الأزبكية منها ٢٢٨ وأقل الأقسام عددا كان الدرب الأحمر فلم تكن فيه سوى ١١ حانة

وكان بالقاهرة خمسة وخمسون حماما عموميا وكان بها خمسة مستشفيات اثنان للأوربيين أحدهما كان بالعباسية واسمه المستشفى الأوربى والآخر بالاسماعيلية وعرف بالمستشفى البروسيانى . واثنان للحكومة المصرية الأول مستشفى قصر العينى الملحق بمدرسة الطب وبلغ عدد أسرة المرضى فيه نحو ألف ومائة وخمسين سريراً . والثانى مستشفى الأمراض العقلية بالعباسية . وقد أنشىء فى عهد المغفور له محمد توفيق باشا . وكان قبل ذلك فى ورشة الجوخ ببولاق . والمستشفى الخامس كان للاسرائيليين بحارة اليهود . وقد بلغ عدد الصيدليات فى ذلك الحين أربعاً وأربعين صيدلية موزعة فى القاهرة غلاف الصيدليات الأميرية . كان منها فى شارع كلوت بك ست صيدليات وثمانى بشارع الموسكى وثلاث بشارع عابدين وخمس بدائرة البوستة بالازبكية . وقد ظهرت الصيدليات بشكلها الحديث فى أيام محمد على . وكانت العقاقير تباع بدكاكين العطارين بحالتها الطبيعية فتشترى وتمزج على حسب ما توصف

المدافن

وكانت مدافن القاهرة التى فى خارجها خمسة وهى قرافة السيدة نفيسة وقرافة الامام الشافعى وبها مدفن للأسرة المحمدية العلوية — وقرافة باب الوزير وقرافة المجاورين وقايتباى وقرافة باب النصر . ولما امتنع الدفن داخل القاهرة بطلت عدة مقابر كانت ممتدة بين العتبة الخضراء وميدان باب الخلق . وبنيت على أرضها عدة مبان . وأكثر ماتم منها انشىء فى أيام المغفور له الخديو اسماعيل . ومن هذه المقابر مقبرة القاصد ومقبرة الأزبكية ومقبرة الرويعى ومقبرة السيدة زينب وزين العابدين ومقبرة السبتية . كما تحددت مناطق الدفن وأصبحت بعيدة عن المساكن

المذابح

كان ذبح الحيوان قبل الأسرة المحمدية العلوية فى داخل القاهرة فى محال متعددة . فلما نظم محمد على ديوان الصحة بطل الذبح فى داخلها . وبنى مذبحان فى

خارجها أحدهما بجهة الحسينية والآخر قبلى القاهرة بقرب العيون وذلك فى عام ١٨١٧ . ولم تكن الشروط الصحية تتوفر فيهما كثيرا كما نشاهد فى هذه الأيام واستمرت شكايات الأهالى حتى تم فى عهد الخديو توفيق باشا بناء مذبح مستوف للشروط الصحية بين العيون وزين العابدين وبطلت المذابح القديمة (١)

مصر الجديدة

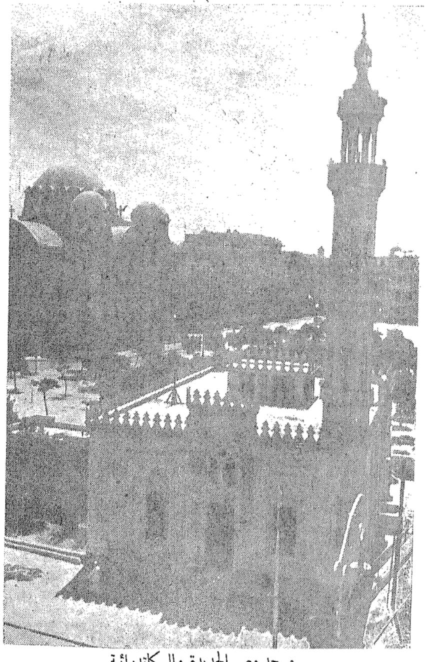
وفى أوائل القرن العشرين وضعت أسس ضواح جديدة للقاهرة . كانت أهمها ضاحية مصر الجديدة (هليو بوليس) ويعد انشاؤها من أهم وأعظم مشروعات العصر الحالى التى قامت فى مصر . ومصر الجديدة مدينة بظهورها إلى رجل المال البلجيكى البارون ادوارد امبان الذى أسس فى عام ١٩٠٥ شركة لانشاء هذه الضاحية وكان أول من عضده باغوص نوبار باشا . وفى ذلك العام شرع البارون فى مفاوضة الحكومة المصرية على شراء ستة آلاف فدان من أرض الصحراء بواقع جنيه للفدان الواحد . وكان أول من تجرأ على شراء قطعة من الأرض فى مصر الجديدة المرحوم خليل حمدى بك قائد مدرسة البوليس والادارة فى ذلك الحين (١٩٠٦)

ثم ازدادت المساحة المذكورة فيما بعد إلى اثنى عشر ألف فدان أخرى وقد افتتحت الشركة أعمالها بانشاء خط حديدى كهربائى يبلغ خمسة أميال فيما بين نقطة تقرب من محطة السكة الحديد الرئيسية بالقاهرة وبين أملاكها . وفى نفس الوقت شرعت فى تشييد بعض الأبنية الجميلة على طراز عربى أنيق مع فندق رحب عظيم

غير أن قيام الحرب العالمية الكبرى أضعفت بلا مراء من نشاط الشركة ولكن بعد زوال الأزمة الاقتصادية العالمية نشطت حركة البناء ومد الطرق وغرس الأشجار والحدائق . فامتدت هليوبوليس الى قلب الصحراء كما تشاهد اليوم

---

(١) اقتطفنا معظم ماجاء بهذه الاحصائيات عن كتاب الخطط التوفيقية لعلى باشا مبارك مؤرخ القاهرة فى القرن التاسع عشر وكان من ضباط الجيش المصرى الممتازين فى ميادين العلم والحرب زامل الخديو اسماعيل والأمراء فى بعثة علمية عام ١٨٤٤ وكان ناظراً لعدة نظارات منها الأشغال والمعارف واشترك فى تنظيم القاهرة وانشاء أحيائها الجديدة . وقد نشر كتابه الخطط التوفيقية لمصر القاهرة ومدنها وبلادها الشهيرة وطبعت بأمر الخديو توفيق باشا فى مطبعة بولاق الأميرية وظهرت أجزاؤها العشرون تباعاً فى خلال سنة ١٨٨٨ — ١٨٨٩ وقد وافته المنية فى ١٤ نوفمبر عام ١٨٩٣ بمنزله فى الحلمية الجديدة فأقفلت المدارس حداداً على وفاته ويعتبر كتابه موسوعة مصرية فى مختلف العصور



مسجد مصر الجديدة والسكاتدرائية

المعادى

وفى ١٩٠٥ حصلت شركة أراضى الدلتا المصرية على امتياز تعمير ضاحية المعادى على ضفة النيل الشرقية على بعد نحو أربعة أميال من جنوب القاهرة. وتشغل المعادى اليوم نحو ألف فدان تقريبا وأنشئت الشوارع الفسيحة التى تخترق المدينة من جميع انحائها، وبهذا النظام تسنى لمعظم المنازل التمتع بالهواء من جهتين

ولقد كان نجاح هذه الضاحية فى سنة ١٩١٤ أقل مما قدر. أما فى خلال سنى الحرب العالمية الأولى ومن بعدها إلى اخر سنة ١٩٢٠ فلم تتسع المدينة فى العمران.

ثم قامت الشركة فى سنة ١٩٢١ ببناء ناد جميل وحمامات للسباحة وأعدت ملعباً للتنس وأرضا للعبة الجولف مع حدائق واسعة . وفى نهاية عام ١٩٢٧ كانت الشركة قد قامت ببناء مايقرب من ١٦٠ منزلا أغلبها من الفيلات

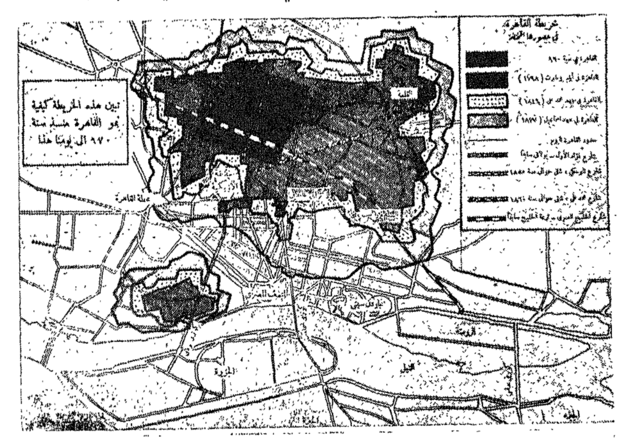
وتملك الشركة آلات جلب المياه وتوليد الكهرباء للانارة والقوة المحركة وتمون المدينة بمياه الشرب

حدائق القبة

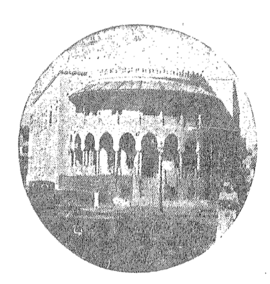
تألفت شركة حدائق القبة فى سنة ١٩٠٨ لتعمير مساحة تقدر بنحو مائة وعشرة أفدنة وتقسيمها . وقامت الشركة بانشاء شارع يخترق أملاكها بعرض ٦٦ قدما وجعلت الشوارع الآخذة منه بعرض ٤٠ ، ٣٣ ، ٢٦ قدما

ولقد راجت أعمال البناء التى قامت بها الشركة والأفراد حتى اتصلت حدائق القبة بقلب القاهرة وتمتاز بهدوءها

وفيما عدا هذه الضواحي الثلاث امتد العمران فى أحياء العباسية الشرقية والغربية واتصلت ضواحي منشية الصدر وكوبرى القبة وحمامات القبة بالزيتون والمطرية والحلمية وعين شمس واتصلت هذه الضواحي بخط السكة الحديدية وبالسيارات



القاهرة بين فؤاد وفاروق


الأزهر فى حالته الجديدة

ونصل فى هذا الفصل الى القاهرة وقد طوت من حياتها الطويلة ألف عام. فهل كان يتوقع القائد جوهر لما وضع الحجر الأول فى أساس سور القاهرة وقد اشتملت فى أول نشأتها على قصر الحاكم والمعسكر العام ومصالح الحكومة والجامع الأزهر. ولم تزد مساحتها عن ٣٤٠ فدانا أنها ستصبح اليوم تشغل مساحة تبلغ حوالى ٥٠٠٠٠ فدانا(١). وان الجامع الأزهر الذى حول الى جامعة للدراسة الدينية عام ٩٨٩ م وكان لايزيد عدد طلابه عن بضع مئات أنه سيضم فى يوم من الأيام بين كلياته المتعددة مالا يقل عن ١٤٠٠٠ طالب من مختلف الأقطار الاسلامية

فى خلال الألف عام تطورت مصر فى جميع نواحى الحياة. فهناك التطور السياسى والعسكرى والدولى والنسائى. وهناك التبدل الاقتصادى والصناعى والزراعى — وكذلك العلمى والدينى. هذا الى مالحق البلاد من تطور كبير فى خلق الشعب وتربيته. أما ما يمس الأدب والفن والعمران فلا يقل مطلقا عن تلك النواحى الأخرى التى ذكرناها

ومن الواضح أن ما نالته القاهرة من تغيير كبير فى جميع الميادين — ومن

---

(١) بلغت مساحة القاهرة عندما وضع أساسها القائد جوهر ١٣٨ هكتار — وبلغت فى القرن السادس عشر عندما رسم الرحالة الألمانى هوجنبرج أول خارطة للمدينة ١٤١٦ هكتار — وتبلغ اليوم ١٨٠٠٠ هكتار

تحول عجيب فى حياتها — يعود إلى همة رجال الأسرة المحمدية العـــلوية . فالى هؤلاء الحكام الأفذاذ تدين القاهرة خلال الأعوام المائة الأخيرة بما نشاهده اليوم من جمال ارســـتقراطى . هذا الجمال الذى تعبت يد الانسان فى تنسيقه و ابداعه

وهذه الشوارع المنسقة الممتدة من قواعد الأهرام الثلاثة الى حيث جامعة عين شمس القديمة والساحات الواسعة التى تطل عليها المبانى الجميلة والحدائق الكثيرة والبنايات الضخمة والعمران المستبحر والحضارة الآخذة فى النضوج والحيوية الصارخة فى نشـــاطها الاقتصادى . كل هذا ثمرة من ثمار الأسرة العلوية الكريمة

وقبل أن نصف امتداد القاهرة من نواحيها الأربعة وما لحق عمارتها ومبانيها ومنتدياتها وميادينها ومعاهدها سنلخص مراحل الحياة السياسية التى مرت بها البلاد خلال الربع قرن الأخير

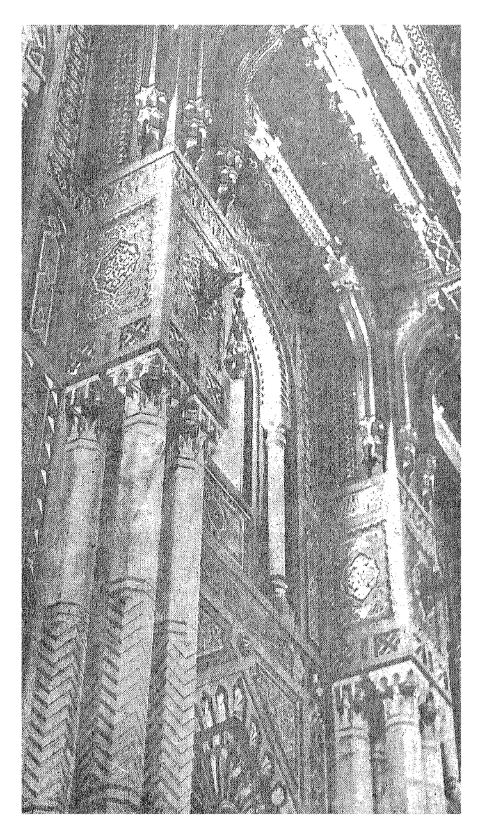
من سلطان الى ملك

فى مساء ٨ أكتوبر سنة ١٩١٧ توفى السلطان حسين كامل رحمه الله . فلما بلغ الأمير أحمد فؤاد نبأ الوفاة أسرع الى قصر عابدين فودع جثمانه بقبلة فيها كل معنى الحنان الأخوى

وخرجت جنازة السلطان فى الساعة الثالثة بعد ظهر يوم ١٠ أكتوبر محمولة على أكتاف رجال البحر المصريين. فحياها تلاميذ المدرسة الحربية ورجال الحرس السلطانى التحية العسكرية . وأطلق من ثكنة عابدين ٢١ مدفعا وأطلقت مدفعية القلعة ١٠٠ مدفع . وكان السلطان أحمد فؤاد فى مقدمة المشيعين وقد سار فى الجنازة من عابدين حتى مسجد الرفاعى حيث أودع الجثمان مقره الأخير

وقد نودى بسمو الأمير أحمد فؤاد سلطانا على مصر فى يوم ٩ أكتوبر عام ١٩١٧
وكان أول ما عمله عظمته عقب تربعه على عرش مصر أن :

١ — أصدر مرسوما بتأليف وزارة حسين رشدى باشا واجتمع أول مجلس للوزراء تحت رئاسته بقصر عابدين فى ٢٠ أكتوبر



الزخارف الجميلة التي تغطي جدران وسقف قاعة العرش العظيمة بقصر عابدين العامر

٢ — صدر منشور من وزارة الأوقاف لتكون خطبة الجمعة باسم السلطان أحمد فؤاد

٣ — حضر حفلة استقبال المحمل عند عودته من الحجاز فى ١٥ أكتوبر سنة ١٩١٧ ومنح اللواء أحمد فطين باشا أمير الحج ساعة وسلسلة من الذهب

٤ — أدى فريضة الجمعة فى ١٩ أكتوبر سنة ١٩١٧ بمسجد القلعة حيث زار ضريح جده الأكبر محمد على باشا

٥ — أول مسجد زاره بعد توليته العرش الجامع الأزهر فى ٢١ أكتوبر . ومنح طلبته وخدمه ألف جنيه

٦ — زار ضريح الحسين بن على كرم الله وجهه فى ٢٦ أكتوبر

وفى ١٢ أكتوبر احتفل رسميا بتولية عظمته العرش . فى الساعة العاشرة من صباح ذلك اليوم خرج السلطان فؤاد فى موكب حافل من قصره بشارع الدره مللى قاصداً عابدين . وكان عن يساره فى مركبته دولة حسين رشدى باشا وخلفه حضرات أصحاب المعالى الوزراء فى ثلاث مركبات أخرى . فأطلق فى القلعة ٢١ مدفعا عند خروجه . وحياه أمام باب القصر قره قول شرف مؤلف من تلاميذ المدرسة الحربية وموسيقى المشاة المصرية وحياه فى طريقه المشاة فى الحرس السلطانى وكتيبة المشاة الثامنة

وكان الشعب محتشدا فى طريق الموكب يحي السلطان . وعند وصوله الى قصر عابدين أطلق ٢١ مدفعا وحياه فى مدخله الخارجى « بلوك » من الجيش البريطانى تصحبه موسيقاه . وآخر من مشاة الحرس السلطانى ومعه موسيقاه . واستقبله فى مدخل القصر الكبير حضرات أصحاب السمو الأمراء وحضرتا صاحبى المعالى أحمد مظلوم باشا رئيس الجمعية التشريعية وسعد زغلول باشا وكيلها وحضرات أصحاب الفضيلة العلماء ومشايخ الطرق والمستشارين ووكلاء الوزارات ورئيس محكمتى الاستئناف الأهلية والمختلطة والنائبين العموميين وعلى باشا ذو الفقار محافظ القاهرة (١)

---

(١) الملك فؤاد الأول — للاستاذ عبد الحميد سالم — ١٩٣٦

كان أول أقوال جلالته المأثورة بعد جلوسه على عرش البلاد : إنا نشهد الله وشعبنا — على رغبتنا التى لا تتزعزع فى الاستمرار على وقف جميع قواتنا . وكل ما نكنه من إخلاص على رفاهيـــة وطننا وسعادة شعبنا المحبوب »

وقد وفى عظمته بهذا العهد وفاء كاملا — وكان قد بدأ جهاده منذ كان أميرا واستمر يؤديه سلطانا فملكا

النهضة السياسية

وإن كتاباً يؤرخ للقاهرة يجب أن تسجل على صفحاته تطور النهضـــة السياسية التى كانت مسرحها القاهرة فقد اتخذت الخطوة الحاسمة فى ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ لما ذهب سعد زغلول وعبدالعزيز فهمى وعلى شعراوى الى المعتمد البريطانى السير ريجنالد ونجت وطالبوه برفع الحماية عن مصر بعد أن انتهت الحرب العظمى باعلان الهدنة . ثم بدأت الحالة السياسية تأخـــذ دوراً آخر وذلك لما قام سعد وحمد الباسل ومحمد محمود واسماعيل صدقى يطلبون السفر إلى أوربا للدعاية للقضية المصرية . فلما أبت السلطة العسكرية أن تأذن لهم وألحوا هم فى طلبهم قبضت عليهم ونفتهم الى مالطة

وفى أوائل ابريل سنة ١٩١٩ اصدر الجنرال اللورد اللنبى أمره باطلاق سراح سعد وصحبه الثلاثة من منفى مالطه . فانضم اليهم غيرهم من المجاهـــدين وقصدوا باريز للدفاع عن القضية المصرية أمام مؤتمر الصلح فى باريس

وفى ٢٢ ديسمبر سنة ١٩٢١ أرسل اللورد اللنبى إلى الزعيم سعد زغلول والى صحبه يأمرهم بالسفر الى قراهم والبقاء فيها وعدم الاشتغال بالحركة الوطنية فلما أبى سعد الامتثال لذلك الأمر قبض عليه ومن أبى معه من أصحابه ونفوا إلى عدن ثم أخذ سعد وحده الى سيشل فى أول مارس سنة ١٩٢٢ ولحق به أصحابه بعد قليل وهم فتح الله بركات وعاطف بركات ومصطفى النحاس وسينوت حنا ومكرم عبيد

وما لبث الأمر طويلا حتى نجحت الحركة الوطنية وأثمرت الوزارة الشعبيـــة

الأولى فى ٢٨ يناير سنة ١٩٢٤ . وفى ١٥ مارس من العام المذكور افتتح أول برلمان مصرى دستورى بعد الحرب العظمى فى عهد المغفور له الملك فؤاد الأول

ولكن حدث حادث يؤسف له فقد وقعت حادثة قتل السردار السير لى ستاك باشا فى نوفمبر ١٩٢٤ وقدم اللورد اللنبي الى سعد تبليغا بريطانيا ـ ولما لم يقبله استقال من رئاسة الوزارة واستمر النضال السياسى حتى اتحد الزعماء المصريون فى شهر فبراير ١٩٢٦ وأقيم صرح الائتلاف بين الأحزاب المختلفة ما عدا حزب الاتحاد ثم ألفت الوزارة الائتلافية الأولى برياسة عدلى يكن باشا وانتخب سعد زغلول رئيساً لمجلس النواب فى أوائل عام ١٩٢٧

ثم مات سعد فى ٢٣ أغسطس ١٩٢٧ ففقدت الأمة بموته بطلا وطنياً عظيما واحتفلت الأمة بجنازته احتفالا كبيرا نادر المثال فى تاريخ القاهرة . ثم أختير النحاس باشا رئيساً للوفد المصرى وألف دولته وزارة ائتلافية فى شهر مارس عام ١٩٢٨

وحدثت مفاوضات بين الحكومتين البريطانية والمصرية قام بها المرحوم محمد محمود باشا لكنها فشلت

وألفت وزارة انتقال برياسة عدلى يكن باشا فأجرت انتخابات جديدة ثم ألفت الوزارة النحاسية الثانية فى يناير ١٩٣٠

وعقدت مفاوضات النحاس وهندرسون فى ابريل ١٩٣٠ فى قاعة لوكارنو التاريخية بوزارة الخارجية الانجليزية . ولكن لم تنجح هذه المفاوضات . فلم تلبث الوزارة النحاسية أن سقطت فى شهر يونيو وتولت الحكم وزارة اسماعيل صدقى باشا فعطلت البرلمان وألغت الدستور

وفى نفس الشهر اجتمع المؤتمر الوطنى الوفدى بالنادى السعدى من الشيوخ والنواب وأعضاء مجالس المديريات الوفديين . وفى ذلك الاجتماع دعا دولة النحاس باشا إلى عدم التعاون مع الوزارة وفى شهر سبتمبر عام ١٩٣٠ رفع نواب البلاد وشيوخها عريضة إلى جلالة الملك يلتمسون فيها اقالة الوزارة

وفى شهر ابريل سنة ١٩٣١ ائتلف الوفد والأحرار الدستوريون واتفق

المؤتلفون على مقاومة الوزارة الصدقية ووقعوا الميثاق الوطنى .واستمر الزعماء مقاومتهم السياسية حتى استقالت وزارة صدقى باشا فى أوائل عام ١٩٣٤ والف عبد الفتاح يحيى باشا وزارته التى سقطت فى شهر اكتوبر من تلك السنة وتولت وزارة توفيق نسيم باشا وقد أعطاها الوفد ثقته . فبدأت عملها بالغاء دستور سنة ١٩٣٠

وتسلمت وزارة على ماهر باشا مقاليد الحكم فى فبراير عام ١٩٣٦ وأجرت الانتخابات واستصدرت أمراً بتأليف الوفد الرسمى للمفاوضات المصرية البريطانية

وكانت قد تألفت الجبهة الوطنية — وهى التى تألف منها الوفد الرسمى المصرى للمفاوضات وانعقد البرلمان ثم استقالت الوزارة الماهرية فألف دولة النحاس باشا وزارته . ثم افتتحت المحادثات السياسية فى قصر الزعفران بين وفدين من السياسيين المصريين والانجليز (مارس سنة ١٩٣٦)

وفى ٢٨ ابريل عام ١٩٣٦ فجعت البلاد بوفاة عاهلها العظيم الملك فؤاد . فتولى جلالة الملك المعظم فاروق الأول ملك مصر

الملك فاروق الأول

عاد الملك فاروق الأول من انجلترا إلى بلاده العظيمة فى صبيحة يوم الأربعاء ٦ مايو عام ١٩٣٦ ليخلف المغفور له والده على عرش مصر وكان يرافق جلالته أحمد حسنين باشا(١)

لم يبق جلالته بالأسكندرية إلاريثما استراح قليلا ثم غادرها بالقطار الملكى إلى عاصمة ملكه . ولما بلغ محطة القاهرة حيى مستقبليه وصافحهم ثم ركب العربة الملكية وبجانبه دولة رئيس الوزراء وقتئذ على ماهر باشا وقصد فوراً إلى مسجد الرفاعى لزيارة قبر المغفور له والده . وقد خرجت القاهرة كلها إذ ذاك لتحية مليكها

وبعد أن أدى جلالته واجبه نحو منجبه عاد إلى قصر عابدين

وفى مساء يوم الجمعة ٨ مايو سنة ١٩٣٦ أذاع المليك على شعبه بالراديو خطبة تاريخية حيى فيها الشعب العزيز ونزلاء الأجانب الكرام

(١) كان يتلقى جلالته العلم فى انجلترا

وفى صباح اليوم المذكور قصد جلالته وصاحب السمو الملكى الأمير محمد على ولى العهد إلى مسجد سيدنا الحسين للصلاة. وكانت جموع الشعب تحييه فى كل مكان

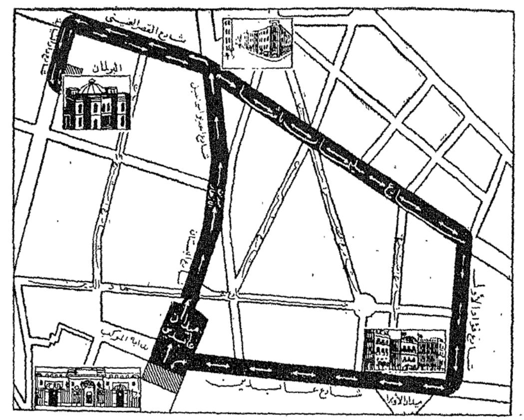
وفى ١٤ مايو افتتح البرلمان حضرات أعضاء مجلس الوصاية (وكان البرلمان قد انتهى من انتخابهم فى اليوم الثامن من مايو) وقد تألف من صاحب السمو الملكى الأمير محمد على ولى العهد رئيسا وحضرتى صاحبي المقام الرفع عزيز عزت باشا وشريف صبرى باشا عضوين

وفى ٢٦ أغسطس عام ١٩٣٦ وقعت المعاهدة البريطانيـة المصرية فى قاعة لوكارنو بوزارة الخارجية البريطانية . وعاد الوفد المصرى يحمل أكاليل الفوز فاستقبلته القاهرة استقبالا شـــعبيا حافلا . واستطاع الوفد عقب ذلك إلغاء الامتيازات الأجنبية فى مؤتمر عقد فى مونترو ودعيت إليه كافة الدول التى تتمتع بالامتيازات فى مصر وحدد فى ذلك المؤتمر المهلة التى تعمل فيها المحاكم المختلطة فى مصر

وفى يوم السبت ٢٧ مارس عام ١٩٣٧ أبحر جلاله الملك فاروق الأول إلى أوربا وأبحرت معه جلالة الملكة الوالدة وصاحبات السمو الملكى الأميرات . وفى باريس حضر جلالته إفتتاح القسم المصرى بمعرض باريس بحضور مسيو لبران رئيس الجمهورية الفرنسية .

وفى يوم ٢٥ يوليو عام ١٩٣٧ عاد جلالة الملك إلى وطنه وكان فى استقباله رئيس وزراء الدولة مصطفى النحاس باشا

وفى يوم ٢٩ يوليو حلف جلالة الملك اليمين الدستورية أمام نواب البلاد وشيوخها بمناسبة ولاية سلطته الدستورية . وقد بدأ الموكب الملكى من قصر عابدين العامر وسار فى شارع البستان فشارع الخديو اسماعيل فشارع قصر العينى الى البرلمان . ثم بدأ فى العودة من البرلمان فسار فى شارع قصر العينى فشارع سليمان باشا فشارع فؤاد الأول فشارع عابدين حتى وصل الى قصر عابدين . وفى خلال مرور الموكب لم يبق أحـد من أهل القاهرة فى داره. بل كان الجميع محتشدين فى هذه الشوارع ليبدو شعورهم نحو مليكهم المحبوب



وكان الفاروق خلال سير الموكب الملكى يحى شعبه بيمناه مبتسما . وكان هتاف الشعب له يشق أجواز الفضاء . ولا يذكر تاريخ مصر الحديث أن ملكا من ملوك هذا الوطن استقبل مثل ذلك الاستقبال الحماسى الرائع(١) . ولما عاد جلالته من البرلمان الى قصر عابدين احتشدت جموع الشعب فى ساحة عابدين احتشادا لم يعرف له نظير . وأخذ الهتاف بحياة الملك يتصاعد بقوة غريبة . فأطل صاحب الجلالة على شعبه وأخذ يرد على تحيته بيمناه وهو يبتسم

وفى صباح يوم السبت ٣١ يوليو سنة ١٩٣٧ عرض جلالة الملك جيشه فى ميدان الرصدخانة بالعباسية . يحف به رجال الياوران . وكانت القوات التى اشتركت فى العرض بقيادة اللواء حافظ عاطف باشا قائد قسم القاهرة

وفى يوم الاثنين ٢٣ أغسطس سنة ١٩٣٧ ذاع خبر عقد خطبة المليك على حضرة سليلة الشرف والكمال الآنسة فريدة هانم كريمة حضرة صاحب السعادة يوسف ذو الفقار باشا . فتقبل الشعب هذا الخبر بأبلغ مظاهر السرور ورفع الى مليكه أطيب التمنيات ثم أعلن الخبر رسمياً فى صباح يوم الخميس ٢٥ أغسطس

(١) مجلة المصور — عدد تذكار تولية الملك . أول سبتمبر سنة ١٩٣٧

الازهر فى قاهرة فؤاد وفاروق

نال الأزهر من عناية الملك فؤاد العظيمة قدراً كبيراً . فهو الذى أمر ببناء دور التعليم فيه على أحدث طراز وكان جلالته القائل : « بان الطالب والجندى يجب أن لا يناما على الأرض بل على سرير . فان فى رفعتهما فى النوم رفعة لنفسيهما » وهو الذى أوحى بفكرة إقامة العيد الألفى للأزهر . وأعرب عن رغبته فى تقديم موعده . وكان جلالته يقول :

« إن عشنا احتفلنا بهذا العيد . وإن لم نعش فسوف يحتفل به فاروق »

غمر جلالة الملك فؤاد الأول الأزهر بنعم متعاقبة وعطف خاص جعلته فى صفوف أرقى جامعات العالم نظاما وتعليما مع المحافظة على صبغته وتقاليده . ولأجل تحقيق هدفه عدل قانون الأزهر القديم(رقم ١٠ لسنة ١٩١١) بقانون رقم ٤٩ لسنة ١٩٣٠ الذى عدلت به المواد التى فرضها على الطلاب وعن الشهادات التى تمنحها الجامعة الأزهرية والوظائف التى يتقلدها خريجوها . . الخ (١)

فالملك فؤاد رحمه الله هو الذى أمر بانشاء أبنية فخمة فى الأزهر على أحدث طراز تهيأ للدراسة فى مراحلها المختلفة . وأبنية أخرى لسكنى الطلاب وللادارة العامة وللمحاضرات وللمكتبة والمستشفى . وفى سنة ١٩٣٣ أمر أن تزول المبانى العتيقة التى كانت تشوه منظر تلك الجامعة الاسلامية الكبرى لتجديد مدينة الأزهر ومساحتها (٥٦٧٤٠ مترا) وبناء كليات أصول الدين واللغة العربية والشريعة الاسلامية ودار للقسم الثانوى وثلاثة عمائر لسكنى حوالى ألفى طالب ودار للأدارة العامة للقسم الابتدائى وللمكتبة الأزهرية . كما تقرر نزع ملكية (٢٤٩٠ متر) لشق شوارع جنوبى الأزهر و ٤٢٠٠ متر أخرى للمتنزه وميدان الأزهر

وقد أنفق على مسا ـن الأزهريين ٤٤٨١٣ من الجنيهات وأنفق على الادارة العامة ٢٥٧٢١ جنيها ومما نذكره أنه قبل شهر من انتقال المغفور له الملك فؤاد

---

(١) كانت ميزانية الازهر فى عام ١٩١٧ (٦١٦٢٥ جنيها) فصارت فى سنة ١٩١٨ (٧١٣٢٤ جنيها) ووصلت سنة ١٩٣٦ الى ٣٢٣٩٧٦ جنيها

الى الرفيق الأعلى أصدر مرسوما بقانون فى ٢٦ مارس سنة ١٩٣٦ لتنظيم تلك الجامعة الخالدة . وقد كان الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى فضل لا ينكر فى التنظيم الجديد

والمكتبة الأزهرية العامة من أشهر المكاتب فى العالم وهى ثانية دور الكتب فى مصر من حيث عدد ما فيها من الكتب واحتواء كثير من نوادرها وقد مرت بأدوار كثيرة حتى جمع شملها . وهى تشغل اليوم ثلاثة أمكنة اثنان منها داخل الأزهر وهما المدرسة الأقبغاوية والمدرسة الطيبرسية والثالث خارج الازهر ملاصق له وهو الطابق الثانى من بناء أنشأته مشيخة الازهر سنة ١٩٣٦ وكان عدد الكتب التى ابتدأت بها مكتبة الأزهر سنة ١٨٩٧ — ٧٧٠٣ كتاباً وعدد فنونها ٢٧ فنا وأهمها المصاحف والقراءات والتفسير والحديث والأصول والنحو والبلاغة والفقه والمنطق والتاريخ .. الخ — وقد بلغت هذه سنة ١٩٤٣ ٥٨ فنا وبلغ عدد مجلداتها ٩٠٠٧٥ مجلداً (١)

ولقد اقتفى ملكنا الصالح أثر المغفور له والده فى العناية بهذا المعهد العظيم. ففى عهده السعيد سيتم بمشيئة الله تعالى ما بدأه والده بتنفيذ إنشاء باقى الكليات والمدرجات والمكتبة حول الأزهر وإذا كان الحاكم بأمر الله حفيد المعز مؤسس الأزهر قد فرشه بالحصير فقد أمر الفاروق حفظه الله بتغطية جميع أراضيه بالرخام وفرشه بالسجاد الفاخر على نفقته الخاصة مما جعل جميع المسلمين فى اقطار المعمورة يرددون آيات الشكر لجلالته

مساجد القاهرة فى أيام فؤاد والفاروق

لما ولى الملك فؤاد عرش مصر رأى مسجد الفتح أو عابدين (نسبة إلى منشئة عابدين بك أمير لواء القاهرة فى القرن السابع عشر) فى حاجة إلى الاصلاح. فأمر بتجديده على نفقة الأوقاف الخصوصية وقد افتتحه جلالته فى مارس سنة ١٩٢٠

وجدد الملك فؤاد أيضا مسجد الطباخ الملاصق لثكنات الحرس الملكى وقد أنشأه الأمير جمال الدين كوش فى القرن السابع الهجرى ثم جدده الحاج

---

(١) مجلة الازهر — المجلد الرابع عشر عام ١٣٦٢ — المكتبة الازهرية للاستاذ ابو الوفا المراغى

طباخ السلطان الناصر محمد بن قلاوون فى النصف الأول من القرن الثامن الهجرى. وقد تم تجديد هذا الجامع فى أوائل عام ١٩٣٢

ووجه الملك فؤاد عنايته لاصلاح جامع أحمد بن طولون لكى يعيد إليه رونقه الأصلى. وكان قد صلى فيه صلاة الجمعة (٢٢ رجب ١٣٣٦ هـ — ٣ مايو ١٩١٨). فوضع برنامج شامل لأزالة المبانى القديمة التى كانت تحيط بواجهاته الشرقية والغربية والقبلية وغرست حديقة جميلة أمام واجهته البحرية وأعيدت زخارفه القديمة كلها ومهدت أرض الصحن وأزيلت الأبنية التى كانت تشغل قسما منه ورمم السبيل الذى ألحق بالمسجد على عهد السلطان لاجين بالطرف الجنوبى الشرقى. وقد بلغت الاعتمادات المالية التى أنفقت لأعادة هذا الأثر الجليل إلى حالته الفخيمة مائة ألف جنيه ونيف.

كذلك أمر جلالته بتجديد جامع الصالح طلائع أقدم جوامع الفاطميين خارج سور القاهرة القبلى فابتدأت أعمال الهدم والبناء فى معظم مشتملاته حوالى عام ١٩١٨ وانتهت فى عام ١٩٣٢

أما المشروعات العظيمة التى أمر جلالته أن تقوم بها لجنة حفظ الآثار العربية لأحياء آثار السلطان برقوق من خانقات ومدارس فلا تتسع صفحات كتابنا لتدوينها بالايضاح الذى تستحقه ـ هذا إلى أعمال التجديد الاخرى التى لحقت بمعظم آثار القاهرة الأسلامية من مساجد وأسوار وبيوت

وفى عهد جلالة الملك فؤاد بدأت إصلاحات أساسية فى مسجد محمد على بالقلعة منها إزالة السقف والأعمدة التى تحمله بغيرها من الخرسانة المسلحة وقد تمت فى عهد جلالة الملك فاروق الأول ـ وتفضل حفظه الله بافتتاحه بأداء فريضة الجمعة فيه يوم ٥ محرم سنة ١٣٥٨ هـ كما أمر جلالته بعمل منبر رخامى وقد تم فى العام المذكور

وفى مصر الجديدة أقامت وزارة الأوقاف مسجدا فى شارع السلطان حسين احتفلت بافتتاحه فى يوم الجمعة (١٧ صفر سنة ١٣٥٠ — ٣ يوليو ١٩٣١)

وفى مستهل عهد الفاروق حفظه الله أخذ الجيش فى التوسع والزيادة التى استدعت بناء الثكن العسكرية فى مختلف أنحاء القطر. وكان أوسع هذه المبانى الثكن الجديدة التى تألفت منها مدينة الجيش فى الماظه

ولما كان الجيش المصرى يجرى على سنة مليكه وقائده الأعلى فى الاهتمام باقامة الشعائر الدينية فقد أقيم مسجد بين هذه الشكن . قام بتشييده سلاح المهندسين والأشغال العسكرية . وأطلق عليه اسم جلالته الكريم . وقد صلى فيه المليك المعظم صلاة الجمعة (٢٧ المحرم سنة ١٣٦١ — ١٣ فبراير ١٩٤٢) بحضور رئيس وزراء دولته رفعة النحاس باشا ووزير الدفاع الوطنى الفريق أحمد حمدى سيف النصر باشا ووزراء الدولة والفريق ابراهيم عطا الله رئيس هيئة أركان الحرب وضباط الجيش ورجال الدين .

جامعة فؤاد الأول

فى ٢١ ديسمبر سنة ١٩٠٨ افتتح سمو الخديو عباس الثانى رسميا فى حفل كبير الجامعة المصرية خطب فيه سمو الأمير أحمد فؤاد رئيس لجنتها التأسيسية خطبة نوه فيها بفضل الجامعة وبيان مزاياها . وكان المدرسون فى الجامعة خمسة منهم مصريان هما : احمد زكى بك (باشا شيخ العروبة) للحضارة الاسلامية . واحمد كمال بك (باشا) للحضارة المصرية القديمة . وبلغ عدد الذين قيدوا أسماءهم بين الطلاب ٧٥٤ منهم ٦٨٨ من المصريين و ٣١ من النساء . وممن تقرن أسماؤهم بتاريخ انشاء الجامعة الأميرة فاطمة اسماعيل شقيقة جلالة الملك فؤاد التى تبرعت بحلاها الثمينة وبقطعة أرض واسعة فى الجيزة لتشييد عليها الجامعة ، وسمو الأمير يوسف كمال ، وحسن بك زايد ، وعوض بك عريان .

وأخذت مناهج الدراسة تتسع من عام لعام وكثر عدد المحاضرين المصريين واستمرت الجامعة مفتوحة الأبواب لالقاء المحاضرات فى الآداب والفلسفة والعلوم الاجتماعية وتوفد بعثاتها الى الخارج الى سنة ١٩٢٣ حينما اتفق رجال إدارتها على التنازل عنها لوزارة المعارف العمومية فى ديسمبر عام ١٩٢٣ على أن تدمج فيها مدرستا الطب والحقوق وتنشأ فيها كلية للعلوم .

وفى ١١ مارس ١٩٢٥ صدر المرسوم الملكى بانشاء الجامعة باسم « الجامعة المصرية » مكونة من كليات الآداب والعلوم والطب والحقوق . ثم أنشئت كليات الهندسة والطب البيطرى والزراعة والتجارة

وفى السابع من فبراير سنة ١٩٢٨ احتفلت الأمة احتفالا رائعا بوضع الحجر الأساسى للجامعة المصرية على أرض تبلغ مساحتها ٩٠ فدانا بحدائق الأورمان منحتها لها الحكومة كما منحتها أرضاً أخرى تجاه بناء الجامعة وجزيرة الروضة تبلغ مساحتها ٤٤ فدانا لكلية الطب ومستشفى فؤاد الأول ، وكان على رأس المحتفلين الملك العالم احمد فؤاد الأول .

وقد بلغ عدد مجلدات مكتبة الجامعة فى سنة ١٩٣٦ — نحو ١٦٠ ألف مجلد فى فنون شتى — ويبلغ عدد الطلاب اليوم حوالى عشرة آلاف

متاحف القاهرة

وفى عهد الملكين فؤاد وفاروق أزدهرت متاحف القاهرة وزاد عددها وأصبحت قبلة رجال العلم والآثار . فمن تلك المتاحف — نذكر المتحف المصرى (شارع ماريت باشا) ودار الآثار العربية (باب الخلق) والمتحف القبطى (مصر القديمة) ومتحف فؤاد الأول الزراعى (بالدقى) وهو أكبر المتاحف الحديثة . والمتحف الجيولوجى (شارع السلطان حسين) ومتحف فؤاد الأول الصحى (شارع المدبولى) ومتحف الحشرات (شارع الملكة نازلى) ومتحف الفن الحديث (شارع الحوياتى) ومتحف القطن (حديقة الجمعية الزراعية الملكية) ومتحف السكة الحديدية (محطة القاهرة) . ومتحف سعد زغلول (بيت الأمة) والمتحف الحربى (شارع الشيخ بركات بقصر النيل) ومتاحف حديقة الحيوان بالجيزة والأحياء المائية (حديقة الأسماك) ومتحف الشمع التاريخى

الجمعيات العلمية

نمت الجمعيات العلمية فى القاهرة نمواً عجيباً ونشطت ابحاثها ومنتجاتها فى عهد الملك فؤاد . وها هى الجمعية الجغرافية الملكية التى أسسها اسماعيل باشا يتولى رئاستها الأمير احمد فؤاد فى الثلاثين من اكتوبر سنة ١٩١٥ بأشارة السلطان حسين الى سمو أخيه . وكان أول مظهر لعناية سموه بها تنسيق مكتبتها ومتحفها وتعديل اللائحة الداخلية . ولما استوى سموه على عرش مصر لم تنقطع رعايته لانهاضها ، ففى سنة ١٩٢٥ جعل جلالته مقر الجمعية فى البناء الفخم الذى كان فى

الأصل جزءا من القصور المشيدة فى عهد اسماعيل . وتؤدى الجمعية رسالتها اليوم على أكبر وجه بجانب ما اضطلعت به من الأعمال التاريخية — وبالقاهرة الجمعية المصرية للحشرات وقد أنشئت عام ١٩١١ بأشارة الملك فؤاد فى عهد الأمارة وعند ما تبوأ عرش مصر أصدر أمراً ملكياً سنة ١٩٢٣ بجعل الجمعية ذات صبغة رسمية . وقد بنى لها مسكان فخم فى شارع الملكة نازلى بجوار جمعية الأسعاف

وبالقرب منها الجمعية الملكية للاقتصاد السياسى والاحصاء والتشريع — وقد احتفل بافتتاحها فى الثامن من شهر ابريل سنة ١٩٠٩ — وفى ٧ ديسمبر ١٩١٨ افتتح السلطان فؤاد دورة أعمالها الجديدة . والمجمع المصرى العلمى المعروف بمكانه المتواضع فى شارع السلطان حسين وما زالت جلساته الشهرية مجمعا للعلماء والباحثين . ويهتدى بمكتبته رجال العلم والتاريخ . ونذكر الجمعية الزراعية الملكية وفضلها فى تحسين الزراعة لا يجهله أحد . والجمعية الطبية الملكية وجمعية المهندسين الملكية — والجمعية الرمدية المصرية — والمجمع المصرى للثقافة العامة — وجمعية محبى الفنون الجميلة — ومعهد الموسيقى الملكى

ومن آثار فؤاد رحمه الله مجمع اللغة العربية الملكى — وقد افتتح أولى جلساته فى ٣٠ يناير سنة ١٩٣٤ وهو يشغل اليوم قصراً فخما فى أول شارع قصر العينى مقابل وزارة الأشغال . كذلك معهد الصحارى المصرية الذى أمر بأنشائه الملك فؤاد على أطراف صحراء السويس ليكون معهداً للدراسة والبحث

خطط وشوارع جديدة

وفى عهد الملك فؤاد تم شق شارعين كبيرين — شارع الأمير فاروق وعرضه ٣٠ مترا يتوسطه خط الترام فارتبط حى العتبة الخضراء بحى العباسية فى ميدان فاروق — وشارع الازهر وعرضه ٢٦ مترا خففت حركة الضغط المتزايدة فى شارع الموسكى

وبدأ توسيع شارع الخليج ليكون عرضه ٤٠ مترا وهدمت من أجله الدور القديمة الآيلة الى السقوط واذا ما تم مشروع توسيعه ارتبطت القاهرة من جنوبيها الى شماليها . كذلك وسع شارع الاهرام الى أربعين مترا وتتوسط الشارع الأشجار والحدائق وبدأ ثراة القوم يبنون الدور الأنيقة على جانبيه كما قيم نفق فى ابتدائه تمر عليه السكة الحديدية للوجه القبلى

أما شارع الملكة نازلى وامتداده شارع الخليفة المأمون والذى يربط قلب القاهرة الحديثة بضاحية مصر الجديدة فقد أصبح من أجمل شوارع القاهرة غرست فى وسطه أشجار النخيل وعلى جانبيها يسير خط الترام الذى يصل بين العباسية وألماظة وقسم الى جانبين أحدهما للذهاب والآخر للاياب

وقد شيد حى جديد امتد على ضفة النيل الغربية من منطقة العجوزة حيث أقيمت مستشفى الجمعية الخيرية الاسلامية الى مدينة الجيزة وشيدت فى هذا الحى أجمل القصور والبيوتات الفخمة والمدارس ودور الحكومة واتسعت حدائق الحيوان بما ضم اليها من أراضى حديقة الاورمان

وامتد العمران فى منطقة شبرا من الشرق الى الغرب واتصل البناء الى قليوب تقريبا كما ارتبطت حلوان بالعباسية بطريق صحراوى جميل يمر بمدينة الأموات بالعباسية والامام الشافعى. وازيلت بعض الكيمان فى منطقة السيدة زينب وأقيمت فى مكانها بيوت أنيقة لصغار الموظفين. واكتظ حى القصر العالى بين ميدان الاسماعيلية (حيث ثكنات قصر النيل) ومستشفى قصر العينى على النيل بقصور الاثرياء من المصريين والأجانب. وهناك على سيالة الروضة يربض قصر سمو الامير الملكى محمد على ولى العهد بأسواره المنيفة وحدائقه التى لا مثيل لها ومجموعاته النادرة ونشأ حى الروضة من أول كوبرى محمد على ومستشفى فؤاد الأول الى كوبرى عباس واخترق هذا الحى شارع متوسط الاتساع

تعمير الضفة الغربية فى النيل

لقد ازدهر العمران ازدهارا مطردا فى داخل القاهرة. مما دفع رجال الحكومة فى عهد المغفور له الملك فؤاد الى تعمير الضفة الغربية للنيل أى المنطقة الواقعة بين شارع بولاق التكرور من الجهة القبلية وخط سكة حديد الوجه القبلى من الجهتين الغربية والبحرية وأراضى شركة الجيزة والروضة من الجهة الشرقية ومساحة هذه المنطقة ٢٦٦٦ فدانا تمتلك الحكومة ووزارة الأوقاف ٢٠٤١ فدانا منها. أما الباقى فتملكه شركة الجيزة والروضة و بعض الاهلين

وبتسلم الحكومة هذه الاراضى ستعنى بتخطيطها وتقسيمها وتنسيقها وتنظيمها طبقا لأحدث مبادىء تخطيط المدن. فتمد فيها الشوارع الواسعة وتنشىء فيها الميادين الفسيحة والمتنزهات والحدائق وتضع لبناء العمارات والدور شروطا

معينة . وقد اطلقت على هذه المنطقة — المدينة الفؤادية . وشرعت الحكومة فى بيع الاراضى ـ و قدشيدت بعض البيوت والفيلات الجميلة وعند مايتم بناء المدينة الجديدة . سنرى نهر النيل يجتاز قلب القاهرة كما هو الحال فى اكثر العواصم الأوربية . وقد منح الله مدينة القاهرة نهر النيل العظيم . فليس أصلح من أن يلتف العمران حول ضفتيه

تماثيل القاهرة

ولقد إزداد عدد التماثيل التى تتوسط ميادين القاهرة فقد أقيم تمثال نهضة مصر فى ميدان المحطة فى عهد الملك فؤاد . وتمثال سعد زغلول بالجزيرة وقد أزاح الستار عنه مندوب جلالة الملك فاروق (أغسطس ١٩٣٨) وتمثال مصطفى كامل بميدانه الجميل (سوارس سابقا)

عمارة القاهرة الحديثة

وفى خلال العشرين سنة الأخيرة تطورت طرز البناء بسرعة عجيبة . فبعد أن كنا نرى البيوت (العظيمة) ذات دور أرضى ودورين أو ثلاثة أصبحت ذات عشرة أدوار أو عشرين دوراً . تخترقها المصاعد السريعة وتجرى فى أنابيبها المياه الدافئة وأنابيب التدفئة والأضاءة الحديثة والتليفونات وأجهزة الأذاعة الحديثة . . الخ . ومن تلك العمائر الشاهقة عمارة بحرى بميدان الاسماعيلية وزميلتها بميدان مصطفى كامل — وعمارة شركة التأمين الايطالية بشارع عماد الدين وعمارة الأيموبيليا التى تواجه البنك الأهلى وغيرها

كذلك شيدت كثير من المبانى الحكومية كدار مصلحة التليفون ومصلحة الكيمياء بشارع الملكة نازلى ودار المحكمه المختلطة والاسعاف ودار البريد بميدان الملكة فريدة(١)



(١) راجع خاتمه الكتاب ص ٢٤٥

شاطئا النيل تجاه مصر القديمة والقاهرة

وما طرأ عليهما من التحويلات من الفتح العربى لمصر إلى اليوم (١)

أن شاطىء النيل الشرقى والغربى فى المسافة الواقعة تجاه مصر القديمة والقاهرة لم يكونا وقت فتح العرب لمصر فى سنة ٢٠ هـ — ٦٤١ م فى موضعهما الحالى، بل كان النيل من الجهة الشرقية يمر تحت الباب الغربى لقصر الشمع وتحت جامع عمرو بمصر القديمة، ثم يسير إلى الشمال مارا فى الجهة الغربية من جامع السيدة زينب على بعد ٣٠٠ متر من الجامع المذكور ثم يسير النيل فى طريقه مارا فى الجهة الغربية من ميدان عابدين فشارع عماد الدين ومنه إلى قرية أم دنين حيث يوجد الآن جامع أولاد عنان ثم إلى قرية منية السيرج . وكانت الأراضى الواقعة بين هذا الشاطىء وبين الجبل الشرقى تجاه مكان القاهرة كلها زراعية يخترقها الخليج المصرى من الجنوب إلى الشمال .

وأما من الجهة الغربية فكان النيل بعد أن يمر تحت سكن مدينة الجيزة يسير إلى الشمال مارا تحت سكن قرية الدقى، ومنها يسير فى طريقه إلى عزبة الحوتية ومنها إلى بلدة إمبابة . وبالبحث ومراجعة المصادر التاريخية تبين لى أن شاطىء النيل الشرقى قد طرأ عليه تسعة تحولات بسبب المرات التسع التى ظهرت فيها أراضى طرح البحر بين الشاطىء الشرقى الأصلى القديم السابق تعيين موقعه وبين مجرى النيل الحالى . وأما الشاطىء الغربى فقد طرأ عليه تحولان — الأول بسبب تحويل مجرى النيل من الغرب إلى الشرق بطريقة صناعية، والثانى بسبب طرح البحر الذى ظهر بين مكان شارع الجيزة وبين النيل الحالى . ويرجع السبب فى حدوث هذه التحولات المتكررة إلى ما كان عليه إتساع مجرى النيل

---

(١) بحث لصاحب العزة المؤرخ محمد بك رمزى نشره بمجلة العلوم (١٩٤٢)

بين الشاطئين المذكورين فى الأزمنة السابقة ، وبسبب قوة جريان مياه النيل وقت الفيضان ، حيث تتسلطهذه القوة على أراضى الجزائر والأراضى المرتفعة الواقعة على جانبى مجرى النيل وعلى الأخص الأجزاء التى لاتتحمل مقاومة تيار الماء الجارف فيأ كلها البحر بتيارهوينقل طينها من مكانه الأصلى ويطرحه بجوار الشواطىءالبعيدة عن تأثير قوةجريان ماء النيل . والواقع أن قوة سرعة جريان التيار وقت الفيضان تخف بجوار الشواطىءفى المناطق التى يكون فيها مجرى النيل واسعا فيرسب الطمى الذى تحمله المياه تدريجا على الجانب الذى تضعف فيه قوة التيار وعلى أساس هذه النظرية تكرر حدوث طرح البحر فى مجرى النيل تجاه مصر القديمة والقاهرة . ولم تكن نتائج بحثى فى تحولات شاطىء النيل مبنية على الاستنتاج التخيلى كما تصور الذين كتبوا فى هذا الموضوع ، نذكر منهم على باشا مبارك والأستاذ پول كازانوف P. Casanova والمستر شارل جون هزول Ch. J. Haswell والمسيو مارسيل كليرجيه Marcel Clergot وغيرهم ممن أثبتوا مباحثهم على الخارطاتالتى أرفقوها بمؤلفاتهم أو برسائلهمالتى نشروها فى المجلات العلمية ، وإنما بنيت مباحثى على :

أولا — دراستى لما ورد ذكره أصلا أو عرضا بشأن هذه التحولات فى كتب الخطط المقريزية والنجوم الزاهرة وتاريخ مصر للجبرتى ومن العبارات التى أرشدتنى إلى تعيين موقع كل طرح وحدوده . وإطلاعى على ما كتبه على باشا مبارك فى الخطط التوفيقية

ثانياً — الخبرة التى اكتسبتها من دراستى للتغييرات التى شاهدتها عند حدوثها على شاطىء النيل بسبب تأثير قوة جريان مائه وقت الفيضان وظهور طرح بجوار الشواطىء ، وذلك أثناء قيامى بحكم وظيفتى بالاشراف على أعمال اللجان التى كانت تقوم بعمليات مسح أطيان طرح البحر الذى كان يستجد سنويا على شاطىء النيل بالوجه القبلى

ولما كان تعيين موقع شاطىء النيل وموقع فم خليج القاهرة وقت دخول العرب فى مصر من المسائل الأساسية فى تاريخ طبوغرافية القاهرة قمت ببحث

هذين الموضوعين بحثاً وافيا توصلت به إلى معرفة الغرضين المطلوبين . وقد رأيت خدمة للعلم والتاريخ أن أبين موقع الشاطئين الشرقى والغربى للنيل تجاه مصر القديمة والقاهرة فى سنة ٦٤١ م وأن أبين كذلك التحويلات التى حدثت بعد ذلك على هذين الشاطئين وأعين مواقعها وحدودها من واقع المصادر التاريخية التى اعتمدت عليها

يستفاد مما ذكره المقريزى فى خططه عند الكلام على ساحل النيل بمدينة مصر (ص ٣٤٣ ج ١) وعلى المنشأة (ص ٣٤٥ ج ١) وعلى أبواب مدينة مصر (ص ٣٤٧ ج ١) وعلى منظرة المقس (ص ٣٨٠ ج ١) وعلى ظواهر القاهرة المعزية (ص ١٠٨ ج ٢) وعلى بر الخليج الغربى (ص ١١٣ ج ٢) وعلى اللوق (ص ١١٧ ج ٢) وعلى المقس (ص ١٢١ ج ٢) وعلى بولاق (ص ١٣٠ ج ٢) وعلى قنطرة السد (ص ١٤٦ ج ٢) وعلى قنطرة باب البحر (ص ١٥١ ج ٢) وعلى جزيرة الفيل (ص ١٥٨ ج ٢) وعلى صناعة مصر (ص ١٩٧ ج ٢) وعلى الميدان الناصرى (٢٠٠ ج ٢) ويستفاد أيضاً مما ورد فى حوادث سنة ٦٨٠ هـ المذكورة فى كتاب النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى (ص ٣٠٧ ج ٧) ومما هو مبين على خريطة الحملة الفرنسية الموضوعة سنة ١٨٠٠ يستفاد من كل ما سبق ذكره ومن المباحث التى أجريتها أن شاطىء النيل الشرقى الأصلى القديم تجاه مدينة مصر والقاهرة كان وقت فتح العرب لمصر واقعاً فى الأمكنة التى تعرف اليوم بالأسماء الآتية :

كان النيل بعد أن يمر على سكن ناحية أثر النبى جنوبى مصر القديمة يسير إلى الشمال بجوار شارع أثر النبى إلى أن يتلاقى بسكة حديد حلوان عند محطة المدابغ فيسير النيل بجوار هذه السكة إلى أن يتقابل بشارع مار جرجس فيسير محاذيا له من الجهة الغربية ماراً تحت قصر الشمع (الكنيسة المعلقة بمصر القديمة) وشارع مارجرجس وجامع عمرو، ثم يسير محاذيا لشارع سيدى حسن الأنور إلى نهايته ثم يسير بعد ذلك شمالا إلى النقطة التى يتقابل فيها شارع السد البرانى بسكة المدبح ثم يسير بعد ذلك متجها فى طريقه إلى الشمال فيمر فى حارة المغربى

بجنينة قاميش فشارع بنى الأزرق بجنينة لاظ فشـــارع جنان الزهرى فشارع مصطفى باشا كامل (الشيخ عبد الله سـابقا) لحارة البير قدار فشارع البلاقسة فشارع عماد الدين إلى نهـاية البحرية ثم ينعطف النيل مائلا إلى الشرق ويسير بجوار شارع الملـكة نازلى حتى يصل إلى ميدان باب الحديد ومن هناك ينعطف إلى الشمال الشرقى ماراً بميـدان محطة مصر ثم يمر بجوار محطة كوبرى الليمون من الجهة البحرية الغربية ، ثم يسير فى شارع غمرة بطول مائتى متر ثم يسير الى الشمال محاذياً لمخازن بضائع محطة مصر من الجهة الشرقية ثم يسير محاذياً لشارع مهمشة من الجهة الغربية ثم يسير بعد ذلك محاذياً لجسر السكة الحديدية الذاهبة إلى الاسكندرية من الجهة الشرقية وعند وصول النيل الى نقطة واقعة على هذه السكة تجاه عزبة الخمايسة يميل الى الغرب حتى يصل الى سكن ناحية منية السيرج وهناك يسير غربى سكن هذه الناحية ثم يسـير الى الشمال بدوران خفيف الى الغرب حتى يتقابل مع مجراه الحالى عند فم الترعة الاسماعيلية .

هذا هو خط سير الشاطىء الأصلى القديم للنيل تجاه مدينتى مصر والقاهرة فى سنة ٢٠ هـ — ٦٢١ م أى وقت فتح العرب لمصر . وبعد هذا التاريخ طرأ على الشاطىء المذكور تحولات بسبب طرح البحر وقد تبين لى أن النيل طرح أرضا جديدة تسع دفعات بجوار الشاطىء القديم وبيانها كالآتى : —

الطرح الاول

لما تكلم المقريزى فى خططه على ساحل النيل بمدينة مصر (مصر القديمة) (ص ٣٤٣ ج ١) قال أن بحر النيل عند فتح العرب لمصر كان ينتهى إلى الباب الغربى لقصر الشمع وإلى جامع عمرو بن العاص ولم يكن بينهما وبين النيل حائل. وكان النيل الأصلى يجرى بين الفسطاط وجزيرة الروضة إذ كانت فرقته بينهما أوسع الفرقتين وأقواهما . والتى بين الجزيرة والروضة هى أضيقهما وأضعفهما ثم انعكس الأمر وأصبح مابين الجزيرة والفسطاط ضيقا يجف ولا يعلوه الماء إلا فى زمن زيادة النيل وتحول النيـــل الأصلى إلى بر الجيزة بسبب انطراد ماء النيل عن بر مصر أى بسبب طرح البحر بين مدينة مصر وجزيرة الروضة. وفى

مجرى نهر النيل قبل العصر الفاطمي

سنة ٦٩ هـ انحسر ماء النيل عن أرض تجاه القصر والجامع المذكور ابتنى فيها والى مصر عبد العزيز بن مروان وآخرون واختص فيها المسلمون شيئا بعد شيء وصار شاطىء النيل بعد ذلك حيث الموضع الذى يعرف بسوق المعاريج فى المسافة الواقعة بين دار التفاح بمصر وبين باب مصر المجاور للكباره وهو كوم المشانيق ويقال لهذا الحد الساحل القديم ولباب مصر المذكور باب الساحل وإن دار التفاح كانت على الساحل القديم لمدينة مصر وكان باب مصر بين بستان العالمة الواقع قبلى الجامع الجديد وبين كوم الكباره . ويستفاد أيضا أن الساحل القديم وأوله من باب مصر المذكور المجاور لكباره إلى المعاريج كان جميعه بحرا يجرى فيه ماء النيل وأن سوق المعاريج كان موردة السمك . ولذلك عرف بساحل البورى ثم عرف بالمعاريج الجديدة . ولما تكلم على بر الخليج الغربى (ص١١٣ ج٢) قال : إنه لا يعلم أين كان فم خليج مصر عند ابتداء حفرة فى الجاهلية فان مصر فتحت وماء النيل يجري عند الموضع الذى فيها الآن جامع عمرو بن العاص بمصر وجميع مابين الجامع وساحل النيل الحالى إنحسر عنه الماء بعد الفتح وإن ساحل النيل وقت الفتح كان يمتد من عند سوق المعاريج القديم بمصر إلى تجاه الكبش من غربيه وجميع الأرض الواقعة الآن فيما بين السبع سقايات إلى المعاريج القديم إنحسر عنه الماء شيئا بعد شيء وغرس بساتين . ويستفاد مما ذكر أن هذا الطرح ظهر فى سنة ٦٩ هـ — ٦٨٨ م أى فى زمن حكم الدولة الأموية وولاية عبد العزيز بن مروان على مصر حيث طرح البحر أرضا جديدة اتصلت بالشاطىء القديم الأصلى فى المسافة الواقعة الآن بين ساحل أثر النبي وبين النقطة التى يتلاقى فيها شارع السد البرانى بسكة المدبح بقسم السيدة زينب ، وبهذا الطرح تحول الشاطىء من مكانه القديم فى المسافة المذكورة إلى الغرب كما هو مبين على الخريطة باسم الطرح الأول . وهذا هو التحول الأول وبسببه صار النيل يمر فى ذلك الوقت تحت الشاطىء الجديد الأول فى الأمكنة التى تعرف اليوم بالأسماء الآتية :

بدأ الطرح الجديد الأول من النقطة التى بها اليوم المحطة النهائية لخط ترام مصر القديمة الكائنة بشارع أثر النبي تجاه مكتب مامور السواحل قبلى مصر

القديمة ، فكان النيل يسير من هذه النقطة متجها الى الشمال فى مكان خط الترام بشارع أثر النبى وشارع عمرو بن العاص إلى أن يصل الى النقطة التى بها اليوم جامع سليمان باشا الفرنساوى بشارع مصر القديمة وبعد أن يمر النيل غربى الجامع المذكور يتجه بميل خفيف إلى الشرق حتى يصل إلى النقطة التى تتلاقى فيها سكة حديد حلوان بشارع جامع عمرو ، ومن هناك يسير النيل متجها إلى الشمال فى شارع أبو سيفين ثم فى شارع الديورة إلى نهايته البحرية ثم يسير النيل شمالا إلى أن يتلاقى مع الشاطىء الأصلى عند نقطة تلاقى شارع السد البرانى بسكة المدبح . هذا هو خط سير التحول الأول بشاطىء النيل الشرقى وقد نتج عن هذا التحول ظهور الأرض التى عليها اليوم (مصر القديمة)

الطرح الثانى

لما تكلم المقريزى فى خططه على ظواهر القاهرة المعزية (ص١٠٨ ج ٢) قال وكان أول الخليج الكبير عند وضع القاهرة بجانب خط السبع سقايات وكان ما بين هذا الخط وبين المعاريج بمدينة مصر غامراً بماء النيل وكانت القنطرة التى يفتح سدها عند وفاء النيل خلف السبع سقايات . ثم قال: وكان هناك منظرة السكرة التى يجلس فيها الخليفة يوم فتح الخليج ولها بستان عظيم يعرف موضعه بالمريس ، ويتصل هذا البستان من بحريه بجنان الزهرى . ثم قال : وكان خط جنان الزهرى وما يجاوره من البساتين التى على بر الخليج الغربى والمقس ، كل ذلك مطل على النيل ، وكانت المسافة بين الخليج وبين النيل قليلة العرض فكان النيل يمر غربى البساتين المذكورة على باب اللوق إلى المقس ، فكان المقس هو ساحل القاهرة وتنتهى المراكب إلى جامع المقس وكان بحر النيل يجرى فى المسافة الواقعة ما بين الجامع المذكور وبين أرض منية عقبه التى بين الجيزة . ولما تكلم على بر الخليج الغربى (ص ١١٣ ج ٢) قال : وعمل عبد العزيز بن مروان أمير مصر قنطرة على فم الخليج فى سنة ٦٩ هـ ، بأوله عند ساحل الحمراء ليتوصل من فوق هذه القنطرة إلى جنان الزهرى ، وأن موضع هذه القنطرة بحكر أقبغا المجاور لخط السبع سقايات ، وما برحت هذه القنطرة

عندها السد الذى يفتح عادة عند وفاء النيل إلى مابعد سنة ٥٠٠ ه فانحسر ماء النيل عن الأرض وغرست بساتين . وعمل الملك الصالح نجم الدين أيوب قنطرة السد خارج مصر ليتوصل من فوقها إلى منشأة المهرانى وبستان الخشاب وزيد فى طول الخليج مابين قنطرة السباع وبين قنطرة السد المذكورة ، وصار مافى شرقى الخليج مما انحسر عنه ماء النيل بستانا عرف ببستان الحارة وما فى غربى الخليج يعرف ببستان المحلى . وما برحت هذه البساتين موجودة إلى أن استولى عليها الأمير اقبغا عبد الواحد استادار الملك الناصر محمد بن قلاوون وأذن للناس فى البنـــاء والعمارة فيها ، فحكرها الناس وبنوا فيها الدور فعرفت بحكرا قبغا . وبذلك أهملت قنطرة عبد العزيز بن مروان لبعد النيل عنها وقدمت قنطرة السد حيث كان النيل ينتهى . وكان النيل وقت إنشائها فى سنة ٦٤٣ ه يصل إلى الكوم الأحمر الذى هو جانب الخليج الغربى تجاه خط بين الزقاقين فان النيل قد ربى جرفا امام الساحل القديم كما سبق ذكره . وقدتبين لى مما ذكره المقريزى فى جملة مواضع سبق ذكرها ومن دراسة مجرى النيل أن ظهور هذا الطرح كان حوالى سنة ٣٣٠ه — ٩٤١م أى فى أيام الدولة الأخشيدية إذ طرح البحر أرضاً جديدةاوصلته بالشاطىء القديم الأصلى فى المسافةالواقعة بين جامع الطيبى بشارع الديورة بقسم السيدة زينب وبين النقطة التى يتلاقى فيها شارع الخديو اسماعيل بشارع عماد الدين ، وبذلك تحول الشاطىء إلى جهة الغرب فى المسافة المذكورة كما هو مبين بالخريطة باسم الطرح الثانى وبسبب هذا التحول صار النيل يجرى فى ذلك الوقت فى الأمكنة التى تعرف اليوم بالأسماء الآتية: بدأ هذا الطرح من النقطة الواقع عليها الآن جامع الطيبى ، فكان النيل يسير من هذه النقطة بميل خفيف إلى الغرب إلى أن يصل إلى النقطة التى يتقابل فيها شارع مدرسة الطب بسكة حديد حلوان ثم يسير الشاطىء شمالا إلى النقطة التى يتلاقى فيها شارع الفلكى بشارع المبتديان ثم يسير فى شارع الفلكى إلى النقطـة التى يتقابل فيها هذا الشارع بشارع القاصد ومن هناك ينعطف إلى الشرق حتى يصل إلى النقطة التى يتلاقى فيها شارع الخديو اسماعيل بشارع عماد الدين . هذا هو خط سير التحول الثانى بشاطىء النيل الشرقى ، وقد نتج عن هذا الطرح المنطقة

التى فيها الآن سرايات وزارات الداخلية والعدل والمالية ورياسة مجلس الوزراء والدفاع الوطنى والمعارف العمومية ومدرسة دار العلوم والمعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية وشوارع نوبار باشا ومنصور وحلوان

الطرح الثالث

لما تكلم المقريزى على المنشاة (ص ٣٤٥ ج ١) قال : إن خليج مصر كان يخرج من بحر النيل فيمر بطريق الحمراء القصوى وكان فى الجانب الغربى من هذا الخليج عدة بساتين من جملتها بستان عرف ببستان الخشاب ثم خرب هذا البستان وموضعه الآن يعرف بالمريس ، فلما كان بعد الخمسمائة من سنى الهجرة انحسر النيل عن أرض فيما بين ميدان باب اللوق وبين بستان الخشاب المذكور فعرفت هذه الأرض بمنشأة الفاضل لأن القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى أنشأ بها بستانا عظيما كان يمد أهل القاهرة بثماره وأعنابه ، وعمر بجانبه جامعا ، وبنى حوله . فقيل لتلك الخطة (منشأة الفاضل) وكثرت بها العمارة . ثم قال : وبعد ذلك استوى البحر على بستان الفاضل وجامعه وعلى سائر ما كان بمنشأة الفاضل من البساتين والدور . وقطع البحر ذلك ، حتى لم يبق لشىء منه أثر وما برح باعة العنب بالقاهرة ومصر تنادى على العنب بعد خراب بستان الفاضل بقولهم (رحم الله الفاضل ياعنب) إشارة إلى كثرة أعناب بستان الفاضل وحسنها ثم قال : وكان أكل البحر لمنشأة الفاضل هذه بعد سنة ٦٦٠ هـ . ولما تكلم على اللوق (ص ١١٧ ج ٢) ذكر ما يفيد أن أرض اللوق كانت غامرة بماء النيل ثم انحسر عنها وهى تمتد بين منشأة المهرانى جنوبا وقنطرة الدكة شمالا ويحدها من الشرق جنان الزهرى وبركة الشقاف وبستان الدكة ومن الغرب النيل وفم الخور ويمر النيل من الدكة الى المقس وكانت طاقات المناظر التى بالدكة تشرف على النيل ولا يحول بينها وبين رؤية بر الجيزة شىء ثم ذكر أن النيل كان يمر بساحل الحمراء وغربى جنان الزهرى ولما انحسر عن الأرض الواقعة تجاههما عرفت بأراضى اللوق إلى أن تنتهى الى ساحل المقس فاتصلت أراضى اللوق بالمقس ولما تكلم عن الميدان الصالحى (ص ١٩٨ ج ٢) قال إنه كان بأرض اللوق

بر الخليج الغربى وموضعه الآن من جامع الطباخ بباب اللوق الى قنطرة قدادار ، أنشأه الملك الصالح إلى أن انحسر ماء النيل من تجاهه وبعد عنه. ومماذكر تبين لى أن هذا الطرح ظهر حوالى سنة ٥٢٠ هـ — ١١٢٦ م أى فى أيام الدولة الفاطمية إذ طرح البحر أرضا جديدة متصلة بالطرحين الأول والثانى فى المسافة الواقعة بين جامع الطيبي السابق ذكره وبين النقطة التى يتلاقى فيها شارع توفيق بشارع الملكة نازلى . وبذلك تحول شاطىء النيل الشرقى للمرة الثالثة إلى الغرب فى المسافة المذكورة كما هو مبين على الخريطة باسم الطرح الثالث . وبسبب هذا التحول صار النيل يجرى فى ذلك الوقت فى الامكنة التى تعرف اليوم بالاسماء الآتية : يبدأ هذا الطرح من جامع الطيبي ثم يسير إلى الشمال بميل نحو الغرب حتى يصل إلى النقطة التى يتقابل فيها شارع قصر العينى بشارع بستان الفاضل ومن هنا يسير إلى الشمال ماراً بشارع قصر العينى حتى يصل إلى النقطة التى يتلاقى فيها هذا الشارع بشارع القاصد ثم ينعطف بميل الى الشمال الشرقى حتى يصل إلى النقطة التى يتقابل فيها شارع الخديو اسماعيل بشارع الحوياتى ومن هنا يسير الى الشمال من شارع الحوياتى الى نهاية البحرية التى يتلاقى فيها بشارع جامع جركس ومن هناك يسير الى الشمال على خط مستقيم حتى يصل إلى النقطة التى يتلاقى فيها شارع توفيق بشارع الملكة نازلى . هذا هو خط سير التحول الثالث وقد نتج عنه المنطقة التى تقع فيها اليوم كلية التجارة (المدرسة الناصرية سابقا) وسرايات وزارات التجارة والصناعة والشئون الاجتماعية والأشغال العمومية والصحة ومجلس النواب ومجلس الشيوخ والكلية الأمريكية والمدرسة الفرنساوية ووزارة الأوقاف والبنك الأهلى ويمر فيها شارع شريف باشا وشارع أبى السباع

الطرح الرابع

يستفاد مما ورد فى كتاب الخطط المقريزية عند الكلام على جزيرة النيل (ص ١٨٥ ج ٢) وعلى بولاق (ص ١٣٠ ج ٢) أن الأراضى الواقعة فى المنطقه التى تشمل الآن قسمى شبرا وروض الفرج بالقاهرة كان موضعها الى منتصف القرن السادس الهجرى غامرا بالماء أي أنها كانت ضمن مجرى النيل فى

أيام الدولة الفاطمية وكان شاطىء النيل الشرقى للقاهرة ينتهى فى ذلك الوقت الى مكان شارع عماد الدين فقرية أم دنين (المقس) فميدان باب الحديد فالمكان القائم عليه اليوم محطة كوبرى الليمون ثم يسير النيل شمالا الى الشرابية وإلى منية السيرج ومنها الى المكان الذى به اليوم فم الترعة الاسماعيلية . وكان شاطىء النيل الغربى ينتهى عند قرية الدقى بالجيزة ثم يسير شمالا الى بلدة امبابة ومنها الى وراق الحضر وأنبوبة بمركز امبابة . وفى أواخر حكم الدولة الفاطمية غرق فى النيل مركب يعرف بالنيل وترك فى مكانه ، فرفع عنه الرمل وانحسر عنه الماء فصار جزيرة يحيط بها الماء من جميع الجهات وعرفت من وقتها بجزيرة الفيل ثم علا أراضيها الطمى وما برحت تتسع مساحة أراضيها حتى تم تكوينها حول سنة ٥٧٠ هـ فزرعت فى أيام السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ووقف أرضها على المدرسة الصلاحية التى أنشأها بالقرافة الصغرى بجوار قبر الامام الشافعى رضى الله عنه ، ومكانها اليوم جامع الامام الشافعى بالقاهرة . ثم زادت بعد ذلك مساحة أطيان جزيرة الفيل بانحسار النيل عنها فى كل سنة حتى انه فى سنة ٦٧٠ هـ طرح البحر بجوارها فاتصلت بأرض بولاق وأرض الطبالة وأرض البعل وأرض منية السيرج . وفى أيام الملك المنصور قلاوون مسحت أرض هذه الجزيرة وما ظهر فيها من الزيادة ، بعد وقف صلاح الدين وقفة الملك المنصور على المارستان المنصورى الذى فى مكانه اليوم مستشفى قلاوون بشارع المعز لدين الله (شارع النحاسين سابقا) بالقاهرة . وفى أيام المنصور قلاوون أنشأ الأمراء والأعيان بجزيرة النيل الدور والقصور والبساتين حتى صارت بلداً كبيراً به جامع وسوق كبيرة وعدة بساتين جليلة بلغ عددها مائة وخمسين بستانا من أحسن البساتين لجمال منظرها وكثرة ثمارها واستمرت هذه الجزيرة على هذا الحال الى أن حدثت المحن سنة ٨٠٦ هـ فأخذ ما كان فيها من الدور والقصور يتلاشى تدريجا ولم يبق بها إلا البساتين والأراضى الزراعية . وأقول إن جزيرة الفيل مكانها الآن المنطقة التى يمر فيها شارع شبرا من الجنوب الى الشمال وكان يحدها وقت أن كانت فى وسط الماء من الغرب النيل حيث يمتد الآن جسر طراد النيل القديم وشارع أبو الفرج ومن الجنوب النيل حيث يسير الآن شارع

جزيرة بدران وشارع بركات ، ومن الشرق والشمال سيالة مياه كانت فاصلة فى ذلك الوقت بين هذه الجزيرة وبين أرض الطبالة التى تشمل اليوم منطقة محطة كوبرى الليمون والفجاله وبركة الرطلى وبين أرض البعـل التى تعرف اليوم بالشرابية ومهمشة ومنية السيرج ومنها إلى فم الترعة الاسماعيلية . وفى سنة ٦٨٠هـ ظهرت الأرض التى عليها سكن بولاق ثم طمست السيالة التى كانت واقعة فى الشرق والشمال لجزيرة النيل، فاتصلت الجزيرة ببولاق وبالشاطىء الشرقى القديم للقاهرة

الطرح الخامس

لما تكلم المقريزى على صناعة مصر (ص ١٩٧ ج) قال إن الصناعة كانت أولا فى جزيرة الروضة فى شمال المقياس ، وفى سنة ٣٢٥ هـ أمر الأخشيد محمد بن طفج أمير مصر بنقل الصناعة إلى دار خديجة بنت الفتح بن خاقان زوجة الأمير أحمد ابن طولون وصار إنشاء المراكب بها . ولما ولى المأمون البطائحى ، وزارة الخليفة الآمر بأحكام الله فى سنة ٥١٥ هـ وسع هذه الصناعة وأضاف اليها دار الزبيب وأنشأ بها منظرة لجلوس الخليفة يوم تقدمه الأسطول ورؤيته، وكان فيها ديوان الجهاد ، ثم قال ولم تزل هذه الصناعة عامرة على النيل إلى ماقبل سنة ٧٠٠هـ، ثم قال وكان فيما بين هذه الصناعة وأصبح بعيداً عنها خربت وصار مكانها بستانا عرف ببستان ابن كيسان ثم عرف بعد ذلك ببستان الطواشى ، وهو على يسار من يريد مصر من طريق المراغة ، ومن وراء هذا البستان كنيسة للنصارى وأن الجرف الذى يتربى تجاه الصناعة عرف بعضه ببستان الجرف والبعض الآخر بخط بين الزقاقين ، وبستان الجرف يقع تجاه بستان ابن كيسان على يمنة من سلك إلى مصر من طريق المراغة ، ولما تكلم على قنطرة السد (ص ١٤٦ ج ٢) قال: انه لما انحسر ماء النيل عن الجانب الشرقى للخليج وانكشفت الأراضى التى عليها خط بين الزقاقين إلى موردة الخلفاء وموضع الجامع الجديد إلى دار النحاس وماوراء هذه الأماكن الى المراغة وباب مصر بجوار الكبارة وانكشف من أراضى النيل أيضا الموضع الذى يعرف بمنشاة المهرانى . ولما تكلم على ساحل النيل بمدينة مصر (ص ٣٤٣ ج ١) قال إن ساحل النيل ما بين مكان الجامع

الجديد بموردة الخلفاء وبين المدرسة المعزية كان مغمورا بالماء الى أن انحسر عنه ماء النيل بعد سنة ٦٠٠ هـ فصار رملة ، فلما رمى النيل الجرف وتربت جزيرة قدام الساحل القديم الذى هو من الكبارة الى دار التفاح . أى فى مكان الرملة المذكورة أنشأ الملك الناصر محمد بن قلاوون الجامع الجديد وعمرت موردة الحلفاء واتصلت من بحريها بمنشأة المهرانى ومن قبليها بالأملاك التى تمتد من الجوامع الجديدة الى دير الطين . ثم قال : وكان موضع الجامع الجديد بحراً وفى زمن الملك الصالح نجم الدين أيوب صار مهملا تمرغ فيها الدواب فى زمن تحاريق النيل وجفاف البحر فلما عمر الملك الصالح قلعة جزيرة الروضة صار فى كل سنة يحفر هذا البحر ويطرح رمله على الشاطىء ومنه هذه البقعة التى صارت فيما بعد شونا للاتبان ثم بنى عليها الجامع الجديد . وبعد ذلك شرع خواص السلطان فى العمارة على هذا البحر ، فامتدت العمارة من قبالة موضع الجامع الجديد إلى المدرسة المعزية وبذلك حدث الساحل الجديد الحالى لمدينة مصر (مصر القديمة) ولما تكلم على باب مصر ضمن أبواب مدينة مصر (ص ٣٤٧ ج ١) قال : وكان موضع هذا الباب غامراً بماء النيل فلما انحسر الماء عن ساحل مصر صار الموضع المعروف بالمراغة والموضع المعروف بغيط الجرف إلى موردة الخلفاء فضاء لا يصل إليه ماء النيل فأراد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب أن يدير سورا يجمع فيه القاهرة ومصر وقلعة الجبل ، فزاد فى سور القاهرة من باب الشعرية إلى باب البحر وأراد أن يمد السور من باب البحر إلى الكوم الأحمر الذى هو بحافة خليج مصر تجاه خط بين الزقاقين ، ليصل أيضا من الكوم الأحمر إلى باب مصر هذا ، فلم يتهيأ له هذا الغرض ، وانقطع السور عند جامع المقس . ومما ذكره المقريزى فى خططه ومن المباحث التى أجريتها يتبين لى أن هذا الطرح الخامس ظهر حوالى سنة ٦٢٠هـ — ١٢٢٣ م إذ طرح البحر أرضاً جديدة متصلة بالطرح الأول وبالقسم الجنوبى من الطرح الثالث فى المسافة الواقعة بين جامع سليمان باشا الفرنساوى الواقع بشارع عمرو بن العاص بمصر القديمة وبين النقطة التى يتلاقى فيها شارع عمرو بن العاص بمصر القديمة وبين النقطة التى يتلاقى

فيها شارع قصر العينى بشارع اسماعيل باشا سرى وبذلك تحول شاطىء النيل الشرقى للمرة الخامسة من الشرق إلى الغرب فى المسافة المذكورة كما هو مبين على الخريطة باسم الطرح الخامس وبسبب هذا التحول صار النيل يجرى فى ذلك الوقت فى الأمكنة التى تعرف اليوم بالأسماء الآتية : يبدأ هذا الطرح من نقطة واقعة على شاطىء النيل الحالى تجاه جامع سليمان باشا الفرنساوى بمصر القديمة ثم يسير النيل فى مجراه الحالى إلى فم الخليج المصرى الذى ردم فى سنة ١٨٩٩ ثم إلى مستشفى قصر العينى وعند كوبرى محمد على يميل مجرى النيل إلى الشمال الشرقى حتى يصل إلى النقطة التى يتلاقى فيها شارع قصر العينى بشارع اسماعيل باشا سرى . هذا هو خط سير التحول الخامس ويقع الآن فى أرض هذا الطرح مستشفى الارسالية الانجيلية الانجليزية بمصر القديمة ودير النحاس الحالى وسواقى مجرى الماء بحائط العيون وفم الخليج ومستوصف رعاية الطفل ومستشفى الانكلستوما ومعهد الابحاث ومستشفى الكلب وكلية الطب ومستشفى قصر العينى

الطرح السادس

لما تكلم المقريزى فى خططه على الميدان الظاهرى (ص ١٩٨ ج ٢) قال قال إن هذا الميدان كان بطرف أراضى اللون اللوق يشرف على النيل وموضعه الآن تجاه قنطرة قدارار التى بجهة باب اللوق ، أنشأه الملك بيبرس البندقدارى سنة ٦٦٥ هـ لما انحسر ماء النيل وعلى بعد عن ميدان أستاذه الملك الصالح نجم الدين أيوب . ومازال يلعب فيه بالكرة هو ومن بعده من ملوك مصر إلى أن كانت سنة ٧١٤ هـ أمر الملك الناصر محمد بن قلاوون بعمله بستانا لبعد البحر عنه ، ثم أنعم به على الأمير قوصون الساقى فعمر تجاهه على النيل فى الأرض التى ظهرت بينه وبين النيل الزريبة التى عرفت بزريبة قوصون وبنى الناس الدور الكثيرة هناك . وتبين مما ذكره المقريزى فى خططه فى جملة مواضع سبق ذكرها وعلى الأخص عند كلامه على الميدان الصالحى والميدان الظاهرى أن هذا الطرح ظهر حوالى سنة ٦٦٠ هـ — ١٢٦٢ م أى فى أوائل حكم دولة المماليك البحرية إذ طرح البحر

أرضا جديدة متصلة بالطرح الثالث فى المسافة الواقعة بين ميدان الخديو اسماعيل وبين النقطة التى يتقابل فيها شارع ماريت باشا بشارع الملكة نازلى وبذلك تحول شاطىء النيل الشرقى إلى الغرب فى المسافة المذكورة وقد بيناه على الخريطة المرفقة باسم الطرح السادس وبسبب هذا التحول صـــار النيل يجرى فى ذلك الوقت فى الأمكنة التى تعرف اليوم بالأسماء الآتية : يبدأ هذا الطرح من النقطة التى يتلاقى فيها شارع قصر العينى بشارع القاصد ثم يسير النيل فى شارع القصر العينى إلى نهاية البحرية ثم يميل إلى الشمال الغربى مخترقا ميدان الخديوى اسماعيل إلى أن يتلاقى بأول شارع مريت باشا من جهة الميدان المذكور ثم يسير فى شارع ماريت باشا إلى نهاية البحرية التى يتلاقى منها بشارع الملكة نازلى . هذا هو خط سير التحول السادس وهو من التحولات الصغيرة كما هو مبين على الخريطة وقد نتج عنه المنطقة التى يمر فيها الآن شوارع الانتيكخانة المصرية وشامبليون ومعروف والنمر .

الطرح السابع

لما تكلم المقريزى على المقس (ص ١٢١ ج ٢) قال : إنه قديم وإنه هو القرية التى كانت تعرف فى أيام الجاهلية بأم دنين وهى محلة بظاهر القاهرة فى بر الخليج الغربى . وكان المقس عند وضع القاهرة على ساحل النيل، وبه أنشأ الخليفة المعز لدين الله الفاطمى دار الصناعة التى كانت تنشأ فيها السفن وبه أيضا أنشأ الخليفة الحاكم بأمر الله جامع المقس . ولما تكلم عن بولاق (ص ١٣٠ ج ٢) قال ما يفيد . إن ساحل النيل كان بالمقس ، ثم انحسر ماء النيل أمام هذا الساحل وتقلص ماء النيل عن سور القاهرة الذى ينتهى إلى المقس وصارت هناك رمال وجزائر ما من سنة ألا وهى تكبر حتى بقى ماء النيل لا يمر بها إلا أيام الزيادة فقط ، ثم صار النيل يطمى عليها سنويا إلى أن أصبحت هذه الرمال والجزائر ساحلا متصلا بالمقس ، وصارت أرضه صالحة للزراعة والسكن فى سنه ٧٠٠هـ وفى سنة ٧١٣ هـ صرح الملك الناصر محمد بن قلاوون بالبناء والعمارة فى هذه الأرض ، فتسابق الناس بالعمارة فيها ، وأنشأوا فى نهايتها الغربية على النيل تربة

جديدة هى بولاق . ولما تكلم على منظرة المقس (ص ٤٨٠ ج ١) قال : إنها كانت بجوار جامع المقس من الجهة البحرية وهى مطلة على النيل وكان حينئذ ساحل النيل بالمقس . ولما تكلم على ظواهر القاهرة المعزية (ص ١٠٨ ج ٢) قال : وكان خط جنان الزهرى وما يجاوره من البساتين التى على بر الخليج الغربى والمقس ، كل ذلك مطل على النيل ، وكانت المسافة بين الخليج وبين النيل قليلة العرض ، فكان النيل يمر من البساتين المذكورة على باب اللوق إلى المقس فكان المقس هو ساحل القاهرة وتنتهى المراكب إلى جامع المقس ، وكان بحر النيل يجرى فى المسافة ما بين الجامع المذكور وبين أرض منية عقبة التى ببر الجيزة. ثم قال : وكان ماء النيل قد انحسر أيضا عن أرض تجاه البعل فى بحرى القاهرة عرفت هذه الأرض بجزيرة النيل وما برح ماء النيل ينحسر شيئا بعد شيء عن الشاطيء القديم فتخلت رمال فيما بين منشاة المهرانى وبين جزيرة الفيل وفيما بين المقس وساحل النيل الحالي إلى أن طمت وزرعت بساتين ، فصار بر الخليج الغربى بعد ذلك أضعاف ما كان أولا بسبب انطراد مائه عن بر مصر والقاهرة الشرقى . ولما تكلم فى خططه على قنطرة باب البحر (ص ١٥١ ج ٢) قال إن مكان هذه القنطرة كان غامرا بماء النيل فلما انحسر الماء عن بر القاهرة صار امام باب البحر رملة فاذا وقف الإنسان عند باب البحر رأى البر الغربى لا يحول بينه وبين رؤيته بنيان ولا غيره . ثم قال ولما طال المدى اتصل خارج باب البحر بأرض باب اللوق وغرس فيه الأشجار فصار بساتين ومزارع ثم تتابع الناس فى العمارة حتى انتظم ما بين شاطيء النيل ببولاق وباب البحر عرضا وما بين منشاة المهرانى ومنية السيرج طولا . ولما تكلم على جامع الخطيرى (ص ٣١٢ ج ٢) قال إن هذا الجامع موضعه الآن بناحية بولاق خارج القاهرة وكان موضعه قديما مغمورا بماء النيل الى نحو سنة ٧٠٠ ﻫ فلما انحسر ماء النيل عن ساحل المقس صار ماقدام المقس رمالا لا يعلوها ماء النيل أيام الزيادة ثم ارتفعت الأرض بحيث لا يعلوها الماء فبنى الأمير عز الدين أيدمى الخطيرى جامعه على شاطيء النيل وكملت عمارته فى سنة ٧٣٧ ﻫ ثم إن البحر قوى على هذا الجامع وهدم فأعاد

الخطيرى بناءه ورمى قدام زربية الجامع ألف مركب مملوء بالحجارة . ولما تكلم على الميدان الناصرى (ص ٢٠٠ ج ٢) قال : إن هذا الميدان من جملة أراضى بستان الخشاب فيما بين مدينة مصر والقاهرة وكان موضعه قديما غامرا بماء النيل ثم لما طمى مكانه عرف ببستان الخشاب وأنشأ به الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة ٧١٤ ﻫ هذا الميدان لأنه كان حينئذ مطلا على النيل. ولما تكلم أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى فى كتاب النجوم الزاهرة على حوادث سنة ٦٨٠ ﻫ ذكر فى صفحة ٣٠٧ من الجزء السابع طبع دار الكتب المصرية أنه فى تلك السنة تربت جزيرة كبيرة ببحر النيل فى المكان الذى فيه بولاق والآن تجاه اللوق والمقس وانقطع بسببها مجرى البحر ما بين قلعة المقس ومنية السيرج وانسد هذا ونشف بالكلية واتصل ما بين المقس وجزيرة الفيل بالمشى ولم يعهد فيما تقدم أن حصل لأهل القاهرة مشقة فى نقل الماء الحلو لبعد البحر وأراد السلطان قلاوون الألفى حفر البحر فى تلك الجهة فنهوه عن ذلك وقالوا هذا نشف إلى الأبد فتأسف السلطان على ما حدث . ومما ذكر من المباحث التى أجريتها تبين لى أن هذا الطرح ظهر فى سنة ٦٨٠ ﻫ — ٢١٨١ م وفى هذه الدفعة زادت مساحة أرض الطرح زيادة لم يسبق لها مثيل فى الدفعات السابقة فقد ظهرت الأرض التى عليها الآن قسم بولاق بأكمله وجزء من قسم الأزبكية والأرض الواقعة بين السكة الحديدية الموصلة إلى الصعيد وبين شارع جزيرة بدران من قسم روض الفرج وطمت أيضا أرض السيالة التى كانت فاصلة بين أراضى منية السيرج والشرابية وميدان باب الحديد من جهة وبين جزيرة الفيل التى بها الآن قسما شبرا وروض الفرج من جهة أخرى . وبسبب هذا الطرح الذى اتصل بما سبقه من الطروح فى المسافة الواقعة بين مستشفى قصر العينى من الجنوب وبين شارع جزيرة بدران من الشمال انتقل شاطىء النيل الشرقى تجاه القاهرة الى جهة الغرب وأصبح النيل يجرى فى مجراه الحالى من كوبرى محمد على الواقع على سيالة الروضة الى ثكنات قصر النيل فالكاتدرائية الانجليزية ثم يسير فى شارع ماسبيرو فشارع الخضرا فشارع سوق العصر وبعده يسير النيل

فى طريقه الى الشمال ماراً غربى جامع الشيخ محمد الأخرس ثم يسير مخترقاً أرض عنابر السكك الحديدية ببولاق إلى أن يصـــل إلى جامع الشيخ فرج من الجهة الغربية وهناك يتصـل هذا الطرح بأرض جزيرة الفيل حيث يمتد بجوارها فى حدها القبلى بطول شارع جزيرة بدران وشارع بركات وهما الحد الفاصل بين جزيرة الفيل المذكورة وبين هذا الطرح وبظهور هذا الطرح اتصلت أراضى جزيرة الفيل من جهتها الشرقية بأراضى منية السيرج والشرابية وميدان باب الحديد . ومن جهتها القبلية بأرض بولاق أى بالطرح الجديد الذى اتصل هو أيضا بشارع الملكة نازلى من جهته الشرقية وبذلك بعد النيل عن القاهرة واتسعت أراضيها من الجهة الغربية كما يشاهد من الاطلاع على موقع هذا الطرح المبين على الخريطة المرافقة باسم الطرح السابع . وفى هذا الطرح الذى ينتهى حده الشرقى بشارع الملكة نازلى وشارع ماريت باشا وشارع قصر العينى تقع مدينة بولاق وقسم بولاق ومتحف الآثار المصرية وثكنات قصر النيل وسراى وزارة الخارجية وخط قصر الدوبارة وخط القصر العالى

الطرح الثامن

لما تكلم المقريزى فى خططه على بولاق (ص ١٣٠ ج ٢) قال فى آخر كلامه عليها — أنه لما كانت سنة ٨٠٦ هـ انحسر ماء النيل عن ساحل بولاق ولم يزل يبعد حتى صار على ما هو عليه الآن ثم قال وناحية بولاق عامرة وتزايدت بها العمائر وتجددت فيها عدة جوامع وحمامات ورباع وغيرها. ومما ذكر يتبين أن هذا الطرح ظهر فى سنة ٨٠٦ هـ — ١٤٠٣ م فى المسافة الواقعة بين شارع فؤاد الأول عند تقابله بشارع المطبعة الأهلية وبين النقطة التى يتقابل فيها شـــارع أبو الفرج بشـارع جزيرة بدران فى شمال عنابر السكك الحديدية وبذلك تحول النيل الى جهة الغرب فى المسافة المذكورة كما هو مبين على الخريطة وبسبب هذا التحول صار النيل يجرى فى ذلك الوقت فى الأمكنة التى تعرف اليوم بالأسماء الآتية : يبدأ هذا الطرح من النقطة التى يتقابل فيها شارع المطبعة الأهلية بشارع فؤاد الأول فشارع أبو الفرج الى أن يتقابل بشارع جزيرة بدران كما ذكرنا .

وفى هذا الطرح يقع جامع سنان باشـــا ومركز بوليس قسم بولاق وعنابر السكك الحديدية

ساحل مستجد بجوار الطرح السابع

يستفاد مما ذكره الجبرتى فى تاريخ مصر عند الكلام على ترجمة الأمير على بك الكبير (ص ٣٨٠ ج ١) أن الأرض الواقعة الآن بين شارع المطبعـــة الأهلية وبين مجرى النيل الحالى والمبينة على الخريطة بين الطرح السابع وبين النيل قد استجدت بجوار بولاق حول سنة ١١٨٥ هـ — ١٧٧١ م وأنشأ فيها على بك عمارته الكبيرة على ساحل النيل فى ذلك الوقت ،حيث يمر شارع المطبعة الأهلية الآن ، وذلك بسبب ما كان يلقى من الأتربة وبقايا العمارات بجوار الساحل القديم ، فطمى النيل عليها ، وبذلك تكونت الأرض القائمة عليها الآن المطبعة الأميرية ومصلحة الورش الأميرية وورشة مصر الصناعية ومصلحة وابورات الركائب الملكية التى كانت تعرف بالترسانة

الطرح التاسع

بالاطلاع على خريطة القاهرة رسم الحملة الفرنسية فى سنة ١٨٠٠ تبين لى أن النيل كان يجرى فى تلك السنة بجوار شارع أبو الفرج وشارع جسر طراد النيل من الجهة الغربية . وبالاطلاع على خريطة القاهرة رسم كل من المسيو بور Mr. Baur والكولونيل Scultz شولتز فى سنة ١٨٤٦ تبين لى أنه قد ظهر بين تلك السنة وسنة ١٨٠٠ أرض طرح بحر جديد غربى الشارعين السابقين. يشمل المنطقة التى تحد اليوم من الشمال بفم الترعة الاسماعيليـة ومن الغرب بمجرى النيل الحالى ومن الجنوب بمصلحة وابورات الركائب الملكية ومن الشرق بشارع المطبعة الأهلية ببولاق وشارع أبو الفرج وشارع جسر طراد النيـل . وبالبحث فى دفاتر المكلفات تبين أن هذا الطرح ثبت ظهوره فى سـنة ١٨٣٠ وبه انتقل شاطىء النيل الشرقى للمرة الثامنة وهى الأخيرة تجاه القاهرة. وقد بيناه على الخريطة المرافقة باسم الطرح التاسع واستمرت أرضه زراعية إلى حوالى سنة ١٨٧٠ وفيها بدأ الأهالى بانشاء قرية روض الفرج الواقعة على فم ترعـــة

جزيرة بدران بالقرب من كوبرى إمبابة . ثم أخذت العمارة بأرض هذا الطرح فى الزيادة والانتشار الى أن تكونت ضاحية روض الفرج الحالية بمنتزهاتها وملاهيها وساحلها ، ومن كل ما ذكرناه تفصيلا فى هذه الرسالة يتبين للقارىء أن شاطىء النيل الشرقى الحالى لمدينة القاهرة من قرية أثر النبى جنوباً الى فم الترعة الاسماعيلية شمالا قد استجد جميعه بعد الفتح العربى لمصر ، كما هو مبين على الخريطة المرفقة بهذه الرسالة

الشاطىء الغربى للنيل تجاه القاهرة

وما طرأ عليه من التحولات

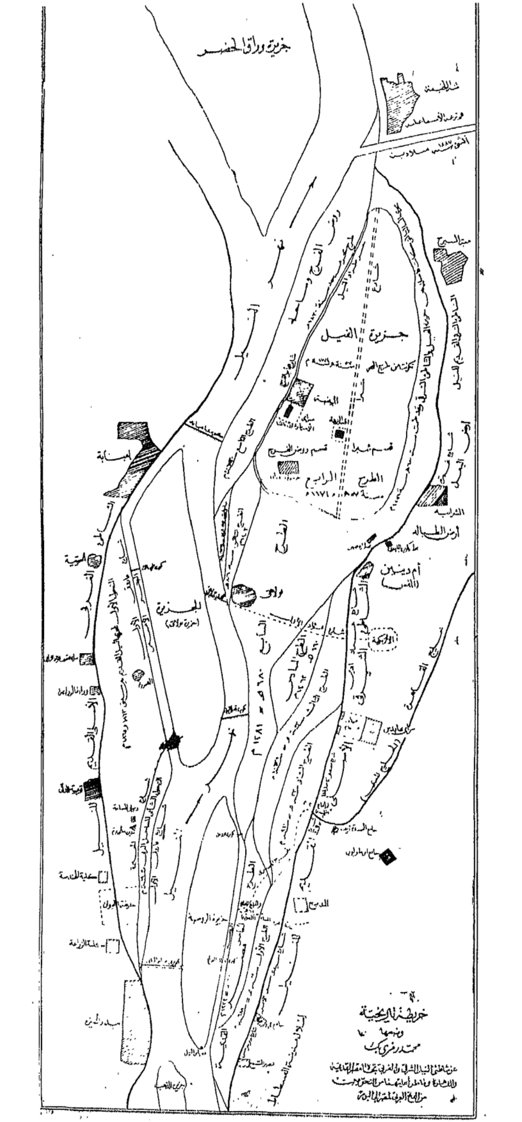
هذا الشاطىء طرأ عليه تحولان — الأول بسبب تحويل مجرى النيل من الغرب الى الشرق بعمل هندسى والثانى بسبب طرح البحر وهاك بيانهما :

التحول الاول بسبب تحويل مجرى النيل

من الاطلاع على خريطة القاهرة رسم الحملة الفرنسية فى سنة ١٨٠٠ يتبين أن شاطىء النيل الغربى تجاه القاهرة كان واقعا فى ذلك الوقت تحت الأمكنة الآتية : بعد أن يمر النيل تحت سكن مدينة الجيزة يسير إلى الشمال مائلا إلى الغرب قليلا فيمر شرقى مبنى كلية الزراعة ثم يسير مخترقا أرض حديقة الحيوان ثم يمر شرقى مبنى كلية الهندسة إلى أن تصل إلى شارع الدقى فيسير محاذيا له من الجهة الشرقية ثم يسير مارا شرقى مبنى وزارة الزراعة فمتحف فؤاد الزراعى فعزبة الحوتية ثم يسير مائلا إلى الشرق حتى يتلاقى بمجراه الحالى جنوبى سكن مدينة امبابة ولا تزال آثار جسر النيل الغربى القديم هذا باقية إلى اليوم بين الدقى وامبابه ومبينة على خريطة القاهرة لغاية سنة ١٩٣٠ . ولما تولى الخديو اسماعيل حكم مصر فى أول سنة ١٨٦٣ علم أن ماء النيل لا يمكث فى السياله الواقعة بين بولاق وبين الجزيرة الكبيرة الامدة الفيضان ثم ينحسر عن السيالة بسبب ضيق مجراها وارتفاع منسوب قاعها فتجف السيالة ومتى جفت بعدت المياه عن القاهرة فينال السقاؤون الكثير من المتاعب والمشاق فى نقل الماء إلى دور القاهرة وذلك قبل وجود شركة المياه . فأمر الخديو رحمه الله بتحويل مجرى النيل الأصلى من الغرب حيث كان يمر تحت سكن ناحية الدقى إلى الشرق حيث يوجد الآن

شارع الجيزة وشارع فاروق الأول (البحر الأعمى) سابقاً . وفى سنة ١٨٦٣ بدأ ديوان الهندسة بأجراء عملية التحويل باقامة جسر فى النيل بين مدينتى الجيزة وامبابة وفى سنة ١٨٦٥ تمت هذه العملية وأخذ النيل فى مجراه تحت الشارعين السابق ذكرهما . وكانت نتيجة إقامة هذا الجسر أن تخلف عن النيل المنطقة الغربية منه التى كانت بين قرية الدقى وبين الشارعين المذكورين . ثم قامت شركة فرنسية بردم القسم الجنوبى من تلك المنطقة بمعاونة رجال العونه فى المسافة الواقعة بين مدينة الجيزة وشارع ثروت - وأما القسم الشمالى من تلك المنطقة أى فى المسافة الواقعة بين شارع ثروت وامبابه فقد طمت أرضها بتحويل مياه الفيضان عليها بطريقة هندسية . وبذلك أصبحت هذه المنطقة أرضاً زراعية تتوسطها اليوم قرية العجوزة . وقد ترتب على هذا التحول أن تسلط النيل على الجزء الجنوبى من الجزيرة الكبيرة الذى كان قريب الاتصال بجزيرة الروضة فى أيام التحاريق وكذلك على الساحل الشرقى من تلك الجزيرة تجاه بولاق وأكل منها جزءاً كانت نتيجة اتساع مجرى النيل تحت بولاق واستمرار وجود الماء تحتها طول أيام السنة كما هو الآن والأرض التى أكلها البحر من الجزيرة الكبيرة نقلها إلى الجهة البحرية منها وبذلك تم تكوين أرض المنطقة البحرية الواقعة فى شمال شارع فؤاد الأول المعروفة الآن بالزمالك . والزمالك كلمة ألبانية معناها الأخصاص أو العشش التى من البوص والقش ومثيلاتها العشش التى تقام الآن فى مصيف رأس البر . وترجع تسمية المنطقة المعروفة بهذا الاسم إلى حوالى سنة ١٨٣٠ إذ أنشأ محمد على باشا الكبير قصراً بين المزارع فى الجهة الشمالية من أرض الجزيرة الكبيرة حيث يقوم اليوم نادى ضباط الجيش والحديقة الملحقة به واتخذه للنزهة وكان بالقرب من هذا القصر (زمالك) يصطاف فيها رجال حاشيته وعساكر حرسه فعرفت المنطقة منذ ذلك الوقت باسم الزمالك

وأما الأرض التى تخلفت من مجرى النيل القديم بطريق الردم فى شمال مدينة الجيزة فقد أنشأ الخديو اسماعيل على القسم الجنوبى منها سراى الجيزة بمبانيها الفخمة وحديقتها التى لم يكن لها مثيل بأرض مصر ، ثم أنشأ فى شمالها حديقة الأورمان أى الغابة وجلب اليها أنواع الأشجار من آسيا وأوروبا وأميركا . وأنشأ كذلك بحديقة السراى بعض القصور الصغيرة كانت هى والحديقة



جزيرة وراق الحضر
جزيرة الفيل
أم دنين
(المقس)
الجزيرة
(جزيرة بولاق)
امبابة
الشرابية
أرض الطبالة
جزيرة الروضة
خريطة تاريخية
وضعها
محمد رمزي بك

كما شهدتها فى غاية الابداع والجمال . وقد زرت هذه السراى هى والقصور والحدائق الملحقة بها عدة مرات وقت أن كانت بحالتها الكاملة الجميلة للتى تأخذ بمجامع القلوب . وفى سنة ١٩٠٣ سطت أيدى التخريب على السراى المذكورة والقصور التى كانت فى حديقتها الغناء فمحتها من الوجود وأصبحت أثراً بعد عين ولا يزال يوجد من تلك الآثار حديقة الأورمان . وكذلك المبانى التى يشغلها اليوم ديوان مديرية الجيزة ومصلحة المساحة ، فانها هى وما يجاورها من المبانى الواقعة فى الجهة البحرية منها على شارعى الجيزة وفاروق الأول ، إلى بلدة امبابة كلها تقع فى مجرى النيل القديم، كما هو مبين على الخريطة المرافقة باسم التحول الأول

التحول الثانى بسبب طرح البحر

إنه بسبب تحويل مجرى النـــيل من الغرب الى الشرق بالعمل الهندسى السابق ذكره فى التغيير الأول . تحولت قوة تيار ماء النيل الى الشاطىء الشرقى وبسبب هذا التحول ضعفت قوة التيار تحت الشاطىء الغربى الجديد فطرح البحر أرضا جديدة فى سنة ١٨٧٠ تحت الشاطىء المذكور ، هى عبارة عن الساحل الواقع الآن بين شارع الجيزة وشارع فاروق الأول على النيل فى المسافة الواقعة بين كوبرى عباس وبين كوبرى فم البحر الأعمى المعروف بكوبرى الانجليز . وفى سنة ١٩٠٣ باعت الحكومة أرض هذا الساحل ومساحتها ٩٢ فدانا الى الخواجة امبرواز زرفوداكى وأولاده ، ولانخفاض أرض الساحل عن منسوب أرض شارع الجيزة قام المشترون بردمها بأتربة نقلوها من مجرى النيل وقت التحاريق بعربات الديكوفيل لتعلية أرض الساحل المذكور واعدادها لاقامة المبانى عليها ، وبعد أن تمت عملية الردم فى سنة ١٩٠٥ كما شاهدتها وضع أصحاب الأرض لها خريطة وقسموها الى قطع يفصلها عن بعضها شوارعها الحالية وبيعت تلك القطع، فأنشأ عليها أصحابها ما تشاهده اليوم فيها من القصور الجميلة والحدائق الزاهرة بين شارع الجيزة والنيل، حيث يمتد شارع فاروق الأول كما هو مبين باعلا التحول الثانى

ومن سنة ١٨٧٠ الى اليوم احتفظ شاطئا النيل الشرقى والغربى تجاه القاهرة بحالتهما الحاضرة بسبب صيانتهما وتنظيم سير مجرى النيل بينهما

محمد رمزى

خاتمة الكتاب

قاهرة هذه الأعوام

لقد أخذت القاهرة تتحول فى السنوات الأخيرة إلى عاصمة عالمية . ومن المحقق أنها ستظل بعد الحرب القائمة مركزاً للكثير من النشاط الاجتماعى والسياسى والاقتصادى

وقد مرّت على القاهرة العريقة فترات من التاريخ . كانت فيها قلب العالم المتحضر حينما كانت المدنية مركزة أو تكاد تكون كذلك فى حوض البحر الأبيض المتوسط . فلما انتقلت الحضارة غربا انتقلت معها مراكز نشاطها . ومع ذلك فقد ظلت القاهرة مزدهرة بتاريخها القديم وآثارها المنقطعة النظير

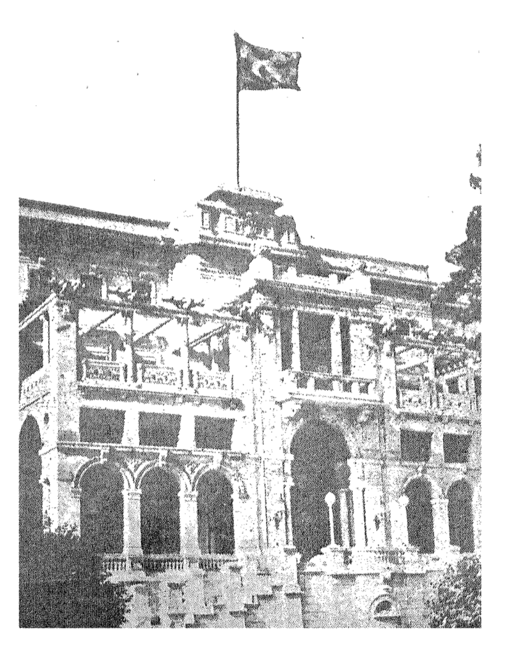
وتتوسط القاهرة بموقعها القارات الثلاث التى يتألف منها العالم القديم . وكانت تعد فيما مضى بعيدة عن العالم الجديد . ولكن تقدم المواصلات وما ينتظر أن يبلغه الطيران بعد الحرب من شأو بعيد . سيطوى أطراف العالم بعضها إلى بعض . وسيقرب ما بين الثقافات الشرقية والغربية

لقد رأت القاهرة فى هذه الحقبة فى تاريخ العالم من الحوادث الكبيرة والمؤتمرات الخطيرة . وشاهدت من أقطاب السياسة والحرب فى العالم مالم يتفق لعاصمة أن رأته وشاهدته فى الخمسة والعشرين سنة الأخيرة

وقد رأت القاهرة أخيراً ملوك كثيرين منهم — ملك اليونان جورج الثانى وملك العراق فيصل الثانى — وملك يوجوسلافيا بطرس الثانى

ورأت من رؤساء الجمهوريات الرئيس الأميركى روزفلت . والرئيس الصينى شانج كاى شيك والرئيس التركى عصمت إينونو — والأمير الوصى على عرش العراق عبد الآله

ورأت من رؤساء الوزرات المستر تشرشل الوزير البريطانى الأول والماريشال سمطس رئيس حكومة جنوبى أفريقيا . والمسيو تسو ديروس رئيس



الجزء الأوسط من واجهة قصر القبة

الوزارة اليونانية . والمسيو بوليتش رئيس الوزارة اليوجوسلافيـة . والسيد نورى السعيد وزير العراق الأول والسيدسعد الله الجابرىوزير سوريا الأول ووزير خارجيته . كما رأت من وزراء الخارجيـة غير المتقدم ذكرهما المستر انطونى إيدنوزير خارجيةبريطانيا والمستر كوردل هل وزير خارجية الولايات المتحدة الاميريكية والسيد منمنجى اوغلو وزير خارجية تركيا ومندوب الملك ابن السعود ورئيس وزارة شرق الاردن والسيد رياض الصلح وزير العدل

أما السفراء وكبار القواد الذين رأتهم القـــاهرة فيعدون بالعشرات من بريطانيين وأميركيين وروس وصينيين وعرب وهنود وأفريقيين

وهذه المؤتمرات الخطيرة التى عقدتفىالقاهرةبين رؤساء الدول ـ كلذلك جعل لمصر شأنا آخر

وستظل القاهرة (أم الدنيا) محتفظة بميزة لاتجاريها فيها أية عاصمة عالمية أخرى . فانها تجمع بين الحضارتين القديمة والجديدة . وتحفل أرضها بتراث لا يقدر من الآثار والتحف والعاديات . وستظل تجذب اليها آلاف الزوار من مشارق الأرض ومغاربها

ان مصر قبلة الزائرين والقاصدين بسبب آثارها الجميلة وفنها الخاص الرائع وطابعها الشخصى البديع . فهل هناك تقصير فى الافادة من ميزاتنا خصوصا فى الأبنية . وأهل هذا الوادى هم حفـــداء الذين علموا البشر التشييد والتخليد . وابناء الذين رقوا الأذواق بالزخرفة والتزيين

ان مستقبل القاهرة ذات الألف عام فى يد ابناء هذا الجيل المثقف الفنان فليحفظ الله لنا القاهرة « وليحفظ الله الفاروق »



أهم مراجع الكتاب

المراجع العربية

التى نقلنا عنها واقتبسنا منها و اعتمدنا عليها فى إنشاء كتاب القاهرة

١ — أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور — ٣ أجزاء (بولاق سنة ١٣١١ هـ).والأجزاء المتممة له للمستشرق الألمانى كاليه
٢ — أبو العباس أحمد القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الانشاء — ١٤ جزء (القاهرة سنة ١٩١٤)
٣ — أنور زقلمه : المماليك فى مصر (مطبعة المجلة الجديدة ١٩٣٠)
٤ — إلياس الأيوبى : تاريخ مصر فى عهد الخديو اسماعيل فى مجلدين
٥ — أحمد شفيق باشا : مذكراتى فى نصف قرن فى مجلدين ١٩٣٤
٦ — إسماعيل سرهنك باشا : حقائق الأخبار عن دول البحار فى مجلدين — ١٣١٤هـ
٧ — تقى الدين أحمد بن على المقريزى : المواعظ والاعتبار فى ذكرى الخطط والآثار أربعة أجزاء — مطبعة النيل (١٣٢٤ هـ)
٨ — جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بن بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقـــاهرة — ثمانية أجزاء — طبعة دار الكتب المصرية (١٣٤٨ — ١٣٥٥ هـ)
٩ — جوجى زيدان : تاريخ مصر الحديث — جزءان (مطبعة الهلال ١٩٢٥)
١٠ — الدكتور حسن ابراهيم حسن: الفاطميون فى مصر(دار الكتب ١٩٣٣)
١١ — حسن محمد الهوارى : رسالة فى وصف محتويات دار الآثار العربية — (مطبعة الاعتماد ١٩٢٩)
١٢ — زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين — (مطبعة دار الكتب المصرية) عبد الرحمن زكى : فى كتاب مصر الاسلامية — (المقتطف)
١٣ — على إبراهيم حسن : تاريخ جوهر الصقلى (مطبعة حجازى ١٩٣٣)

١٤ — سمو الأمير عمر طوسون : البعثات العلمية فى عهد محمد على — ١٣٥٣ هـ
١٥ — عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم و الآخبار — أربعة مجلدات
١٦ — عبد الرحمن بن أبى بكر جمال الدين السيوطى : حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة — جزءان (القاهرة ١٣٢٧ هـ)
١٧ — على باشا مبارك — الخطط التوفيقية — ٢٠ جزء — بولاق سنة ١٣٠٦ هـ)
١٨ — على بهجت بك ومسيو ألبير جبريل : حفريات الفسطاط — (مطبعة دار الكتب ١٩٢٨)
١٩ — عبد الرحمن الرافعى بك: تاريخ الحركة القومية فى ثلاثة أجزاء — ١٩٢٩ وكتاب عصر اسماعيل فى مجلدين (١٩٣٣)
٢٠ — عبد الله عنان : مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية — ١٩٣١
٢١ — عبد الرحمن زكى : الجيش المصرى فى عهد محمد على الكبير — القاهرة. ١٩٣٩
٢٢ — كلوت بك : لمحة عامة فى تاريخ مصر ترجمة الأستاذ محمد بك مسعود فى مجلدين
٢٣ — محمد فريد أبو حديد: صلاح الدين الأيوبى وعصره (دار الكتب ١٩٢٧) فتح العرب لمصر تأليف الدكتور بتلر (دار الكتب ١٩٣٣)
٢٤ — محمد عبد الجواد الأصمعى : قلعة محمد على لا قلعة نابليون — ١٩١٤
٢٥ — محمد رمزى : مقالات ورسائل فى تاريخ القاهرة — مجلة العلوم — (١٩٤٠ — ١٩٤٣)

المراجع الأفرنجية

26— Abbate: Les origines du Caire. 1880
27— Reynolds Ball: The City of the Caliphs 1897
28— M. Briggs: Mohammedan Architecture in Egypt and Palestine 1927
29— Mrs. Butcher: The Story of the Church of Egypt 2 vols 1899
30— Prof. Capt. K. A. G. Creswell:
1. Chronology of Muslim Monuments. B. I. F. 1917
2. The Citadel of Cairo. B. I. F.
3. The Foundation of Cairo. Bull. Faculty Arts Vol. I. Part 11. 1934
31— M. Clerget: le Caire. 2 vols. 1934

32— J. M. Carré: Voyageurs et Ecrivains Francais en Egypte — 2 Vols.

33— Mrs. Devonshire
1. Rambles in Cairo. 1917, 1939
2. l'Egypte Musulmane et les Fondateurs de Ses Monuments. Paris 1926

34— J. Ebers : Egypt — 2 Vols.

35— Fraser. M. R: Egypt to-day. 1892

36— L. Jardey: Voyage du Sultán Abdel Abdel Aziz de Istamboul au Caire 1865

37— Kay. H. Y: El-Kahirah and its gates. J. R. A. S. 1882

38— J. Hanotaux :
Histoire de la Nation Egyptienne. 5 vols.

39— Hautecoeur et Wiet; Les Mosquées du Caire. 1933

40— Lamplough. A. O, Cairo and its environs. London

41— Linant de Bellefond: Memoire Sur les Principaux Travaux Utilitè Publique exécutés en Egypte

42— Margoliouth: Cairo, Jerusalem and Damascus. Oxford 1907

43— Migeon J. :le Caire, le Nil, et Menfis. Paris. 1928

44— Nassiri Khosrou: Sefer Nameh Relation du Voyage. Paris 1881

45— Penfield E J. :Present. day Egypt. 1899

46— Poole S. Lane-
1— The Story of Cairo. London 1902
2— Cairo Sketches of its History. London 1895

47— Poole. E. W. L. Cairo fifty years ago. London 1896

48— E. Pauty: Les Palais et les maisons d'epoque Musulmane au Caire. 1932

49— Paton. A. A:
A History of the Egyptian Revolution — 2 Vols.

50— Précis de l'histoire de l'Egypte. 5 Vols.

51— Ravaisse P. Essai sur l'històre et sur le Topographie du Caire d'après Makrisi 1887 – 90

52— Reynolds Ball: the City of the Caliphs. Boston 1897

53— Rhoné A. l'Egypte à petites journées 1877

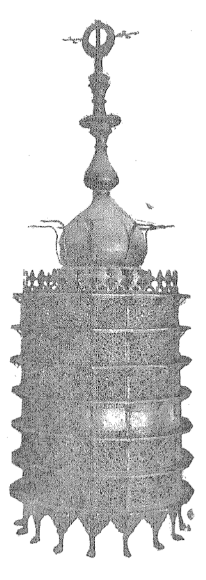
54— Sladen D. Things ought to be seen in Cairo

55— M. Van Berchem. Notes d'Archéologie Arabe. Extr. du Journal Asiatique 1819

56— Dr. Zaky M. Hassan. Les Tulindes 1934

فهـرس





تنور مملوكى من النحاس المنقوش فى مجموعة دار الآثار العربية


Bibliotheca Alexandrina
0415768